سعد عودة

عرس سماوي

رواية

عُرسٌ سَماوِي

رواية

سعد عودة

روايــة : عرس سماوي
المؤلف : سعد عودة رسن
لوحـة الغلاف: للفنان محمد مسير
تصميم الغلاف: دار أدب فن
إصــدار : دار أدب فن للثقافة والنشر- هولندا
adabfan@gmail.com

كل الشخصيات والاحداث
في هذه الرواية
هي من صنع خيال المؤلف
وأي تشابه لها مع شخصيات او احداث في الواقع
فهو من قبيل المصادفة فقط

الاهداء

الى كل الذين خلقتهم في روايتي هذهِ
ولم أقابلهم في يومٍ ما

موت وفنجان أمل

الدموع التي تسللتْ بهدوء الى شيلتها السوداء خلفتْ أخاديدَ رمادية تمتد حتى ثوبها الذي تفوح منهُ رائحةُ العرق, هذا العرق رسم اشكالاً اعتباطية على الثوب الأسود على شكلِ قاراتٍ غير مترابطة الأطراف, تستطيعُ ان تميزَ خريطةً واضحة المعالم لكنها ليست لِأرضنا هذه بل لعالمٍ أخر بدأ يتسلل بكل أبجدياتهِ الى جسد الأم, كان الطريقُ الى المستشفى طريقاً لولبياً داخل المجرة بينما تخطتْ اقدام الأم سرعة الضوء لكي يتساوى عندها الزمان والمكان في لحظةٍ انفلتت من ذاكرة الوقت, هي لم تتحرك انتقلت من بيتها المرمي وسط سوقٍ يرتدي عباءات سوداء على الدوام الى الصالة الرئيسية في المستشفى بينما طفلتها التي تتمدد بين يديها وهي مغطاة بأخاديد حمراء تستمر في الفراغ الموجود بين جسدِ الطفلة والأرض على شكلِ نتوءات تحاولُ تحويلَ الزاوية القائمة التي تصنعها المرأة بذراعها الى زاوية منفرجة, رمت الطفلة على السدية وانهارت على الأرض, لبست الكائنات حولها نوع من الأجنحة النورانية بينما أنفتح سقف المستشفى لتنفلت الى سماواتٍ غير واضحةِ المعالم نتيجة للسرعةِ الهائلة التي تطيرُ فيها قبل ان تسقطَ في المكان الذي يتواجد فيهِ الربُّ, الأيائل بقرونها الحريرية لا يعنيها ثوب الأم الأسود الذي توزعت على أقاليمهِ نقاط حمر على شكل جزر غير مأهولة بينما لوثْ الحشائش رؤوسها مبتعدةً عن رائحة الدم والعرق, الصمت تحول الى لون من الصخب الجميل, الكل يصرخون باتجاه انفسهم فقط, صوت واحد يستطيع ان

يصلَ الى هذا العالم, الأم وبشكلٍ ما تستطيع تمييز صوت زوجها الذي يأتي مخنوقاً وبطيئاً لكنهُ يرتفع بشكل واضح

(بويه.....يابويه)

فتيات شُبه عاريات يحملنَ فوانيسَ سحرية وشباب بلحى خفيفة وصدورٍ مكشوفة يقدمون لون من الفاكهة لا يعرفها احد من قبل وعصيراً رمادياً بأقداح كريستال يسبح داخل العصير ملائكةٌ على شكل اطفال تصيبهم موجة من الضحك يعملون على تسهيل الهضم وتسريب الغازات بينما اللون الوردي للسمكة المشوية يبقى واضحاً ومميزاً حتى بعد عملية الشواء, ينتشر في بطن السمكة اطفالٌ بأجساد ممتلئة وأعضاءٍ ذكرية مُضحكة يقومون بعملية استخراج العظام من السمكة وتهييج اللحم الطري ليتسنى للأم تناولهُ بسهولة

(بويه....يابويه)

رغم ان صوتَ الأب جاء مُنهكاً هذه المرة ولكن الفتيات المكشوفات الصدر اللواتي يرفعنَ الأم والمائدة ويقمنَ بعملية تغيير اتجاههما ليتغير شكل المنظر المواجه لها, بدأن يختفين كلما اتضح صوت الأب فتسقط الأم والسمكة معا لكن اختفاء الصوت يرفعهما بشكل مستقيم مرة أخرى, من بعيد ظهر فرس أبيض بشَعرٍ طويل مُسرح بشكل جميل ينسدل كشلالٍ على جسدهِ حتى يلامس افخاذهُ, اما الشيخ الذي يمتطي هذا الفرس فكانت شراييهُ وأوردتهُ تسير تحت طبقة شفافة من جلدهِ مولدةً مجاري وردية اللون تختفي داخل اللحية البيضاء بشعرها

القطني والتي سُرحت على يدِ ماكيير متمرس, شفاههُ الوردية وعيناه الزرقاوات ووجههُ الدائري يولد رغبة جامحة تمنع الإنسان من النظر الى أيّ شيء سواه, اقترب من الأم بعد ان ترجل من فرسهِ الذي ابتعد باتجاهِ نهر ظهر بمجرد اتجاه الفرس نحوه, تنتشر على سطح الماء زنابقٌ بألوان قوز قزحية وتتقافز من خلالها اسماك ملونة صغيرة

- هل شبعتِ الان؟...سألها الشيخ

- الحمد لله

من حقيبةٍ يحملُها يُخرجُ قدحَ كريستال ويرميه بقوة على الأرض فيتحول الى قطع صغيرة تملأ المكان

- حسنا, الان أعيدي لي القدح كما كان

- كيف...لا استطيع..

- هكذا هي ابنتكِ...لا احد يستطيع اعادتها للحياة الان, لكنني سأعطيكِ هذا الفنجان, حافظي عليه وسيكون هو مصدر سعادتكِ لما تبقى لكِ من عمر

افاقت من غيبوبتها بعد ان غطى وجهها العرق, انتبهت الى الأب وهو يبكي سانداً وجههُ الى الحائط, بينما تحوّل وجهُ ابنتها الكبرى (أمينة)الى الأحمر بعد ان صفعتهُ بقوة بكلتا يديها

- ماتت؟ قالتها وهي مبتسمة

وقفت الأم ..اتجهت الى الأب هزتهُ من كتفهِ

عبد الفتاح, هذا أمر الله, ادفنها الان
وقبل ان تخرج من المستشفى رفعت الفنجان امام عينيها, قبلتهُ وناغتهُ بهدوء

- سوف انتظرك

بداية الحلم وعِيار الذاكرة

بالنسبةِ لامرأة قادمة من الريف لم تفهم لماذا يموت الناس هنا بهذهِ السهولة وكأن كل شيء يصبح سبباً مؤجلاً للموت ,السيارات, النهر, زجاج الشبابيك, كل شيء يتحول الى آلة على وشك ان تقومَ بجريمتها وتتمدد قرب ضحيتها وهي تبتسم.

ألتفتتْ الى اللفافة البيضاء التي بين يديها قبل أن تسحب يدها المُمسكة بالفنجان ,نظرتْ اليهِ وابتسمت

- سأحميكَّ من كل هؤلاء, لن يستطيعَ أحد ان يأخذكَّ مني, أنتَ تعال فقط...

استقرت سيارة الأجرة قرب باب البيت, فتحت احدى بناتها الباب بقوة, مدت رأسها من خلال زجاج السيارة ورأت اللفافة البيضاء بيد الأم, ارتبكتْ قبل ان تعودَ وهي تركض الى داخل البيت

- ماتت...اختكم...ماتت...ماتت

عمَ الصراخ قبل ان تنزلَ الأم وتدلف بسرعة الى داخل البيت, أخرجَ الأب شيئا من جيبهِ ودفعهُ نحو السائق, اخذهُ السائق وهو يدردم مع نفسهِ

- (البقية بحياتك)

سحبنْ البنات اللفافة البيضاء من يد الأم وبدأنْ بموجة من البكاء والعويل, انزوت الأم في ركن الغرفة غير مبالية بالفوضى التي أصابت البيت, فجأة وكأنها تتذكر شيئا ما اندفعت الى الغرفة الأخرى وأغلقت الباب بقوة عندها خفَّ صوت البكاء قبل ان يتحول الى نوع من الأنينِ الهادئ, فتحت باب الدولاب وأخرجت صندوق خشبي كانت قد اشترتهُ من الحجيج الأتراك الذين يعرضون اغراضهم بالقرب من الأمام ابو حنيفة, يتاجرون بأشياء كثيرة في الغالب يصنعونها بأيديهم وبحرفية عالية قبل ان يكملوا رحلتهم نحو مكة, سورة(يس) خُطتْ بحروف بارزة على وجهِ الصندوق العلوي والذي يشّكل الباب لهُ, كان حجم الخط في(يس) اكبر بكثير من حجم الذي كُتبتْ فيه باقي الآية بحيث يشكل السطر الأول بكاملهِ, اما باقي الكلمات فكانت متداخلة ومتشابكة بحيث يصعب قراءة بعضها إلا بعد أمعان النظر فيها, جوانب الصندوق استُعملت فيهِ الدبابيس التي تشبهُ نبات الفطر ذات الرأس الكبير والمسمار القصير المدبب, هذه الدبابيس الملونة صنعتْ ورداً وأغصاناً غطت جميع جوانب الصندوق اما مقبضهُ النحاسي الأصفر فخلا على الدوام من وجودِ قفلٍ فيه, ربما لأنها متأكدة ان احداً لن يجرؤ على ان يمدَ يدهُ نحو هذا الصندوق, أخرجت قطعة قماش من الحرير الخالص من داخلهِ وهي من فضلات القماش الذي أهداهُ اياها عبد الفتاح بعد ان ضربها بعيار الميزان من زنةِ الكيلوين اثناء عملهم في السوق, لم يكن ينوي أصابتها في رأسها لكن العيار فلتَ من يدهِ ليحولها الى قطعةٍ من دم, بقت فاقدةً للوعي لمدة ساعتين ولم تفهم في بادئ الأمر ما أصابها لكن بعد ان تذكرت العِيار واقترابهُ من وجهها قبل ان يرتطم برأسِها أشاحتْ بوجهها عن عبد الفتاح اما هو فبقى صامتاً ومرتبكاً وخائفا

شلَّ الصمتُ البيت كلهُ في ذلك المساء بعد عودتها من المستشفى واستقرارها على الفراش وقد تحولَ رأسها الى ضماداتٍ بيض مُزخرفة بقطعٍ حمراء, منذ ذلك اليوم والمسافة بدأت تتسع مع زوجها,

لم تعد تحبهُ كما انها لا تكرههُ, شيءٌ من الجمود واللامبالاة احتلَ المسافةَ بينهما, لم يضربها بعد هذه الحادثة فالخوف والقلق الذي شعرَ بهما في ذلك اليوم كانا كفيلان بأن يجعلانهُ يسيطر على نفسهِ وأعصابهِ معا, بدأت شخصيتها تتكون بهدوءٍ وقوة وبدأت تفرض سيطرتها على البيت دون ان يشعرَ احد بالمراحل التي مرت بها هذه الأم قبل ان تسيطر عليهم بالكامل, عبد الفتاح تجاهلَ ذلك في بادئ الأمر لكن لحظات الفراش كانت كفيلةً بأن تُشعرهُ بقوتها وانهُ فقد السيطرة عليها الى الأبد, هي من كانت تقوم بالعملية كلها اما هو فيأخذ دور المتفرجِ المتأوه فقط, بعد ذلك بدأ يشعر بقوتها تنمو وتتضخم حاول ان يكسر هذه السيطرة لكن لعنة العِيار كانت تطاردهُ وتجعلهُ عاجزاً عن فعل أي شيء, اما بناتها الخمسة فقد بدأن يشعرنَّ بالملل والعجز تجاهها على اعتبار أنهنَ خط الدفاع الأول الذي يتلقى ضربات هذا التسلط, ان يكون الأبُ متسلطاً وظالماً فهذا أمر مُبرر لديهن اما ان تكون الأم فهذا يخلق حالةً مرتبكة ومخجلة احيانا, كان عجز الأب وقلة حيلتهِ يشعرهنَ بالألم والتعاطف معهُ وربما بلحظات من الكرهِ لهذهِ الأم التي حولها هذا العِيار الى كائن لا يستطيع احد الوقوف بوجههِ..

لفتْ الفنجان بقطعة الحرير وهي تتحسسُ مكان ارتطام العِيار برأسها ثم دثرتهُ داخل الصندوق وكأنها تريد أن تضعَ طفلتها التي ماتت قبل ساعة في فراشها, أغلقتْ الصندوق وتذكرت انها بحاجة الى قفلٍ له الآن, فلا قلادة الذهب التي اشتراها عبد الفتاح لها بعد ان قبض مكافأة نهاية خدمتهِ العسكرية ولا المبلغ من المال الذي جمعتهُ بصعوبة بعيدا عن مصرف البيت بأهمية هذا الفنجان, دفعت الصندوق داخل الدولاب الخشبي وغطتهُ بالملابس قبل ان تعود الى بناتها المتجمعات حول اللفافة البيضاء, التقطتها بعد ان دفعتهن قبل ان تسلمها للأب

- هذا يكفي...ادفنوها وعودوا بسرعة

كانت الأم تنوي دفنها بمجردِ خروجهم من المستشفى دون ان تعود بها للبيت لكن أمينةً صرخت بوجهها وهي تبكي وكأنها وجدت الفرصة لتحقيق شيء ارادتهُ دائما وهو الصراخ بوجهها

- دعي البنات يودعنها الوداع الاخير...

وقفت الأم في الباب وهي ترى عبد الفتاح يحمل هذه اللفافة ويدلف الى سيارة الأجرة عندها ارادت دمعة ان تفلت من عينيها لأنها تذكرت فجأة نظرتها تلك وهي ترضعُ من ثديها, كانت الطفلة تسرق نظرة من وجهِ الأم وكأنها تريد ان تتأكد من وجودها قبل ان تتناول ثديها لتعود مرة اخرى وتتأمل وجه الأم, محاولة هذه الدمعة كانت جِدية وضاغطة لكنها حبستها بكل ما تستطيع من قوة حتى انها اطبقت شفتيها بين اسنانها لتحمر وكأنها انتهت لتوها من قبلة طويلة, التفتت نحو البنات وصرخت بهن

- بنات...للمطبخ

قيء انتخابي

لا أفهم لماذا لا يتغير شيء ما في هذا السوق بأذرعهِ التي تمتد كأخطبوطٍ داخل الشوارع المجاورة, اصحاب البسطيات الذين لا يكفون عن الصراخ وهم يدعون لبضاعتِهم التي تأخذ اشكالاً وألواناً مختلفة, لكن الشيء الأجمل في هذا السوق ان كل شيء هنا قابل للمساومة, هذه المساومة هي من جعلت مني مفاوضاً ناجحاً يستطيع أن يقنعَ أعتى السياسيين بما يُريد والحقيقة ان الأمر لا يختلف كثيرا أن تساومَ على سعرِ جهاز كهربائي او على منصبٍ وزاري, المشكلة انني بحاجة الى هؤلاء المساومين الآن, عليّ ان أقنعهم بانتخابي مرةً اخرى, لكن كيف استطيع أن اقنعهم هذه المرة؟ وما هي النقطة التي يجب ان انطلق منها؟ فالسوق لم يتغير فيهِ شيء منذ الوعود التي اطلقتها لهم بتبليط شوارعهِ ونصب سرادق مظللة لأهل البسطيات ووعود اخرى لا يمكنني تذكرها في الوقت ألحالي كما انني لم أستطع زيارة هذا القرف الملون منذ نجاحي في الانتخابات السابقة, الآن الوعود لم تعد ذات جدوى وعليّ ان اخلعَ رداء الوعود لأرتدي ثوباً جديدا, ثوب الهدايا والهِبات, يجب ان اطعمَ الأفواه اولا كي اجعل الأذان تسمعني بشكل جيد

هذه المرة انا وحدي, وحدي تماما حتى انني لا أفهم لماذا استمر بهذه اللعبة, الى أين أريد ان أصل؟ كل المسألة انني أدمنتُ هذهِ المساومات ولا يمكنني التنازل عنها, شيء أشبه بالإدمان على لعبة بوكر, اليوم عليّ ان اتاجرَ بأخر اغراضي بعد ان خسرت كل شيء, لكن كل هذا لم يعد مهما مادامت سميرة معي, سميرة التي تغيرت كثيرا وحوّلتني

الى كائن أخر, سحبتني من يدي وجعلتني ارى حقيقتي الشيطانية مرة واحدة, آه ياسميرة, لماذا لم تبقِ مثلما عرفتكِ, شيطانة صغيرة, ذكية ومتحركة وبإمكانها إرضاء الله والشيطان في نفس الوقت, كان عليّ ان أعترف لها بكل شيء, هيّ لم تترك لي مجالاً للهروب من الموقف, نظرة الإلهة التي استطاعت الحصول عليها بعد الحادثة كانت كافية لأكشفَ لها الحقيقة, الحقيقة انني كنتُ أفكر بمركزِ أخيها معتز اكثر مما فكرت بها, الحقيقة انها كانت المطية التي ركبتُها لأصلَ الى مكتب معتز والحقيقة ان كل ما حققتهُ كان من خلالها, كل كلام العشق الذي قلتهُ لها في حينها كان كذبة كبيرة لكنها صدقتني تماما, عشقتني بطريقة غريبة, تملكتني بالكامل حتى احتلت كل جوارحي قبل ان تتحولَ الى ملاكٍ يستطيع اكتشاف كل شيء بنظرة واحدة, حينها وضعتْ يديها على وجهي, غطتهُ بالكامل وقالت لي

- حبيبي, هل تعرف انكَ كذبة, مجرد كذبة كبيرة قابلة للتصديق

لكن ماذا يُهم, كل شيء هنا مجرد كذبة, الكل يكذب على الكل, هذا الهواء ملئٌ بابتساماتٍ كاذبة ومنافقة وقابلة للتصديق

- استاذ, وصلنا, وكل شيء آمن هنا

التفتُ اليه ابتسمتُ بوجههِ وأجبتهُ

- لا يهم

يقع بيت العائلة القديم في أحدى الأذرع التي وصلها السوق ليحولَ ذلك الشارع الى مجموعة متلاصقة من البسطيات تقف الواحدة بجانب الأخرى تغطي واجهات البيوت, كان اصحاب هذهِ الدور قد وجدوا في هذه البسطيات مصدراً جيداً للرزق اما من لم يشأ ان يعملَ في السوق فكان يُؤجر الفسحة المقابلة لباب بيتهِ وبمبلغٍ يضاهي تأجير محلٍ بحالة

ممتازة في الشارع العام لكن العمل داخل السوق يختلف تماما فهو يمتازُ بالتواصل وكثرة المرتادين, البيت الوحيد الذي لم تحتلهُ البسطيات هو بيت النائب سلام عبد الفتاح مثلما يجيب الجميع اذا ما سألَ غريب عن المنطقة عن هذا البيت الذي يبدو كنشازٍ يستقر داخل مقطوعة موسيقية متناسقة, استقر كرفان صغير امام واجهتهِ ذات المساحة الصغيرة, يكمن فيهِ مجموعة من الجنود يحرسون البيت ليل نهار, هذا الداهية(احمد حسيبة) هو الذي نصحني بعدم بيع البيت حينها وان استغلهُ للتقرب من الناس في ايام الانتخابات لذلك قبل ستة اشهر من موعد الانتخابات يبدأ العمال بتغيير طلاء البيت من الخارج وإعادة ترميمهِ من الداخل, هذه المرة صبغوا واجهة البيت باللون الأخضر يتخللها خطوط صفراء وفي منتصف الواجهة استقرت مجموعة من السيراميكات التي تشكل في مجموعها جملة(هذا من فضل الله), في المرة الأولى أردتُ ان احوّلَ الواجهة كلها الى مرمر لكن احمد حسيبة نصحني بأن أُبقي الواجهة كما هي فقط تغيير طلائها لكنني أصريت على هذه الجملة وسط الواجهة في حينها وجدتها مناسبة جدا وتساعدني كثيرا في صنع الكاريزما التي احاول افتعالها امام الناس...

بدأت الناس تتجمع امام البيت بعد أن تأكدتْ انها ستحصل على ثمنٍ ما لتواجدها هذا فمنذ ايام وهذا البيت يوزع أشياءً كثيرة وبكمياتٍ محدودة, بطانيات, مراوح سقفية وعمودية, مكواة كهربائية مع منصة الكوي, لكنه قبل يومين اعطى عشرين ماكينة خياطة نوع (singer)صينية الصنع لعشرين امرأة وافقنَ على التحرك وإقناع باقي النساء بانتخابي مرة اخرى

أحمد حسيبة هذا الداهية أبقى البيت كما هو وكأنه يريد أعادتي الى تلك السنوات المكتظة بالحنان والوجع فأمي التي لم تفهم يوما انني أكبر باستمرار وإنني أصبحتُ مساوما جيدا, كانت تقرفصُ بجانبي وتبدأ تعلمني كيفية التلاعب بالمشتري حتى اجعلهُ في البداية يُصاب باليأس

من انني سأتنازل عن فلس واحد من سعر الحاجة قبل ان امنحهُ بعض الأمل في انه قادر على الحصول عليها بسعر اقل وكيف أعرض حاجتي ابتداءً دون أن اشعرهُ ان ثمنها الذي عرضتهُ أكبر من سعرها الحقيقي والذي قد يجده لو بحث في مكان اخر من السوق, هذه الألية تتطلبُ ايحاءً وتمثيلاً بحاجة الى الممارسة والتدريب فمن الوجهِ الضاحك الى الوجهِ المتأمل الى الوجه العابسِ وأخيرا الوجه الغير مفهوم تدور عملية المساومة حتى تصل للنقطة الذي يقتنع فيها المشتري بالسعر الذي حددتهُ مُسبقا في رأسي والذي يختلف عادة من كل الأسعار التي طُرحت في البداية, عندها وبكثير من اللامبالاة اقول لهُ

- خذها ...هي كلها خسارة بخسارة

كانت امي هيَّ من تقوم بهذه المساومات اما ابي فكان يقفُ بجانبها صامتاً لكن مع بعض المساومين الجيدين يحاول مساعدتها بكلمة من هنا او هناك بعد ان ترمقهُ بنظرة مُطالبةَ بمساعدتهِ لكنه في العادة يكتفي بلف الحاجة بكيس اسود وتسليمها للمشتري واستلام الثمن

هذه المساومات ازدادت عندما تحولوا من بيع أواني النايلون الى بيع الأجهزة الكهربائية لكن سرعان ما اقترحت امي ان يتحولوا لبيع الخضار حالهم حال اغلب البسطيات الأخرى, حاول ابي ان يعارضها في البداية لكنها اقنعتهُ انهم لا يفهمون بهذه الأجهزة وإنها اصبحت تشك كثيرا بالذين يبيعون لها هذه الاجهزة وبمساومة معاكسة تبدأ بالوجه العابس عادة وان هذه الجهاز ليس له سوق ولا أحد يشتريه او انه كثير الأعطال ولم يعد عمليا داخل البيوت وان الناس تشتكي كثيرا منهُ وتنتهي المساومة بوجه ضاحك كمحاولة لجعل البائع يكرر هذه العملية في اجهزة اخرى, اغلب الذين كان يبيعون هذه الأجهزة هم من

الدوارة الذين يجوبون الشوارع ويشترون الأجهزة من داخل البيوت او من الناس مباشرة في اوقاتِ الحاجة والضنك الذين يمرون بها..

بالنسبة لي كنتُ اجدُ لذةً كبيرة بتفحص هذه الاجهزة وتشغيلها ومحاولة النظر الى داخلها من خلال فتحات التهوية التي عادة ما تغطي بدنها الخارجي وكذلك الجلوس قرب المصلحّين وهم يفتحونها قطعةً تلو الأخرى مخلفة كومة من البراغي الصغيرة, بعد ان يتم اصلاحها تُعرض على انها شبه جديدة وتحلف امي اغلظ الأيمان ان يداً لم تفتح منها برغياً واحدا

- استاذ...الناس بدأت تتجمع. تنتظر خروجك عليهم

في تلك اللحظة بدأ الم يسري أسفل بطني, الم مزعج تتصاعد وتيرتهُ باستمرار, أشعر بهِ وهو يصعد للأعلى حتى يتحول الى حجارة صماء تحاولُ التسلل عبر المريء نحو فمي قبل ان تنزل بسرعة هائلة لتضغط على مقعدي وتحاول فتحهُ بكل ما أوتيتْ من قوة, حاولتُ ان اتجاهل هذا الألم في البداية لكن الأشكال امامي بدأت تغوص في سراب يتمحور امام ناظري, كل شيء بدأ يُصاب بعدم الوضوح, انا اعلم ان كل هذا الألم لا يعني شيئا للناس الذين تجمعوا امام البيت ينتظرون خروجي, هذا الألم الذي بدأ يشتد ليضغط على جسدي كلهُ .

وقفتُ بصعوبة على قدميّ وبخطى مرتبكة خرجتُ من البيت لأجابهَ سيلاً من الناس الذين بدأوا يلوحون بأيديهم بعد ان قبضوا ثمن هذه التلويحات مقدماً, رفعتُ يدي قبل ان اعتلي المنبر الذي اعدهُ لي الحماية لأقفَ في مكان يراني فيه الجميع, في تلك اللحظة تشكل خط من الحماية اسفل المنبر كي يمنعَ الناس من الاقتراب منهُ, الألم بدأ يضغط بشكل هائل على مقعدي وكتلة كبيرة من شيء لا أعرفه بدأت تصل الى بلعومي وفجأة اندفع القيء من فمي ليمطرَ الجميع, قيء

هائل وبكمية كبيرة اعظم حتى مما يتحملها جسد انسان واحد خرجَ كنافورة وبألوان تميل للأصفر ليمتد حتى يصل الى منتصف الناس التي تجمعت حول المنبر, في تلك اللحظة احسستُ ان بنطالي سبحَ برطوبة لزجة ومُقرفة وان رائحة مزعجة بدأت تغطي المكان ..

بدأ السواد يغطي المشهد كلهُ, الناس هربوا في كل اتجاه كي يتجنبوا هذا الهجوم المفاجئ من القيء بينما ركض افراد الحماية لانتشالي غير أبهين به, احذية رجال الحماية السوداء والحمراء هي اخر صورة رأيتها قبل ان أغطَ في ظلامٍ عميق.

موت النائب

عينٌ ترى تترقب

هي العضو الوحيد في جسدي الذي تأكدتُ انه مازال يعمل بشكل مناسب, كل أعضائي الأخرى توقفتْ تماما عن العمل, خدّرها شيءٌ ما ومنعها من القيام بأيِّ حركة, الأشياء حولي أصبحت لها معانٍ مختلفة, انا ادركُ انني أتمددُ على سرير فُرشت عليه ملاءات بيض, ما الذي يجعلني اعتقد انها صحراء برمال متحركة وشمس تكاد تشويني رغم ان فتحات التهوية في اعلى الغرفة تحرك الأشرطة التي تمسكت بقوة بألواح الالمنيوم التي تصطف الواحدة جنب الأخرى وتوجه الهواء نحوي مباشرة ...

الممرضة بخيطِها الفاصل بين نهديها الذي أخذ يتضح شيئاً فشيئاً وهي تتدلق عليَّ تحاول ان تحركَ شيئا ما معلقا بيدي تحولت الى كائن غريب, مُغري ومقرفص ويكاد ينقضُ عليّ ليمارسَ رغبتهُ بشكل جنوني معي, حتى أمي بعباءتها السوداء وقفتْ على رأسي متجهمة وكأنها خسرت لتوها مساومة مع الحياة, معتز يبتسم لزجاجِ الشباك او لعالمٍ ما يقع خلفهُ اما جنود الحماية فكانوا يتناولون (الأيس كريم) في احدى زوايا الغرفة بالقرب من بابها المفتوح وهم يتهامسون لبعضهم بسرٍ ما, سميرة وحدها تقف هناك وراء الباب وهي تسندُ ظهرها على الحائط وتتأملني من خلال الجميع, وحدها تحاول ان تصلَ اليّ بصعوبة فالطريق عبر هذا الباب يبدو كأنهُ الدخول الى عالم أخر, عالم تنتمي اليه, تعرفهُ جيداً, لكنها خرجت منه ولا تريد العودة اليه

لذلك تلتفت كثيرا باتجاهِ الجميع وكأنها تريد ان تودعهم والى الابد, سميرة بجبتها السوداء ذات الأزرار التي تصل حتى قدميها والتي قطعّتها في يومٍ ما لينبلجَ جسدها العاري, ما زلتُ اتذكر تلك الساعة, قالت لي ونحنُ في طريقنا للبيت بعد ان اسندتْ رأسها علي كتفي انها لم ترتدي أيَّ شيء تحت الجُبة, عندها بدأت تتلمسني قطعةً تلو اخرى حتى مدت يدها على عضوي الذكري الذي انتصبَ حتى كاد ان يمزقَ سحاب البنطال, بدأت تتلمسهُ برفق قبل أن تدعكهُ بقوة عندها صرختُ بالسائق الذي امامنا

- اسرع....ماذا جرى لك اليوم؟ ..اسرع فقط

في تلك اللحظة التي اغلقنا البابَ فيها خلفنا وضعتُ كلتا يديَّ على ياقتيّ جُبة سميرة وبحركة واحدة عريتها تماما وكأنني أعريها للمرة الأولى, كأنني لم اتلمس جسدها قطعة تلو الأخرى من قبل, في تلك الليلة لم ننم إلا قبل آذان الفجر بقليل, لم تكن سميرة التي اعرفها, كانت امرأة اخرى, عاهرة تُجيد صناعة اللذة, عاهرة تعشقُ رجلاً ما للمرة الأولى في حياتها وتحاول ان ترضيهُ بكل خبرتها المتراكمة, عاهرة تمارس اللذة للمرة الأولى

لكن الآن الأزرار مُقفلة بأحكام ووجهها يكاد يخرج من ربطة العنق ليشكلَ بعداً ثالثا يصنع مع عيني تداخل غريب اكادُ اشعرُ تماما برموشها, بشفتيها, بخديها المتورمين, كانت تقترب دائما لكنها ما زالت خارج باب الغرفة, ما الذي يحصل لي ؟ حاولت ان اصرخ بها لكن حبالي الصوتية كانت مُعطلة عن العمل رغم ذلك كانت تسمعني, هي تدركُ انني اريدها الآن, في هذه اللحظة, احتاجها بكل ما لهذهِ الكلمة من معاني, سميرة لم تخذلني في يوم ما ولن تخذلني اليوم

فجأةً رأيتها تقف فوق رأسي تماما, هي سميرة, نعم هي سميرة

اقتربتْ, تسللت رائحتها الى جسدي كلهُ, وضعت يدها على وجهي, بدأت حينها اسمعُ كل شيء, كل هذا الهدوء الذي يصمُ مسامع الغرفة, بدأتُ اشعر بهذا الرمل الحار الذي أستلقي عليه, هذهِ الشمسُ الحارقة بدأت تسلط سياطها على جسدي والتبريد مازال يحركُ الخيوط التي تمسكت بنوافذهِ بقوة

اقتربتْ, لامسَ وجهها وجهي, اختفت الشمس وتحولَ الرمل الى ملاءات بيض عندها همستْ بأذني

- هذا يكفي سلام...ألم تتعب... هذا يكفي...يكفي

استمرت هذه الكلمة تتردد في هواء الغرفة وكأنها تصدر من مكبر صوت مخفي في مكان ما, في تلك اللحظة احسستُ ان شيئاً ما يضغط على بطني, انتبهتُ الى الأجهزة الطبية القريبة من وسادتي اما الممرضة السمراء بقميصها الشفاف وصدريتها البيضاء الذي يُبرز خطاً وهمياً بين نهديها كانت تحاول ان تضبّطَ جهاز نبضات القلب, رائحةُ المطر تتسلل من فتحة في الشباك لتمنحني لذة غريبة, هذهِ القطرات ترتطمُ بزجاج الشباك وكأنها تحاول ان توقظني من هذا التعب الذي اشعر بهِ, رأسي تحول الى كتلة من وجع وألام كثيرة توزعت على مناطق جسدي كلهُ, خارج الغرفة ومن خلال الحائط الزجاجي, كلهم كانوا يقفون هناك, معتز, بعض النواب, افراد الحماية, كلهم تجمعوا على الحائط الزجاجي يراقبونني, عندها شعرتُ بألم يمتد بخطٍ نصف دائري حول بطني حتى يلامس ظهري من الجانبين, احسستُ بعطشٍ شديد وكأنني كنتُ تائها في صحراء حارقة, كانت الأسلاك الكهربائية قد غطت صدري لتسللَ الى اجهزة تستقر فوق رأسي تصدر اصواتاً مُكررة

- ماء....ماء

التفتتْ الممرضة الي وابتسمت

- ماء

خرجتْ من باب الغرفة حينها التفَ حولها الجميع ثم ما لبثوا ان تركوها وعادوا للنظر اليَّ من خلال الحائط الزجاجي, حاولتُ حينها ان ابحث عن سميرة بين الوجوهِ الملتصقة بالزجاج لكن وجهها كان في مكان أخر لذلك ادرتُ رأسي نحو الشباك الذي يطلُ على الخارج

سميرة جاءت من المطر, مُبللة بالكامل, تسللتْ من الشباك وهي تحاول الحفاظ على ماء المطر التي جمعتهُ بكفيها بعد ان لصقتهم الواحدة بالأخرى, اقتربتْ مني ودفعت الماء نحو شفتيّ ليتساقطَ على شكل قطرات تهطلُ عليّ من يديها, انتهى الظمأ منذ القطرة الأولى التي لامستْ عروقي وبدأتُ اشعر بالانتعاش, اصوات الأجهزة مازالت تكرر نبضاتها لكن ببطء, كل قطرة ماء تسقط على شفتي تولد نبضة جديدة تتحول داخلي الى عالم من اللذة والحلم, سميرة بوجهها المبتسم بدأت تصنع فتحة صغيرة بين كفيها فيزداد تساقط الماء لكن كلما ازدادت قطرات الماء المتساقطة على شفتيّ تباطأت اصوات الجهاز المُعلق فوق رأسي, فتحت كفيها عند اخر قطرة ثم قربت شفتيها من شفتيّ ,لعقتْ بعض القطرات التي اخطأت طريقها ثم اغرقتني بقبلة طويلة, قبلة تحمل كل لذات العالم, كل اللذات التي خلقها الله جمعتها بين شفتيها ودفعتها نحوي في لحظة واحدة, الغتْ الوجود كلهُ وجعلتهُ بلا معنى لتصمت الأجهزة المعلقة فوق رأسي وتتركني ارحل بين شفتيّ سميرة للأبد

قنوط وصلاة الرغبة

مضت خمسة أشهر وهيَّ تنتظرهُ كمطرٍ يرفض الهطول, خمسة أشهر ورحمها مستعد تماما ليشكلَ هذا الكائن الحلم, حتى الشيخ بلحيتهِ البيضاء وأوردتهِ التي تسير فوق جلده اختفى تماما وكأنهُ هرب منها بعد ان فعل فعلتهُ بها ليحولها الى كائن من انتظار

في هذه الفترة احتلتها شخصيتان متناقضتان تماما, شخصية عصبية ومُثارة وشرسة في النهار وأخرى هادئة ومطيعة وعلى استعداد لفعل أيِّ شيء لإرضاء عبد الفتاح في الليل, اما هو فتحول الى مطية مطيعة تستطيع ان توصلَ كل ما تريدهُ الى مكانهِ المطلوب بمجرد ان تضعها على الطريق, كان يحاول ان يستوعبَ حَنقها وغضبها في النهار ويبقى صامتا ومتجاهلا لها في الليل عندها تبدو عليه علامات الاستغراب وهو يراها تتحول الى رغبة خالصة, الى امرأة ضعيفة ومتوسلة وعاشقة للذة بطريقة لا تتناسب مع حياء المرأة الريفية ويزداد استغرابهُ عندما ينتهي ويرمي بذورهُ داخلها, كانت تحاول ان تُبقي هذه البذور داخل رحمها رافعةً قدميها على حافة السرير وهي مستلقية على ظهرها, سألها مرة

- ماذا تفعلين؟

- لا شأن لك ....أجابتهُ بحدة

تبقى هكذا مستلقية على ظهرها حوالي نصف الساعة حتى تتأكد من ان بذورهُ استقرت داخل رحمها بعدها تبدأ ملامحها تتغير بالكامل,

تذهب المرأة الشهوانية المُطيعة وتدخل المرأة الحانقة بجديتها وكأنها ضابط عسكري يتلذذُ بإذلال جنودهِ وهم يصلون حدود الإعياء, يركضون حول دائرة مركزها هو, يصرخ بأعلى صوتهُ محفزهم على الركض

- تعبتوا

- لا سيدي

لأن كلمة ال(نعم) تحمل في طياتِها سيلاً من الشتائم ربما اخفُها وطأةً كلمة(نسوان)

يذهب عبد الفتاح ليغتسلَ وتبقى هيّ ممددة على الفراش حتى يصل ويتمدد بقربها عندها تديرُ رأسها الى الجانب الأخر بعيدا عن وجههِ, هو نفسهُ لا يهمهُ الأمر كثيرا ولم يعد يشعر برغبة التجربة لمرةٍ ثانية بالرغم انهُ اعتاد على ذلك قبل حادثة العيار, احيانا تستسلم لرغبتهِ وفي احيان اخرى تعارضُ بشدة معتذرة بأعذار شتى فيضطر للانسحاب مزيحاً بوجههِ الى الجانب الأخر ومع ان السرير الحديدي ذات السلاسل المتشابكة يأخذُ مجالا لابأس به من فراغ الغرفة لكنهم ينامون على الأرض تاركين السرير وكأنهم لا يريدونهُ يشهد على هذا التناقض الفاضح في تصرفاتهم حتى انهم لا ينظرون الى بعضهما بعد ان خرجوا للتوّ من مساحة اللذة العارمة, هذه اللذة التي تحولت مع مرور الوقت الى عملية آلية تطلبها هي ويفعلها هو لأنها الشيء الوحيد الذي يجعله ينسى ذكورتهُ المفقودة في النهار

في تلك الفترة خطبَ احد اقارب عبد الفتاح امينة, وافقت الأم مباشرة حتى بعد ان عرفت انه متزوج وان زوجتهُ توفت قبل اكثر من سنة بحادث سير, امينة لم تعارض فهي تعلم ان ممانعتها لا تعني شيئا بعد موافقة الأم كما انها ملتْ تماما من هذا البيت الذي تحوّل الى سجن

حقيقي وتحولت هذه الأم الى سجان يتفنن بإذلال السجينات الخمسة اللواتي ينتظرنَّ ساعة الإفراج عنهنَ وهذهِ الساعة لا تأتي إلا عن طريق رجل يدخل فجأة ليعلنَ براءتهم وأنهم سُجنوا ظلماً طوال هذه المدة لكن ما جعل امينة سعيدة حقا هو عندما تسنى لها ان تلتقي هذا الخطيب بعد ان جاء للبيت يحمل معهُ كيساً كبيرا من الفواكة وقطعة من القماش لها, كان رجلا هادئا مبتسما وتبدو عليه ملامح الرومانسية والمميز فيهِ هو شاربهُ ذو الشقرة الخفيفة وعيناه الصغيرتان التي توحي برجل لا يملك أي نوع من اللؤم وان السيطرة عليه سيكون عملاً سهلا لكن ما حيرها بعد ذلك انه هو من منحها هذه السيطرة حتى قبل ان يتزوجها

- عيوني أمينة انا رجل أخرج منذ الصباح الباكر ولا أعود قبل منتصف الليل, العمل والحزب يأخذون كل وقتي, البيت كلهُ لكِ وحدك, آنت ام البيت وأنت ابوه وانا ابدا لن أقصرَ معكِ في أي شيء

كانت جملة (لن أقصر معك) لها معنى مادي فقط وبالرغم من انها تفاجأت عندما اخبرها انه رفيق في الحزب وانهُ يضطر احيانا للمبيت خارج البيت بسبب الخفارات, ارتبكت قليلا فهو لا يسّلمها السلطة بل يتخلى عنها ويتركها وحدها تواجه مشاكل البيت لكن ما الضير فالتجربة الوحيدة التي كانت تعرفها عن زوجين لا يفارقان بعضهما في البيت او في العمل كانت فاشلة وسببت لها الكثير من اللحظات العصيبة والمزعجة

كانت الأم تعود باكرا من السوق منذ اليوم الذي عاودوا فيه العمل بعد موت طفلتها تاركةً عبد الفتاح يعمل على بسطية الخضار حتى مغيب الشمس, احيانا تبعث له بالقدور المحملة بالطعام وقت الظهيرة بيد احد اولاد الجيران وإذا لم تجد احدا منهم تضطر لارتداء عباءتها وإيصال

الطعام لهُ بنفسها, حينها تقف قليلا لترى الدخل المُكتظ بأنواع القطع النقدية المصنوعة من سبائك مختلفة اما الورقية منها فيجمعها عبد الواحد في جيبهِ الجانبي الذي يتسع لرأس خروف بعد ان تضخم ليشكل ورما كبيرا يبرز من دشداشتهِ التي تتلون بألوان الخضروات التي يبيعها, تبقى الأم تحسب عدد صناديق الخضار المتبقية والتي جلبها عبد الفتاح من العلوة في وقت مبكر من النهار قبل ان تعود للبيت

في وقت الظهيرة يقل عدد المرتادين للسوق كثيرا لذلك عندما دفعت الباب وخرجتْ وهي تحمل الطعام كانت الشارع الصغير الذي يمتد بين البسطيات والذي يوفر ممراً ضيقاً لحركة المتبضعين شبه فارغ إلا من بعض المارة, في نهاية هذا الشارع كان يقف الشيخ بلحيتهِ البيضاء وحصانهِ ذو الشعر الأبيض الذي يتساقط على جانبيهِ ليتحولَ الى خيوط رقيقة وناعمة تهتز مع حركة رأس الحصان ورغم ان المسافة بينها وبين الشيخ لم تكن قصيرة لكنها احست للحظة انها رأت عينيه وابتسامتهُ وكأنهُ يدعوها اليهِ, رمتْ قدور الطعام على الأرض وشدت عباءتها على بطنها وركضت نحوهُ, كانت صورتهُ تهتز وتتحرك بعشوائية وإقدامها تتسارع وكأنها فقدت السيطرة عليهما, اصحاب البسطيات الذين مازالوا يقفون خلف بسطياتهم على جانبي الشارع بدأوا يصرخون بها

- ام امينة ...ما بكِ. ما الذي حدث

ركض اصحاب احد البسطيات محاولاً مساعدتها او على الأقل فهم اذا كانت مشكلة ما قد حلت بها

في احدى التقاطعات الكثيرة التي يمر بها هذا الشارع كان يستقر فيها بائع السمك بعربتهِ التي يغطيها بقطعة جلدية سميكة تمنع مرور الماء من خلال الفتحات بين القطع الخشبية التي تصطف الواحدة جنب

الأخرى فوق ثلاث عجلات صغيرة, في ذلك الصباح كان قد باعَ معظم أسماكهِ ماعدا اللواتي ماتنْ ولم تكفيهن كمية الماء الذي يستقر داخل العربة, رفع الأسماك الميتة ودفع بالماء على الأرض ليشكل مسطحاً مائياً مُحملاً برائحةِ السمك, هذا المسطح أخفى حفرة صغيرة كانت تستقر وسط التقاطع ومع ارتباك حركة الأم اغرقتْ قدمها داخل هذه الحفرة لتسقط في المسطح المائي وتتحول رائحتها الى رائحة السمك الميت, عندما اخرجت وجهها كانت قطرات الماء تتساقط عنها قبل ان تفرك عينيها وترى الشيخ مازال هناك ينظر اليها قبل ان يدفع حصانهُ الى احدى الشوارع الجانبية ويرحل

في ذلك اليوم أحستْ ان الفنجان مجرد خدعة وان هذا الشكل النوراني الذي بان لها في لحظات الموت ما كان إلا تجلياً من تجليات ابليس الذي خدعها مستثمرا رغبتها الجامحة بولادة ذكر بعد سيل الإناث الذي حملهُ رحمها لذلك طلبت من عبد الفتاح ان تنام مع بناتها هذه الليلة, قالت له ان خديجة متوعكة صحيا ويجب ان تبقى بقربها وعندما سألها

- ما الذي يوجعها

- شغلات نسوان ...اجابتهُ

أومأ لها برأسهِ خاصة وهو لم يكن مستعدا لممارسة لعبة كل يوم التي بدأت تُشعرهُ بالملل, تركتْ بناتها الخمسة ينمنَ الواحدة قرب الأخرى وانزوت هيّ في ركن الغرفة, امينة تجرأت ورفعت رأسها فوجدتها سارحة في ملكوتٍ اخر, كان وجهُ الأم متجهما ولا يسمح بالسؤال عن أي شيء لكن فضول امينة كان اقوى من ملامح وجه الأم

- امي...ماذا بكِ...هل هناك شيء

التفتت الأم وكأنها نهضت لتوها من النوم, نظرت الى امينة وإجابتها بجدية

- نامي...لا شي

اسندت الأم ظهرها على الوسادة بعد ان اسندت الوسادة على الحائط وبدأت تحاول ان تستذكر تفاصيل تلك الرؤية

الحشائش, مأدبة الطعام, ذلك الشيخ الوقور, حصانهُ وذلك النهر الذي خرج من العدم بمجرد توجه الحصان اليه, العصير والملائكة الصغار الذين يتقافزون بداخلهِ, لا شيء يوحي بوجود الشيطان, احساسها بتلك اللحظة وذلك السلام الذي هيمنَ على روحها بمجرد ان أفاقتْ حتى بوجود جثة طفلتها بين يديها, كل هذا يجعلها تصدق انها كانت بحضنِ الإلهة وان هناك معنى اخر في تأخر حضورها, فكرت انه ربما يكون عبد الفتاح السبب, عبد الفتاح الذي ترك الصلاة منذ فترة طويلة, هي تعرف انهُ حتى عندما كان يصلي فأنهُ يقوم بعدة حركات لا تعني لهُ أيُّ شيء لكن لو كان الأمر كذلك لما ولدت جارتها ام تحسين زوجة هذا الشيوعي السكير الذي لا يؤمن بشيء حتى ان عبد الفتاح كان يكرههُ ويلقبهُ بالكافر, رغم ذلك فزوجتهُ تلد مثل الأرنب وكلهم ذكور, بالتأكيد المسألة لا تتعلق بعبد الفتاح, هو فقط لا يبالي, الشيء الأهم انهُ هو من وعدها وهو لا يمكن ان يخلف وعدهُ ابدا, فقط لو تستطيع ان تصل الى حكمتهِ لكن كيف يتسنى لامرأة لم تقرأ حرفا واحدا من قبل ولا تعرف من كتاب الله سوى ثلاث سور قصار تكررها بالصلاة ان تعرف حكمتهُ

إلهي, انت تعرف ,نعم تعرف ومادامت تعرف فلا داعي لأناجيك, انا اقبل بما تحكم, آنت وعدتني وانا اعرف انكَ تفي بوعودك ولو بعد حين, كل ما أريدهُ مخلوقاً لا يعني لك أي شيء لا يعني سوى وعدٍ

قطعتهُ ويجب ان يكون, حكمتك لن انالها وما تريدهُ لا أعرفهُ لكنك تعرف ما أريد, بذرة صغيرة من عبد الفتاح, بذرة لها ملامح الذكورة, ملامح الحلم الذي اتمناه منذ ان وطأ عبد الفتاح جسدي لأول مرة, انت الذي لا يعجزك شيء كيف تمنع عني أتفهُ الأشياء وأكثرها اهمية لامرأة تحلم بأبن شاب يحمل جنازتها عندما تموت, تستطيع ان تستند عليه وتحارب به العالم, عبد الفتاح لم يعد رجلا, تحول الى شيء أخر لا يمكنني الاعتماد عليه, شيء لا معنى له, وجودهُ وعدمهُ على السواء

في تلك اللحظة حلت عليها طمأنينة غريبة, قامت دخلت الى الغرفة الأخرى, اخرجت الصندوق فتحتهُ وأخرجت الفنجان, تأملتهُ قبل ان تضعهُ قربها, فرشت سجادة الصلاة ووضعت الفنجان في موضع السجود, كان كائناً صغيراً يقف على رأس السجادة قبل ان يرفع رأسهُ نحوها وينظر اليها من الأسفل, كانت قد لفت نفسها بعباءتها السوداء كي لا يظهر منها شيئا سوى وجهها الأسمر وشفتيها بحمرتها الخفيفة, رفعت رأسها الى الأعلى قبل ان تصرخ وكأنها تُخرج شيئا من جوفها, شيء لم يكن ليخرج قبل هذه اللحظة, حركت يديها وكأنها تومئ لشيء ما موجود في سقف الغرفة, شيء تعرف انه موجود هناك في مكان ما فوقها وعليها ان تستصرخهُ بكل جوارحها وبكل المعاني التي احتواها هذا الجسد في تلك اللحظة صرخت

الله اكبر

عرس سماوي

المسافات تأكلُ بعضها والوصول اليهِ يحتاج الى سرعة هائلة, سرعة تتحول معها الأشياء الى ملامح غير مكتملة, احيانا تتشكل كمستقيمات متوازية تعبر من خلالها دون ان تلامسَ روحها, قدماها المتدليتان كادا ان ينفصلا عن جسدها الذي يستطيل نتيجة هذه السرعة الهائلة التي بدأت تخترق الوجود قبل ان تتباطأ شيئاً فشيئا وكأن مكابحَ كونية كتفت الوجود في لحظة ليتحول الى نسمات عابرة تحملها الى كوكب نائي تزداد خضرتهُ كلما اقتربت الأم منهُ, شهب بألوان مختلفة تمر بقربها وتتساقط على هذا الكوكب, اتضحت البحيرات الزرقاء المنتشرة على سطحهِ قبل ان تغوص بسرب من الطيور غريبة الأشكال لم تزَها من قبل حتى في البساتين التي قضت فيها معظم طفولتها, اخيرا سقطتْ بهدوء على بساط اخضر يغطي الأفق كلهُ عندها تكونت بحيرة خلف ظهرها حتى قبل ان تلتفت اليها, يهيمُ وسط هذه البحيرة قارب دائري الشكل في وسطهِ سرير خشبي مزخرف بحروف متشابكة يصعب قراءتها في الجزء الذي يقع خلف رأس النائم اما جوانب السرير فاستخدموا في تزيينها دبابيس على شكل نبات الفطر برؤوسها الدائرية ومسمارها القصير وألوانها المختلفة, انتظمت هذه الدبابيس مع بعضها لتشكلَ وروداً وأغصاناً التفت على الجهات الثلاثة للسرير يغطي هذا السرير نفسهُ بقماش مخملي شفاف يصنعُ خيمة تقبع في وسط القارب ويستقر السرير داخلها, هذه الخيمة تستطيع منع الحشرات ذات اللون الاحمر والأجنحة الرصاصية من ولوجها لكنها لا تستطيع منع الرؤية لمن يقف على حافة البحيرة, كل شيء كان واضحاً ومميزاً حتى الشيخ الذي يجلس على حافة السرير ويومئ لها بأن تتقدم نحوهُ,

اقتربت من البحيرة, احستْ عندها ان هذهِ البحيرة كائن يفهم تماما ما تريد, كائن بأيادي كثيرة ترفع قدميها بشكل متوالي حتى توصلها للقارب, رأت اسماكاً ملونة تسبح تحتها وإخطبوطات بالوان قوس قزحية تهرب الى جهة بعيدة ونسمات هواء رقيقة تتخللها فتعّطر جسدها برائحة ذكية تجمع اصنافً كثيرة من العطور, انتبهتْ الى الثوب الأبيض الشفاف التي ترتديه والذي يُظهر اغلب ملامح جسدها وكأنها عادت الى الساعة التي دخل عليها عبد الفتاح للمرة الأولى, نهداها تخلصا من ترهلهما الذي سببتهُ رضاعة خمس كائنات غير مرغوب فيهن, اشتد انتصاب حلمتيها وكأنهما يريدان النفور الى خارج الثوب الذي يكشف اصلاً عن جزء كبير من صدرها ويرتفع اعلى ركبتها لتُبرز فخذين مصقولتين ومغريتين, عندها احست ان شيئا يحصل لها وسيغيرها للأبد وان سحراً شيطانياً اخذها اليه ولن تستطيع العودة بعد ان تمسكت البحيرة بقدميها وبدأت تدفعها باتجاه القارب, شعور غريب ورغبة جامحة احتلتها بالكامل جعلتها تقفز من البحيرة نحو القارب, عندها انتبهت ان الحصان بذوائبهِ التي تنسدل على رأسهِ يشرب بهدوء من ماء البحيرة وان ملاءات حريرية بيض فُرشت على السرير الذي يدور مع دوران القارب, كانت البحيرة وبوعي كامل تقوم بهذا العمل لتغيير شكل المنظر المقابل للأم اما الشيخ فبدى اصغر سناً مما رأتهُ في المرة السابقة ولحيتهُ البيضاء اختفت لتتحول الى لحية سوداء خفيفة تصنع مع شاربه مقطعاً واحدا وكأنها رُسمت بريشة فنان محترف

أقترب منها وبهدوء تام رفع ثوبها الى جانبي كتفها قبل ان يخلعهُ من جسدها ويرميه جانبا لتتعرى تماما, نظرت وكأنها ترى جسد امرأة اخرى, كان هاجساً ما يدفعها لترمي نفسها في البحيرة وتهرب من هذا الكائن الذي ملأها بالرغبة لكنه سرعان ما أحتضنها فأحست بصدرهِ يضغط على نهديها وشفتاه تغوص في شفتيها وناراً اشتعلت داخلها وأوصلت رغبتها الى الحد الذي لا يمكن معارضتها, غاصت في شفتيه

قبل ان يتحول ويقبل رقبتها قبلات قصيرة متوالية ليتحول الى نهديها ويبدأ يمص حلمتها بقوة حينذاك بدأتْ تتأوه وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة طوال حياتها, رفعها الى الأعلى ورماها على السرير بملاءاتهِ البيض ففرشت قدميها قبل ان يسقط هو فوقها, تمسكتْ هيَّ بكتفيهِ وكأنها تريد ان تضيع داخلهُ, ضغطتْ عليه بكل ما اؤتيتْ من قوة قبل ان تتحول رغبتها الى صراخ هزَّ البحيرة وجعل الأسماك تتقافز فِرحة خارجها, رفع الحصان رأسهُ كي يرى هذا المشهد, كان القارب يهتز داخل البحيرة مولداً موجات مائية تصل الى جرفها, ازداد صراخها وتأوها اما الشيخ فكانت حركتهُ تزداد الى الدرجة الذي بدى معها ان القارب سيغرق في البحيرة, اخيرا احست انه يرمي بذورهُ داخل رحمها وهي تحاول التمسك به بقدميها اللتين التفتا على ظهرهِ بقوة هائلة جعلتهُ يلتصق بها ويكف عن الحركة, في تلك اللحظات فرت دمعة من عينيها لتسقط في البحيرة وتأخذها الأمواج الى الجرف قرب الحصان الذي تأملها للحظة قبل ان يرفع قدميه الأماميتان ويصهل بقوة, غابت هيّ عن الوعي في لذة غريبة لم تشعر بها من قبل وعندما فتحت عينيها رأت الفنجان وقد استلقى على ظهرهِ قرب رأسها اما بذور الشيخ فقد عبرت عباءتها السوداء لتتناولَ سجادة الصلاة وتنبت ورداً وحشائش تغطي حافات السجادة كلها

فتاتان في زنزانة

الطريق افعى قطعوا رأسها للتو, تتلوى باحثةً عن رؤيةٍ ما, عن رأس تستطيع الصاقهُ بجسدها الذي أخذ يلتف على نفسهِ صانعاً متاهة تضيع فيها السيارات والمارة والمحلات بل وحتى الصور المعلقة في كل مكان, على الحيطان, اعمدة الإضاءة, واجهات البيوت, أسطح العمارات, بينما أخذ المتسولون وبائعو قناني الماء مسارات دودية بين السيارات محاولين التخلص من حرارة الشمس التي بدأت تسلط سياطها على رؤوس المارة وتحولهم الى كائنات مائية شفافة تعيش بين اعشاب البحر وتستلقي على الطحالب الخضراء التي ترفع رأسها وهي تحاول ان ترى هذا العالم الذي يقع خارج المحيط, حتى هذا المحيط الذي بلا نهايات بدى ساكناً ولا يأبهُ بالمارة ولا المتسولين ولا حتى بي انا التي اجلس في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة بعد ان أجلت المحكمة قرار ادانتي لشهر أخر وبعد أن تأكد الشرطي المُكلف بإعادتي من المحكمة الى السجن انني لستُ قادرة على الفرار وان جسدي المنهك هذا أضعف من ان يمدَ يداً نحو مقود باب السيارة ويرمي بنفسهِ للشارع, فكرتُ بذلك للحظة وضحكتُ على نفسي فمن أيِّ شيء اريد الهروب؟ من الشرطة, او من اخي معتز الذي حاكَ هذهِ الشبكة بأيدي خبير محترف, انا افهمهُ جيدا واعرف ان زوجي سلام كان يجب ان يموت بعد ان غزتهُ هذهِ الروح وحولتهُ الى كائن مختل ومختلف ولا يعرف اين يضع قدمهُ

- سلام ...ألم تتعب...يكفي ارجوك

قال لي لا أتصور انهُ سيغفر لي بعد كل ما فعلتْ وعلي الان ان اعثر على نوع اخر من المساومات تمنحني المغفرة...

من يسمح لك بأن تنال المغفرة حبيبي ؟

كان سلام يريدُ الفوز بالانتخابات للمرة الثانية قبل ان يبدأ اتصالاتهُ مع جهات معارضة لحزب معتز, عندها فقط يستطيع ان يكون فاعلاً ومؤثراً وقادراً على نبش هذا الكيان الشيطاني الذي بناهُ معتز مستغلاً مكانة ابيهِ المعنوية وتاريخهُ النضالي والفكري الكبير, لكن احمد حسيبة كان قريبا من سلام وشعرَ بكل تحولاتهِ ونقل شكوكهُ الى معتز الذي بدأ يراقب سلام قبل ان يبدأ بمراقبتي ايضا بعد ان اكتشف احمد حسيبة انني انا هذه المرة من يحرك سلام, لكن رغم كل مراقبتهم تلك فلم ينجحوا في معرفة الحقيقة وظلوا مثل المضروبين على رؤوسهم يؤولون ويحاولون الوصول الى استنتاج منطقي, لكن هذه العلاقة بيني وبين سلام وبين هذا الشيخ الذي يعيش في كوخ معزول داخل بساتين الحلة وبين ابي الشيخ ابراهيم النقي الذي شن حملة من مصر على حزب معتز كشفَ من خلالها كل ما فعلهُ هذا الحزب منذ ذلك اليوم الذي منعَ فيهِ سلام اباه الشيخ ابراهيم النقي من دخول مقر الحزب في سوريا قبل ان يدخل الامريكان الى بغداد ويدخل معهم معتز ليعلنَ تشكيل امبراطورية الشيطان, معتز حول سلام الى رصاصة في رأس كل اعداءهِ ومعارضيهِ لذلك كان ندم سلام كبير جدا, احسَ بخطيئتهِ وهو الان يريد ان ينتقم من كل شئ, ينتقم اولا من شيطانهِ الذي جعلهُ يضيّع اخوه عطية كل هذا العمر, قلت له بعد ان مسحتُ دمعة فرت من عينيه

- سلام حبيبي, عطية لم يكن ضائعا, انتَ كنت ضائعا, اولا اعثر على نفسك وبعد ذلك ستجد عطية

كنتُ اعرف ان سلام لن يعيش طويلا وان معتز لن يسمح لهُ بالخروج عن سيطرتهِ ليشكلَ حزباً جديدا وان كل تحركات سلام يعرفها اول بأول عن طريق هذا الشيطان احمد حسيبة, كنتُ اعرف ان لحمهُ مازال طرياً وانهُ بالنسبة لمعتز ليس اكثر من حشرة يسحقها بقدمهِ متى يشاء, لكن معتز هذه المرة ضرب عصفورين بحجر واحد, انهى سلام وبنفس الوقت تخلصَ من هذا الهم الذي بدأ يقظُ مضجعهُ ويشكل له نقطة ضعف قد يستخدمها خصومهُ ضدهُ في أي وقت .

انا كنتُ نقطة ضعف معتز وقام هو بما يستوجب عليه, قتل سلام بالسم وجعلهم يتهمونني بقتلهِ بعد ان رتبَ كل شيء وبطريقة لا أستطيع معها الخلاص من حبل المشنقة, رغم ذاك هو لم يفاجئني خاصة بعد ان استطاع الوصول ل(عطية) وقتلهُ بسهولة قبل ان نقوم انا وسلام بدفنهِ بجوار قبر امه هناك وسط بساتين الحلة بالقربِ من القرية التي عاش فيها عطية جزء كبير من حياتهِ بعد تخرجهِ من السادس العلمي والتي يعيش فيها اخوالهُ, قتلهُ معتز او اراد ذلك فقط حتى دون ان يعرف انه اخو سلام ..

نحن الثلاثة كان عليهِ ان يزيحنا عن طريقهِ, الأخوان وانا التي وقفت بينهما كعلامةِ استفهام كبيرة تنام وسط سطرين يسيران بشكل متوازي ليصلان بالنهاية الى النقطة التي اقف عليها الآن امام زنزانةِ السجن المعزول والمؤثث بسرير مفرد استلقى عليه فراش اسفنجي مُريح وأمامهُ تلفاز صغير اما المغسلة فتقع في زاوية الزنزانة بالقرب من حمام صغير يكفي لجلوس شخص واحد .

فتحتْ السجانة الباب لأفاجئ بالزنزانة وقد اصبحت اكثر ضيقاً بعد ان وضعوا سريراً اخراً في الجهة المقابلة لسريري بالقرب من التواليت, فُرشَ عليه فراش اسفنجي تستلقي عليه سيدة تبدو انها تجاوزت الثلاثين من عمرها, ترتدي ثوباً مورداً بورود غريبة وبألوان مختلفة

يرتفع في قدمها اليمنى الى ما فوق الركبة ليكشفَ عن ساق مصقولة تستطيع ان تتنبأ انها ستكون لامرأة جميلة اما مؤخرتها فقد تحولت الى كرتين متنافرتين لانهما يمتلكان نفس النوع من الشحنات, نهضتْ بعد ان اغلقتْ السجانة باب الزنزانة خلفها, منذ النظرة الاولى ادركتُ ان امراً ما قد حدث فأوامر معتز التي نقلتني من سجن النساء الى غرفة مفردة استطيعُ فيها الاختلاء مع من أُريد والذوبان فيه وممارسة هذا العشق الذي يمنح كل خلاياي قشعريرة تستطيع حتى الجدران الاحساس بها.

ما الذي تغير لتجتاحَ عالمي هذه المرأة, تصورتُ في البداية انها قد تكون مثلي تابعة لأحد الاثرياء او الساسة التي بعثها حظها الى هذا السجن لكنها بمجرد ان التفتتْ نحوي وسقطت عيناها بعيني ادركتُ تماما انها مبعوثة من معتز وانها تريد ان تعرف القصة بالكامل, قصة سلام هذا الداهية الذي تسلل بهدوء ليتولى مناصب كثيرة, فمن حماية يفتح الطريق امام السيارة التي تقل معتز الى نائب بالبرلمان وبين هذين المنصبين تولى مناصب كثيرة, ايضا دهسَ بقدميهِ على ضحايا كُثر, فترة طويلة كان سلام يد معتز التي يضرب بها اعدائهُ, كان خبيرا بقضايا الاغتيالات ويملك جواسيس ينتشرون في كل مناطق العاصمة وكان بسهولة يتخلص من أيّ شخصٍ يريد معتز التخلص منهُ, اصحاب محلات, صحفيون, فنانون, اصحاب بسطيات, موظفون حكوميون واخرين لا يعرف حتى لماذا يتم تصفيتهم, كان معتز يكتفي بإعطاء سلام صورة الشخص المطلوب والعنوان ويتولى سلام وفرقته الباقي, يراقب الضحية لأيام قبل ان يحدد الوقت والمكان التي ستتم فيهِ تصفية هذا الشخص وكان ينجح في كل مرة وهو يتحرك بثلاث سيارات تدعم العملية وتتدخل في حالة حدوث أيّ طارئ, ويقوم هو بتصفية الضحية المطلوبة بيديهِ ثم ينسحبون بسرعة مبتعدين عن مكان الحادث, على كل حال لم يكن ثمَّ من يهتم او يقوم بمطاردتهم, حتى العمليات التي تقع بالقرب من سيطرات الجيش والشرطة, كان الجنود

في هذه السيطرات لا تُبدي أيَّ ردة فعل إلا بعد حوالي نصف ساعة حيث تذهب الى مكانِ الحادث, تضع الجثة في صندوق السيارة وترميها في الطب العدلي وينتهي كل شيء وكأن شيئا لم يكن.

نهضتْ ببطء من على السرير, ذهبتْ الى المغسلة وغسلتْ وجهها ثم اخرجتْ منشفة من حقيبة كبيرة وضعتها تحت السرير قبل ان تلتفت الي

- مرحبا

- اهلا

اقتربتْ مني وهي تضغط المنشفة على وجهها ويديها قبل ان ترميها على كتفها وتمد يداً نحوي.

- انا لبنى

وقفتُ وصافحتها ببرود

- اهلا...سميرة

شعرتُ ان هذه المرأة ليست سهلة وانها تعرف تماما ما تقوم بهِ ,لكن ما الضير, هي بالتأكيد لن تستطيع ان تؤذيني بعد ان كشفتها ومعتز يعرف جيداً ان مصيري هو حبل المشنقة وما يتبقى من حياتي سوى قرار القاضي الذي لا يثير عندي أيَّ فضول .

عندما فرشتُ السجادة على الارض وبدأتُ بنوبة الصلاة المعتادة كانت هي ترمقني بنظرة غريبة وكأنها تنتظر اللحظة التي انتهي فيها من صلاتي.

كانت تتأملني وانأ اضيع تدريجيا في عالم غيبني تماما وحررني ليس من هذا السجن فقط بل حتى من جسدي ليحتويني بالكامل, عالم حولني الى طيرٍ استطيعُ معهُ الوصول الى ابعد نقطة في الوجود عندها بدأت اشعر برعشة تحتل جسدي كلهُ وبدأ العرق ينسل من بين خلاياي ويبلل سجادة الصلاة, هذا العرق اختلط مع الكلمات والحركات اللاإرادية ليحول المكان الى كائن مهيب ورائع ويجعل مني كائناً بالكاد يستطيع التنفس والرؤية.

انسلتْ هذه القشعريرة عبر قدمي لتصعدَ الى فخذي وتهزُ مؤخرتي قبل ان تقطعَ المسافة عبر بطني وتنشر حركاتها الغريبة على صدري فيتقافز نهداي وتبرز حلمتهما وكأنهما نهايات اصابع مجروحة, في تلك اللحظة كانت شفتاي ترتجفان فأحاول ان اضغط احداهما على الاخرى لأستجدي بعض الرضاب الذي ادفعهُ الى جوفي عكس مسار القشعريرة التي استولت على رأسي وحولتهُ الى ارجوحة لا تكف عن تحريكِ الهواء الذي بدأ يصرخ من دون وعي

-الله...الله...الله

لا أعرف الفترة التي قضيتها وانا مُمددة على سجادة الصلاة وغائبة في ملكوت لا ينتمي لأيِّ شيء في هذه الزنزانة المظلمة, رأيتُ لبنى ممددة على السرير وهي تغط في نوم عميق بطريقتها الشيطانية تلك وهي تستلقي على بطنها تاركة مؤخرتها تبرز كرابيتين استقرتا فوق جسدها, كان جسدي قد تحول الى ممرات من وجع, رفعتُ نفسي وبالكاد رميتُ جسدي على السرير لأغطَ بنوم عميق.

حيرة نوال

هذه المرأة يبدو انها لا تلعب

فخلال خمسة ايام حاولتْ ان لا تتوقف ابداً من الاقتراب مني واستدراجي كي أخبرها بقصتي, بدتْ جادة وذكية حتى كأنني إزاء ممثلة محترفة تلتصق بشخصيتها الى الدرجة التي لم تعد تفصل بينها وبين الشخصية التي تؤدي دورها, أخبرتني انها من عائلة غنية وأن اباها احد التجار الكبار من اصحاب النفوذ والعلاقات الكثيرة التي تصل الى اعلى مراكز السلطة وانها تسببت بحادث سير عندما صدمت بسيارتها(bmw) سيارة يستقلها احد شيوخ الدين بعمامتهِ التي تحولت الى قطعة من دم بعد ان انقلبت سيارتهُ عدة مرات من قوة الاصطدام ليموتَ الشيخ بعد ثلاثة ايام من دخولهِ المستشفى, قالت لي, لسوء حظي كان هذا الشيخ قيادياً في احدى الأحزاب الدينية وان اباها حاول ان يحلَ المسألة عشائرياً لكنها اخذت أبعاداً اكبر من حجمها عندما أصر اهل الشيخ ايداعي في السجن, على كل حال فانا لن ابقى طويلا في هذا السجن وان ابي سيضغطُ بشدة لإخراجي من هنا, قالت ذلك بشيء من الدلالِ والغنج.

كنتُ ادركُ تماما انها من خلفية فقيرة وان حياتها ملأى بالمشاكل والمطبات والألم كما عرفتُ بعد ذلك ان اسمها ليس لبنى بعد ان نادتها السجانة باسمها لتستلمَ الطعام لكنها بقتْ صامتة وكأن السجانة تنادي شخصاً اخراً غيرها قبل ان تلتفتْ وتتذكر حينها اصابها ارتباك كبير

وحاولت بصعوبة ان تداري الأمر عندما ركضت, اخذت الطعام من السجانة ورمتهُ امامي وقالت لي

- الافكار تتزاحم في رأسي ولا تجعلني انتبه لأيِّ شيء

خلال الايام التالية حاولتُ ان اصرخَ بوجهها ان تكفَ عن الكذب وانني اكتشفتُ لعبتها التي اصبحت مُملة وغير ذي جدوى ولكن هذا الألم والوجع الذي يخرج احيانا ويغطي ملامحها رغم محاولاتها الجادة بإخفائهِ هو من كان يمنعني من أن أصدمها بهذهِ الطريقة, شعرتُ انها تمرُ بظروفٍ عصيبة كما انني اعرف ان لمعتز قدرة عجيبة على تجنيدِ الناس واستغلال حاجتهم وبؤسهم للتلاعب بهم ومن ثم تصفيتهم اذا ما أحسَ انهم لم يقوموا بما يريد بالشكل المطلوب او انهم يملكون من المعلومات اكثر من اللازم, بالتأكيد سيقوم بتصفيتها بمجرد ان تنتهي من اخبارهِ بالقصة لذلك كنتُ طوال هذه الفترة ابقى صامتة امامها او اجاملها ببعض الكلمات بين الحين والاخر

(أي, نعم, بسيطة, الله كريم)

كانت لبنى تلعب دور البنت المُدللة بعناية واتقان حتى انها في احد الأيام رمتْ الطعام بوجهِ السجانة وهي تصرخ

- هذا أكل, هذي جيفة, من الأفضل ان اشتكيكم لأبي واجعلهُ يربيكم من جديد

جمعت السجانة اطباق الطعام وهي تنظرُ اليها وذهبت قبل ان تأتي غيرها وتنظف الأرضية من بقايا الطعام الذي انتشر في كل مكان داخل الزنزانة, اقتربتْ مني بعدها قبل ان تبتسم بوجهي وتسألني

- ما هي قصتكِ

ضحكتُ بوجهها واجبتها بهدوء

- قصة طويلة, لا اريد ان اشغلكِ بها

- لا بالعكس, نحاول ان نجعل الوقت ينقضي من دون ملل...اجابتني

- ليس الان, ربما في يوم اخر....اجبتها

علاقتي مع لبنى او هذهِ اللامسمى بدتْ متوترة وقلقة طوال الايام التي تلتْ هذا الحوار قبل ان تفتح السجانة الباب وتخبرُها ان شخصاً جاء لزيارتها, ارتبكتْ قليلا وبدتْ انها لا تريد الذهاب, نظرت اليَّ بشيء من اللؤم والحقد قبل ان تغلق السجانة الباب خلفها, بعد حوالي ربع ساعة دخلت واكوام من القلق والخوف يرسم اشكالاً غريبة على وجهها, نظرتْ اليَّ دون ان تتكلم ورمتْ بنفسها على السرير وهي تضع يديها خلف رأسها وتتأمل السقف, كنتُ اعرفُ انها تلقتْ للتوّ سيلاً من الشتائم لأنها تأخرت كثيرا في القيام بما هو مطلوب منها وان عليها ان تستعجل وان الأمر اصلاً لا يتطلب كل هذا الوقت, هم لا يعرفون انها طوال الفترة التي قضتها بهذهِ الزنزانة كانت تقوم بعمل جيد لكنها بنفس الوقت لا تريدني ان اشعرَ او أشكَ بها ويجب ان اروي لها القصة بدافع ذاتي بحت ليس لأنها هي من تطلب ذلك بل لحاجتي انا لأفضفضَ لشخص ما, طوال هذه الايام كانت تحاول ان تنال ثقتي للوصول الى الساعة المطلوبة عندما ابدأ اقص عليها كل ما حدث لي بعدها بساعات قليلة ستصلُ القصة لمعتز وعلى الاغلب ستنتقل هي الى رحمة الله.

اقتربتْ مني وجلست على حافة سريري واخبرتني أن أباها هو من جاء لزيارتها وانهُ اخبرها ان ايامي هنا ستنتهي عن قريب وانه يبذل كل ما بوسعهِ ليجعلَ اهل الشيخ يتنازلون عن القضية ويدفع كل

معارفهِ مستخدماً علاقاتهُ الكثيرة للضغط على اهل الشيخ وهو مستعد لدفع ايّ مبلغ مادي للخروج من هذه الورطة, أخيرا اخبرتني بطريقتها المدللة ان بابا لا يتحمل وجودي هنا لكنني اخبرتهُ انني الان اعيش مع زميلة مهذبة وبنت عوائل وانهُ لم يعد بحاجة للقلق عليَّ ما دمت موجودة انتِ بقربي, اقتربت مني نظرتْ بحنو في عيني وقالت

- والله لم أكن اعرف كيف كنتُ سأعيش هنا من دونك

- الله كريم ..الله يخلصنا جميعا.....اجبتها

في تلك اللحظة احسست انه لم يعد هناك ثمة مبرر لعدم مكاشفتها وانها ستلاقي مصيرها حتى اذا لم أخبرها بشيء وان عليّ ان اجد طريقة ما لإنقاذها من مسدس معتز, عندها لمعت برأسي طريقة ما لكنها تتطلب لقاء معتز وهذا ما كنتُ اتجنبهُ طوال الفترة السابقة لأنني اريدُ الامور تسير بهدوء ومثلما خطط هو لها, سقوطي قبل ان ينتشلني حبل المشنقة من رقبتي ويكسرها وينتهي كل شيء, يحصل هو على ما يريد واذهب انا الى من أُريد, لكن الان فأن الله يضعني بامتحانٍ اخر فالطريق اليه مليء بالامتحانات والاسئلة, مليء بالمطبات والاشواك وعليّ ان اجتازها كلها بنجاح, ربما تكون هذه المرأة اختباري الاخير الذي يبدو انهُ في غاية الصعوبة والتعقيد لكن لا يهم فبمجرد أن اضع قدمي على الطريق سأجد نفسي في الضفة الاخرى ومن وضعني على الطريق هو من سيقودني للخلاص, التفتُ اليها كانت مستلقية تتأملُ سقف الزنزانة, انتبهت اليّ وهي ترى ملامحي يعلوها شيء من الجدية صبغتْ سؤالي اليها بشيء من القوة والانفعال

- ما أسمكِ

- ها, لبنى, لماذا

- قلتُ لكِ, ما هو اسمك الحقيقي
- ما الذي حل بكِ, قلتُ لكِ اسمي لبنى, لبنى

وقفت اقتربتُ منها وضعتُ يدي على كتفها

- أنظري, انا اعرف كل شيء, اعرف ان معتز هو الذي ارسلكِ اليَّ واعرف ماذا تريدين منذ اليوم الاول

دفعتْ يدي من كتفها بقوة وقفزت من السرير وهي تصرخ

- ما الذي جرى لكِ, أي معتز هذا, عن أي شيء تتحدثين

- مثلما تريدين, لكن تأكدي انني سأكون واقفة الى جانبكِ, ولن يستطيع أي احد الوصول اليكِ, لا معتز ولا أي انسان اخر

تغيرتْ ملامحها بطريقة غريبة, بدتْ مرتبكة وقلقة وخائفة وتريد ان تهجم عليّ لكنها شعرت بقوتي وانها اضعف كثيرا من مواجهتي ولا تعرف ماذا تفعل في هذه اللحظة فلا الهروب من هذا الموقف ينفعها بشيء ولا الهجوم عليّ يحلُ المشكلة, اخيرا وبكثير من الارتباك اقتربت مني, دفعتني عن سريرها وهي تقول

- انتِ غير طبيعية, يمكن مجنونة

ذهبتُ انا ارتميتُ على سريري وقلتُ لها بهدوء

- انتِ حرة

عمَّ الهدوء زوايا الزنزانة كلها, لا شيء تسمعهُ فيها سوى انفاس هذه المرأة التي تنتقل اليّ محملة بالحيرة والقلق واليأس قبل ان تنفلتْ دمعة

من عينيها تتركها هيّ حتى تسيل بهدوء على خدها وتسقط على السرير تتبعها واحدة اخرى تمسحها بكُم ثوبها .

احسستُ حينها بحزن شديد وإنا ادفع هذه المرأة الى حافة اليأس والخوف, حاولتُ ان أواسيها بنظرة ولكن لا شيء يبدو انهُ يستطيع ان يُزيل حيرتها ويجيب على هذا السؤال الذي احتل رأسها بالكامل, ماذا يجب ان تفعل الآن وكيف ستتعامل مع هذا الموقف, فهي لن تستطع ان ترجع الى معتز بالقصة التي طلبها, هذه القصة التي ثمنها حياتها كلها كما انها لا تثق بي الى الدرجة التي تكشف لي عن نفسها, رغم ذاك كان عليها ان تختار بين الموت والموت لكنني كنتُ اعرف انها بالنهاية ستقتنع لأنني امنحها فرصة ما حتى اذا كانت غير مفهومة لكنها تبقى فرصة لا تستطيع ان تحصل عليها اذا رجعت لمعتز, الخيار هنا بين موتٍ تعرفه بالكامل وبين موتٍ لا تعرفهُ ربما يحمل بين ثناياهِ فرصة للحياة, نعم الجهل هنا افضل من المعرفة عندما تكون المعرفة هي الموت المؤكد .

رفعتْ جسدها من السرير وعيونها اغرورقتْ بالدموع نظرتْ الي وكأنها تستنجد بي, عندها رفعتُ جسدي من السرير وسألتها

- ما هو اسمكِ الحقيقي

- نوال

وقفتُ, اقتربتُ منها, مسحتُ دموعها واخبرتها ان لا تخاف من شيء وانني سأقف بقربها مهما حدث, سألتها ان كانت تعرف علاقتي بمعتز فهزت رأسها, اخبرتها ان معتز أخي وانني اعرف كيف اتعامل معه وانقذها من خيوط شبكتهِ العنكبوتية, حلفتُ لها انني لن اتركهُ يمسها بشرط ان تسمع كلامي وتطيعني, عندها انفجرت بدموع غزيرة, ارتمتْ بحضني وهي تصرخ

- ماذا افعل, قولي لي ارجوكِ, ماذا افعل

دفعتها عني, مسحتُ دموعها واجبتها

- في البداية اخبريني كل شيء, كيف تعرفتِ على معتز ومن اين انت وكيف وصلت بكِ الامور الى هذا الحد وبعد ذلك سأجدُ لكِ مخرجاً, اطمئني فقط واخبريني بكل شيء

طفل من عالم أخر

هذا المشهدُ يتكررُ دائما منذ ان اكتشفَ الأنسان أن لذة عارمة مثل هذه لابدَ لها من مقدمات ومن الظلم أن تحدث دون شكل من أشكال الاحتفال, فبالنسبة لأمينة كان هذا الخليط من اللذة والألم يتحول الى صورة تعلقها على جدارِ الذاكرة ولا يمكن ان يمحو ملامحها الزمن اما زوجها البعثي الذي امتلأ دولابهُ ببدلات الخاكي فكان مبهوراً بجسدها وهو يتناولهُ قطعة إثر اخرى, الأم ببطنها المنتفخة تجلسُ خارج الغرفة تنتظر الفرج وهذا الفرج لا يأتي الا مع قطعة قماش بيضاء مُبللة بالدم اما عبد الفتاح فبقى مبتسماً طوال النهار وهو يأكل ما تبقى من الفواكة والحلويات التي امتلأت بها غرفة الضيوف بعد ان فضَّ جمع النسوة اللواتي خرجنَ مع امينة في سيارات الزفة, خديجة وحدها بقت في البيت قرب أبيها بالرغم انها عارضت ذهاب امها مع امينة خوفاً على من في بطنها من ارتجاج السيارة والتعب الذي يصادف الزفة عادة وهي في الاشهر الاخيرة من الحمل لكن الأم بدت متأكدة وهي تمسحُ على بطنها وتقول لها

- لا تخافي

كانت الأم متأكدة ان الولد آتٍ لامحالة اما عبد الفتاح فبدى غير مبالٍ طوال فترة حمل الأم لأنهُ ملَ من أحلامها بهذا الذكر الذي لا يأتي كلما انتفخت بطنها بأنثى بالرغم من ان الحمل هذه المرة مختلف قليلا فطباع الأم تغيرت كثيرا منذ اليوم الاول الذي تأكدت فيه من حملها حيث بدت أكثر هدوءً وغادرتها عصبيتها لكن علاقتها مع عبد الفتاح

ازدادت ارتباكاً حيث هجرتهُ تماما ومن دون ان يفهمَ هو لتنام في غرفة البنات, مرة سألها

- ما الذي جرى لكِ

فأجابتهُ بحدة واضحة

- اخاف على الولد

هو كان معتاداً على ممارسة الجنس معها في اشهر الحمل الاولى وهي كانت لا تمانع وتعتبره أمرا طبيعيا لكن هذه المرة بدت انها تهجر عبد الفتاح اكثر من كونها خائفة على الطفل الذي بدأ يملأ بطنها, عبد الفتاح ايضا لم يعد يهتم بعد ان دفعتهُ الى كرهها بتصرفاتها الغريبة وعصبيتها الدائمة, ظل عبد الفتاح على لامبالاتهِ وبدت هي مرتاحة من هذه اللامبالاة وهذا جعل البيت يمرُ بمرحلة هدوء نادرة بينما البنات انشغلنَ طوال الفترة بالتحضيرات لزواج امينة..

خرج عزيز وهو يرفع قطعة القماش الملطخة بالدم عندها ارتفعت اصوات الهلاهل وعجَ البيت كلهُ بالهوسات والمباركة قبل ان يتقدم عزيز نحو الأم ويقبلها من رأسها قبل ان تخرج هي والبنات ويعدنَ الى البيت..

لا يبعد بيت عزيز سوى بعض الشوارع الداخلية عن بيت عبد الفتاح وهذا جعل البنات يجدنَ متنفسا بالذهاب الى بيت أختهم ذو البناء الحديث حتى ان الحيطان البيضاء ما زالت تصّدر رائحة الجص الى الخارج اما الكاشي الموزائيك البارد فمنحَ البيت جواً مُريحاً عكس بيت عبد الفتاح ذو الارضية الاسمنتية المتشققة بحكم عامل الزمن, وبالرغم من ان عزيز لم يكن يدخل البيت إلا في ساعات متأخرة لكن أمينة لم تجد أيَّ ضير في ذلك ما دامت اخواتها بقربها طوال النهار بعيدا عن سلطة الأم وهذا جعل امينة والبنات في دوامة فرح بعد ان اقنعت الأم عبد الفتاح ببقاء البنات قرب أختهن وانه لا يجوز ان تبقى وحدها بالبيت طوال النهار كما انه من غير اللائق ان تترك بيت زوجها وهي في الايام الاولى من الزواج, عبد الفتاح نفسهُ بدأ يعود مبكرا من

السوق, يغتسل ويرتدي دشداشتهُ النظيفة ويذهب للمقهى بينما تبقى الأم وحدها بالبيت وفي كل مرة يفتحون الباب يجدونها مستلقية على سجادة الصلاة وكأنها فقدت الوعي وتسرح في ملكوت أخر.

تفاجأن البنات عندما نهضنَ في الصباح ووجدن طفلاً ينام بهدوء بين يدي أمهن

كانت الشمس قد بدأت لتوها عملها اليومي وبدأت العصافير بنوبة فرح صباحية عندما صرخنَ البنات بصوت واحد

- من هذا؟؟؟

البنات لم يستوعبنَ ما حصل, الأم نامتْ امامهنَ البارحة من دون أيِّ علامات للولادة كما انها دخلت للتوِ في شهرها السابع للحمل ولا يمكن ان تلدَ هكذا من دون أي علامات, لا صراخ ولا طلق ولا ارتباك ولا ترقب ولا أيَّ شيء من هذا الذي يحصل دائما في حالات الولادة, لا يمكن ان يكون كل هذا حصل وهنَّ لم يشعرنَ بذلك, عندها دخل عبد الفتاح وهو يحمل اكياس ملآى بالمشويات

- وهذا الاكل لأم الولد...وهو ينشر الطعام امامها

عندها اقتربت خديجة وسألت اباها

- ما الذي حدث

ضحكَ عبد الفتاح وهو يخبرها ان امها ايقظتهُ في حوالي الساعة الثانية ليلا وقالت له انها تلد ويجب ان تذهب للقابلة, قال لخديجة, بصراحة لم اسمع بحياتي ان امرأة ولدتْ بهذا

الشكل, خرجنا من البيت بهدوء لأنها اصرت على عدم ايقاظكنَ وعندما وصلنا لبيت القابلة لم انتظر طويلا, دقائق فقط خرجت بعدها وهي تحملُ هذا القمر الذي اطل علينا, وضعت الطفل بين يدي واخبرتني ان هذا الطفل خرج لوحدهِ وكأنه كان يمدُ يديه على جدار الرحم ويدفع نفسه للخارج , ضحك عبد الفتاح بينما فرت دمعة يتيمة من عينه بعد ان تحقق حلمهُ الذي يأسَ من تحقيقهِ منذ وقت طويل .

قالت القابلة لنساء الحي بعد ذلك انها كانت مشغولة بتسخين الماء قبل ان تعودَ للغرفة وتجد الطفل وهو ممدد بين فخذي امه يتأمل سقف الغرفة, لم يبكِ ولم يطلق صرخة الولادة, كان يلتفت الى امهِ التي تحاول النظر اليه وتبيان ملامحهِ من بين ركبتيها, صمتتْ لا نها ادركت ان ما ستقولهُ صعب التصديق لكنها وبشيء من الجدية قالت

- وحق ام البنين رأيتُ الطفل يرفع رأسهُ وهو يحاول ان يرى وجه امهِ

لم يصدقنَ نساء الحي ما قالتهُ القابلة الا عندما ذهبنَ لزيارة أم أمينة, خاصة عندما اقتربنَ من الطفل لوضع بعض المال تحت وسادتهِ كما جرت العادة..

كانت ملامح العافية تبدو واضحة على ملامح الطفل الذي كان يرفض تقميطهُ ولا يهدأ الا بعد ان تفتح امه قطع القماش البيضاء التي تلفها حول جسدهِ بالكامل بعد ان تثبت يديه على جانبي جسمهِ وهي تطلق صوت يشبه الصفير عندها يبدأ الطفل يضج بالبكاء ولا يسكت إلا عندما تفتح عنه الام هذا القماط عندها يبتسم ويبدأ يحرك قدميه بنشاط غريب, بدى

وكأنهُ اكبر بكثير من عمرهِ الذي لا يتجاوز ايام وهذا دعي ام تحسين زوجة الشيوعي السكير الى الهمس بإذن الأم

- ام امينة ..نشري لهُ, أخاف ان تصيبهُ عيون النسوة

اجابتها ام امينة بهدوء

- لا تخافي...هناك من يحميهِ دائما

كان هناك شيئا خفيا في هذا الطفل يجعل كل من يراه للمرة الاولى يريد ان يراه مرة اخرى, كان يبدو وكأنهُ يتكلم مع امه بلغة لا يفهمها الحاضرون وكانت هي تفهمهُ وتنفذ ما يطلبهُ منها على الدوام وهذا جعل الأم تتمتع بشخصية جديدة لم يعتدها لا عبد الفتاح ولا البنات ولا حتى نساء الجيران, كانت تبدو اكثر حكمة واكثر سيطرة على انفعالاتها وتعرف تماما كيف تتصرف وماذا تقول وبشكل أدق كان هناك معلم يقف بقربها ويعلمها كيف تتصرف مع الاخرين, هذا الطفل كان معلمها الذي منحها ومنح البيت كلهُ حياة جديدة, كانت غالبا ما تدعو بناتها للخروج للتسوق وهن لم يعتدنَّ هذا حيث كانت غالبا ما تخرج للتسوق وحدها في السابق واحيانا تذهب معهن لزيارة ابنتها امينة والبقاء هناك لوقت متأخر.

عبد الفتاح قال انه سيسمي الطفل جواد لكن الأم وقفت وبكثير من الجدية وباستعراضية واضحة اخبرت الجميع ان هذا الطفل نزل اسمهُ معهُ, هو عطية الربّ وسنسميهِ عطية, لم يعترض عبد الفتاح واكتفى بالصمت فهو يعرف ان عقيدة مثل هذه لا يمكن معارضتها وتغييرها بسهولة كما انهُ كان يشعر منذ اليوم الاول للحمل ان هناك شيئا غريبا بدأ يجتاح زوجتهُ وان علاقة غريبة بينها وبين ابنها تتعدى علاقة الأم المعتادة بأبنها, كان هذا الطفل يمنحها قوة وقدرة على الإقناع لم تكن تتمتع بها من قبل, كان يشعر احيانا بالغيرة من هذا الطفل ولكنهُ لم يستطع مصارحتها فأكتفى بإهمالها متألما من دون ان يعرف سبب المهِ

هذا او يستطيع تفسير هذه الحالة الغريبة التي بدأت تتشكل بينهم الثلاثة, بصورة ادق كان يشعر بان زوجتهُ تخونهُ بطريقة ما وان هذا الطفل نتيجة لخيانة ما لكنهُ لم يستطع ان يفكر حتى باتهامها او انه هو نفسهُ يستطيع تصديق ما يشعر به لكنهُ منذ اللحظة الاولى الذي وضع الطفل بين يديهِ ادرك بشكل لا يقبل الشك ان هذا الطفل لا يمكن ان يكون ابنهُ, كان صوتا يصرخ بداخلهِ ان هذا الكائن لا يمكن ان يكون من صلبهِ, كان كثيرا ما يتأملهُ محاولاً ايجاد ولو لمحة من التشابه بينهُ وبين هذا الطفل دون جدوى, كان يشعر بانه طفل من عالم اخر وربما من جنسية اخرى رغم ملامح التشابه الكثيرة مع امهِ ولكن هناك شيئا اخرا وملامح اخرى قادمة من كون اخر.

علاقة الام بطفلها بدأت تأخذ اشكالا غير اعتيادية فهي تتكلم معهُ ولا تناغيهُ, وهو يعلمها دائما ما عليها القيام به, هذا جعلها تلتفت لبناتها, تسمعهم وتهتم لمشاكلهم وتقترب منهم, وهذا منح العلاقة بينها وبين بناتها حميمة كانت مفقودة قبل ولادة هذا الكائن, ومنح البيت جوا من الألفة والتفاهم والحب, الوحيد الذي لم يستطع التجانس مع هذا الواقع الجديد هو عبد الفتاح الذي بدأ يقلل من تواجدهِ في البيت وبدأ يلتقي كثيرا بزوج ابنته عزيز ولا حوار بينهما سوى حوار السياسة خاصة بعد ان سيطر الحزب على كل مقاليد السلطة واصبح الأب القائد رئيسا لجمهورية العراق, كان عزيز يحترم كثيرا الأب القائد ويتحدث عنهُ بكثير من الاحترام لكنه كان يقول دائما ان السيد النائب هو العراب الحقيقي لكل منجزات الحزب وهو صاحب الثورة الحقيقي الذي روى بدمهِ ارض الوطن عندما أصيب في محاولة اغتيال الخائن عبد الكريم قاسم وهنا وبشكل لا ارادي صرخ عبد الفتاح

- الزعيم
- هذا خائن وليس زعيماً...خان كل مبادئ الثورة والحزب

لم تكن امينة تبالي بحوارات عبد الفتاح وعزيز اما البنات فكنَ مبهورات بالطريقة التي يتعامل فيها عزيز مع اختهم امينة,

كان يسلمها المصرف ولا يحاسبها على أيِّ شيء, وعندما يدخل ويجدهن يبدأ بملاطفتهن وهو يرمي النكات الواحدة تلو الاخرى وكان يدعوهن دائما لعدم مفارقة امينة حتى لا تشعر بالوحدة وهو غائب عن البيت طوال النهار واحيانا طوال الليل, امينة بدت مطيعة وتحاول دائما ان تجعل عزيز سعيدا في الساعات القليلة التي يتواجد فيها في البيت.

بعد عدة اشهر من زواجهِ طلب عزيز من عبد الفتاح ان يترك بسطية الخضار في السوق ويعمل معهُ في مكتب تابع للحزب لا يبعد كثيرا عن بيت عزيز, هذا المكتب مرتبط مباشرة بإحدى المكاتب الرئيسية التي يشرف عليها بشكل مباشر الرفيق نائب رئيس الجمهورية, وافق عبد الفتاح مباشرة وفي الحقيقة كان ينتظر هذا العرض منذ اشهر لكنهُ لم يجرؤ ان يطلب ذلك من عزيز تجنباً لرفض عزيز لهذا الطلب وتجنباً ايضا لرد فعل زوجتهُ التي ثارت ثائرتها عندما اخبرها بذلك, قالت له ان بحرَ السياسة عميق وستغرق فيهِ لكنهُ تركها ببساطة وخرج من البيت, بعد يومين ارتدى بدلة (السفاري) ذو اللون الرصاصي الفاتح والحذاء الاسود اللامع الذي اشتراهُ في نفس اليوم الذي طلب منه عزيز العمل معه في مكتب الحزب وذهب الى المكتب, تفاجأ عبد الفتاح بمكتب عزيز المصنوع من خشب الصاج وهو يجلس على كرسي دوار بينما تنتشر على المكتب الكثير من الاوراق وعلى جانبيهِ جهازي هاتف وزر صغير كان يصدر صوت الجرس عندما يريد عزيز استدعاء عامل الخدمة ليطلب أيَّ شيء, ولم يكن عبد الفتاح يفهم في كل هذا الذي امامهُ الان, اخبره عزيز ان العمل هنا هو استلام التقارير الذي يكتبها الرفاق المنتشرين في الحي, غالبا تكون هذهِ التقرير عن اخرين يصنفون كأعداء للحزب والثورة, شيوعيون, اسلاميون, خونة يرتبطون بجهات

خارجية, اخبرهُ ان الشك بشخص ما يكفي لكتابة تقرير عنه وانهم هناك في المكاتب الرئيسية يقومون بالتحقيق والتأكد من صحة هذه التقارير, اخبرهُ انه منذ هذا اليوم عليه ان يكتب التقارير على كل من يشك بهِ انهُ لاينتمي للحزب ..
ابو تحسين هذا الشيوعي السكير والذي كان لا يرى فيهِ الكثير من البعثيين أي خطر ويتجاهلونه باستمرار لأنه كان غائبا عن الوعي باستمرار رغم جرأتهِ وهو يصف البعثيين ب (الخوشية) وينعل اليوم الذي جاءوا به الى هذا البلد, لم يروا فيهِ سوى سكير تافه لكن عبد الفتاح رأى انه عدو حقيقي للحزب والثورة فكتب اول تقرير لهُ ووضع فيه كل ما سمعهُ منهُ من شتائم ضد الحزب وخاصة ضد شخصية الرفيق النائب الذي كان لا يصفهُ ابو تحسين الا ب (الهتلي), بعد ايام اعتقلوا ابو تحسين من الشارع ولم يستطع اهلهُ العثور عليه مع ان ام تحسين جاءت الى عبد الفتاح ليتوسط لها عند عزيز لمعرفة مصير زوجها لكن عبد الفتاح اخبرها ان جهاز المخابرات هو من اعتقلهُ ولا شأن لمكتب الحزب باعتقالهِ وانه سيبذل كل جهده لمعرفة مصير ابو تحسين, عندها تركتهُ وهي تدعو له بطول العمر..
عزيز كان يعرف جيد طريق السلطة, كان يتسلق بهدوء وهو يجرُ بأذيالهِ عبد الفتاح الذي كان مطيعاً ويعمل دائما بوصايا عزيز, كان عبد الفتاح يكتب التقارير بشكل شبه يومي, يراجعها عزيز ويصحح لغتها ويرفعها الى احدى المكاتب الرئيسية التي كان يشرف عليها السيد النائب.
في احد الايام اخبر عزيز عبد الفتاح ان السيد النائب سيعتلي قريبا رئاسة الجمهورية وانهُ هو من يدير البلاد بشكل حقيقي وان الأب القائد اصبح واجهة فارغة ستسقط متى ما قرر السيد النائب ذلك خاصة بعد ان نجح بتصفية كل المناوئين له

من البعثيين وغير البعثيين وانه يتمنى لو انهُ يستطيع الاقتراب منهُ وخدمتهُ عندها ستنفتح لنا طاقة القدر.
وبالفعل فبعد عدة اشهر استطاع عزيز الانتقال للعمل في احدى المكاتب الرئيسية للحزب التي تتبع بشكل مباشر للسيد النائب والتي كانت تعمل في استلام التقارير الحزبية من كل مكاتب الفرق الحزبية المنتشرة في بغداد والمحافظات وتصنيفها قبل ارسالها الى دائرة المخابرات العامة والتي كانت تحت الاشراف المباشر للسيد النائب ايضا, في تلك الفترة تحول عبد الفتاح الى شخص اخر, كان اكثر هدوء وكان يصر دائما على اناقتهِ وهو يرتدي (السفاري النص ردن) ويضع قلم حبر في جيب الصدر وبدأت علاقاتهُ تتوسع وعلاقاتهُ الحزبية تتشعب وكل هذا طبعا بنصائح عزيز وهو يكيل المدائح لشخص السيد النائب امام الجميع وبمناسبة او من دون مناسبة, هذه العلاقات مع البعثيين تحولت الى جلسات شرب ونساء وسهرات تستمر للصباح رغم ان عبد الفتاح كان اقل مقبولية بالنسبة للنساء مقارنة بالأخرين وهذا دعي استاذ حمزة ذلك السكير الذي يبدو وكأنهُ يعرف كل شيء فبمجرد ان تفتحَ أيَّ موضوع امامهُ يتناولهُ استاذ حمزة ويبدأ يشرح ابعادهُ التاريخية وكل ما يتعلق به, لم يكن الجالسون يثقون كثيرا بما يقولهُ لكنهم بنفس الوقت كانوا غير قادرين على معارضتهِ لقلة ما يمتلكونهُ من معرفة
سأل حمزة عبد الفتاح

- ماذا يقول الله
- ماذا يقول ..اجابه عبد الفتاح
- يقول (ولدانٌ مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا)

حتى ربك يقول ان الغلمان افضل من النسوان لكن من يفهم؟

بعد ايام اقنعَ حمزة عبد الفتاح في ان يجربَ ممارسة الجنس مع احد الشباب, قال لهُ ان لذتها اكبر بكثير مما يحدثُ عادة مع النساء وانهُ لن يعرف قيمتها الا عندما يجربها ..
عندما دخلا عبد الفتاح وحمزة الى شقة تقع في الطابق الثاني لعمارة تقع في وسط المدينة وجدوا ثلاثة شباب يتمايلون كالنساء بعد ان قاموا بكل عمليات التجميل التي تحولهم الى نساء بالفعل, ازالة الشعر, مكياج, تكبير الثديين وهم يرتدون بناطيل جينز ضيقة تُظهر مؤخرات ضخمة يهزونها امام عبد الفتاح وحمزة فتتعالى ضحكات حمزة وهو يضرب هذه المؤخرات بنشوة كبيرة قبل ان يذهبوا الى الغرفة المجاورة ويعودون مُحملين بقناني العرق الابيض والبيرة مع اقداح كرستالية, كانت هناك في وسط الغرفة مائدة ممتلئة بأنواع المزات والفواكة وهذا جعل عبد الفتاح وحمزة يشربون حتى وقت متأخر وهم يستمتعون برقص هؤلاء الشباب بعد ان بدأت الاغاني تصدرُ روعتها من مسجلة كاسيت نوع (Natinl)موضوعة بالقرب منها مجموعة من الكاسيتات ذواتي البكرتين الصغيرتين اللتان يدوران داخل المسجلة مادامت الاغاني توزع احاسيسها في اجواء الغرفة حتى تصل الى روح عبد الفتاح فيصاب بنشوة غريبة تجعلهُ يقف ويهز خصرهُ وكأنهُ راقصة مصرية
اقترب حمزة منه وسألهُ

- من يعجبك

ضحكَ عبد الفتاح وهو يشير الى احد الشباب الثلاثة الذي كان راقصاً جيدا طوال السهرة وكان غالبا ما يهز مؤخرتهُ امام وجه عبد الفتاح ..
في البداية لم يشعر باللذة التي اخبرهُ بها حمزة بل على العكس شعرَ بالقرف وهو يرى العضو الذكري للشاب يهتز مع

حركتهِ وهذا ولد داخلهُ نوع غريب من الاحتقار لهذا الشاب جعلهُ يضربهُ على ظهره بقوة وبعدها توالت الضربات وفي كل انحاء جسد الشاب حينها فقط شعر بلذة غريبة جعلتهُ يُزيد ضغطهُ على مؤخرة الشاب ويزيد من ضربهِ, هذه اللذة لم يكن مصدرها انزلاق عضوهُ داخل مؤخرة الشاب بل هذه السيطرة التي جعلت منه ملك حقيقي وهو يفعل بهذا الشاب ما يُريد ومن دون ان يُبدي اي اعتراض او ممانعة ..
عندما انتهى قَبّل عبد الفتاح الشاب من شفتيه قبل ان يلطمهُ على وجههِ, ضحك الشاب واهتز عبد الفتاح طربا ونشوة وكأنه طاووس, شعر حينها ان هذا الكون كلهُ تحت سيطرتهِ وتذكر سطوة زوجته ام امينة فشعر بكره كبير تجاهها وتأكد انهُ كان مخطئا عندما سلمها نفسهُ ولم يعترض بعد حادثة العِيار, كان عليهِ ان يضربها بأكثر من عِيار حتى تتحول الى كائن مطيع يستطيع ان يفعل بها ما يشاء مثل هذا الشاب الذي قابل ضرباتهُ بفمٍ مبتسم..
ترك الشقة وذهب مباشرة الى البيت وجدَ ام عطية تصلي بعد ان خرجنَ البنات لبيت اختهم ونام عطية كملاك داخل سرير ألهي, انتظرها حتى انتهت من صلاتها حينها ذهب ورائها وحاول تقبيلها فدفعتهُ وهي تصرخ

- ابو عطية. ما الذي جرى لك

لكنه تناولها بقبلة طويلة, دفعتهُ بقوة مبتعدة عنه فلطمها على وجهها فسقطت على الارض, كانت رائحة الخمر قد غطت المكان اما الدم الذي بدأ يتسلل الى شفتها السفلى فامتصهُ عبد الفتاح وهو يتناولها بقبلة طويلة, مزق ثوبها وضغط عليها بقوة جعلتها تستسلم تماما تحته.

ولادة شيطانية

فرشَ حمزة صور عبد الفتاح امام عزيز وهو يقولُ له بلهجة متهكمة
- هذا ابو زوجتك...والنعم منهُ

علت الدهشة وجه عزيز وهو يقلب الصور التي تُظهر عبد الفتاح وهو عاري تماما يقف خلف شاب يصنع بجسدهِ زاوية قائمة امامهُ ...

جمع عزيز الصور ورماها امام حمزة قبل ان يسألهُ
- ماذا تريد
- لا شيء. فقط تبقى عاقلاً, وتعرف ان هذه الصور ممكن توصل للسيد النائب اذا فكرت ان تلعب بذيلك في يوم ما.

أجابهُ حمزة
- لكن ما الذي بدر مني, هل اخطأت بشيء ما...سأل عزيز
- لا طبعا. لن ننتظر حتى تخطئ ..او تخون. أجابهُ حمزة

هذه الصور شلت تماما تفكير عزيز وجعلتهُ يلغي كل احلامهِ بالسلطة, كان همهُ الوحيد حينئذ هو الهرب من هذا الموقف ولكن الى اين؟ وبأيّ سببٍ وهذا جعلهُ واقفا لا يلوي على شيء امام ابتسامة حمزة الماكرة, اخيرا استجمع قواه وتكلم بهدوء, قال لحمزة انه كان مخلصا على الدوام لمبادئ الحزب والثورة واذا طلبت منه القيادة في يوم ما ان يرمي نفسهُ بالنار فلن يتردد للحظة واحدة وان ما فعلهُ حمزة لم يكن لهُ أي داعي ثم اذا كنتم لا تثقون بي فيمكنكم ببساطة اقالتي من هذا المكتب, صوت عزيز المنكسر ووجههُ الجدي وملامحهُ التي بدت

عليها العصبية جعلت حمزة يقطع ابتسامتهُ ويلتف حول المكتب ليهمس بأذن عزيز

- تعرف ما هو عملي في هذا المكتب. سأل حمزة
- نعم. تصنيف التقارير وارسالها لدائرة المخابرات. أجاب عزيز

ضحك حمزة وهو يهمس لعزيز

- لا. وإنما حماية العاملين في هذا المكتب, او حماية الحزب والثورة من العاملين في هذا المكتب
- حمايتهم من أيّ شيء؟
- من انفسهم...اجاب حمزة قبل ان يستدرك

انظر حبيبي عزيز. الأنسان كائن متغير ومتحول اليوم برأي وغدا سيكون برأي اخر حتى المبادئ اذا تغيرت الظروف ستتغير هي ايضا وهذا المكتب يرتبط مباشرة بمكتب السيد النائب وفيه الكثير من اسرار الدولة واسماء الخونة والعملاء وأي خرق استخباري سوف يكون الثقب الصغير الذي سيُغرق السفينة ومن عليها وهذا ما لا نسمح به ابدا, هل تصدق ان كل الذين يعملون هنا اخذنا منهم ضمانات بشكل او باخر

- بهذه الطريقة ايضا..سأل عزيز واستدرك

هل يمكن ان تخبرني ما هو ذنب عبد الفتاح

ضحك حمزة وهو يقول

- ابو عطية مجرد مغفل, والحقيقة ليس هو همنا, انت من نريد ان نطمئن لوجودهِ بيننا, وإياك ان تخبر عبد الفتاح بأي شئ, انت تقول انك كنت وفيا دائما لمبادئ الحزب والثورة, ابقّ على وفائِك هذا ولكن يكون لهذهِ الصور أيَّ وجود, والافضل ان تنسى كل ما دار بيننا الان وان تتذكرهُ عندما يلعب بعقلك الشيطان فقط.

امينة واخواتها كانوا هم ضحايا حمزة الحقيقيين, فعزيز الذي لم يستطع ان يخبرَ عبد الفتاح بشأن الصور ولا حتى يغير تصرفاتهُ امامهُ كي لا يشعر بشيء بينما صبَّ جم غضبهُ على امينة ومنع اخواتها من زيارتها, كان يبدأ بالشتائم بعد دقائق من دخولهِ للبيت وكان يتلذذ بشتم اهل امينة التي تبقى صامتة قبل ان تنفجر وتسألهُ

- ما الذي جرى عزيز...ما الذي فعلتهُ انا كي تشتمني بهذهِ الطريقة

لكنه لايجيبها, يتركها تنحب وحدها ويذهب لينام

همة وعزيمة عزيز بعد هذا الحادثة قلت كثيرا وبدى منعزلا عن باقي العاملين في المكتب كما ان علاقتهُ مع حمزة قد تحولت الى هروب دائم من قبل عزيز ومحاولات دائمة من قبل حمزة الى تصليح ما انكسر في داخل عزيز وهذا دعي حمزة الى ان يدخل على عزيز ويغلق الباب خلفهُ ويضع الصور امامه ويقول له بكل جدية

- خذها, هذهِ النسخ الوحيدة, خذها واحرقها وانسَ كل شيء
- لا, اتركهن عندكَ, تحميني من نفسي, انا بالفعل قررت ان انسى كل شيء....اجابهُ عزيز

عندها بدأت علاقة أمينة بزوجها تعود الى سابق عهدها وبدأت اخواتها يعاودنَ زيارتها وبطلب من عزيز نفسهُ, كانت أمينة تعرف ان زوجها يعمل في مكان ملئ بالأسرار والمشاكل ورغم انه لم يخبرها في يوم ما عن أيّ شيء عن عملهِ هذا لكنها كانت تعرف ان الامور لا تسير بشكل جيد هناك على الدوام وانها كزوجة صالحة يجب عليها ان تتحمل نزقهُ وتعبهُ بل وشتائمهُ عندما تسوء الامور لأنهُ لابد ان يعود سريعا الى وضعهِ الطبيعي ويعود الى طبيعتهِ الهادئة والايجابية

والمرحة, وبالفعل اقترب منها بهدوء وقبلها على جبهاتها وسألها

- ارجوكِ, سامحيني ..كنتُ امر بظروف لا يعلم بها سوى الله

ابتسمت بوجههِ واجابت بهدوء

- لا تهتم, اذا لم اتحملكَ انا فمن سيتحملك, ارجو الله فقط ان يرفع عنك كل هم وغم

ازداد اعجاب عزيز كثيرا بأمينة وشعر لأول مرة بالاحتواء وان هناك كائن يحاول ارضائهُ ويريد مصلحتهُ ومن دون أي مساومة او غاية لذلك قرر ان يعوضها فطلب منها ان تغير ملابسها كي يذهبون للسوق, كانت المرة الاولى الذي يطلب منها عزيز ذلك لهذا ركضت وبسرعة غيرت ملابسها قبل ان تجلس بقربهِ في سيارة ال(لادا) روسية الصنع التي كان عزيز يملكها ويتجها نحو السوق.

لم تتصور أمينة انه سيشتري لها كل هذه الكمية من الذهب والملابس, كان يصرف المال بعدم مبالاة ولا ينتظر رأيها بما يشتري لها ويكتفي احيانا بسؤالها بكلمة واحدة

- حلو

- نعم. حلو...اجابتهُ

بعد ان انتهوا من التسوق اخبرها انه يريد الذهاب لزيارة اهلها وانه سيطلب من اخواتها معاودة زيارتها في البيت, اشترى قبل ان يخرجوا من السوق عباءة سوداء لأم امينة وترك امينة هذه المرة تختار الثياب لأخواتها واكتفى هو بدفع الثمن .

عندما وصلا الى بيت عبد الفتاح وجدا الباب مغلقاً, بقى عزيز يطرق الباب لكن احد اولاد الجيران اخبرهم ان ام عطية مرضت فجأة ونقلاها للمستشفى وهذا جعل امينة تصرخُ وتلطمُ وجهها قبل ان تصعد السيارة ويتوجهوا نحو المشفى.

عندما وصلا للمستشفى وجدا عبد الفتاح وهو يبتسم امام باب الغرفة التي ترقدُ داخلها ام عطية, كان الالم يضع اثارا واضحة على ملامحها عندما قال عبد الفتاح بعد ان زادت حدة ابتسامتهِ

- لا تخافوا...ام عطية حامل

لم تشعر ام عطية بمثل هذا الالم من قبل رغم خبرتها الكبيرة في مسألة الحمل والانجاب, هذا الكائن الذي بدأ يحتل رحمها بدى وكأنهُ يحمل سكينا ويمزق احشائها, ينتقل داخلها من عضو الى أخر ويطعنهُ بكل قوة وهذا يجعل الام تتلوى طوال الوقت, حتى ان كل الادوية والمسكنات لم تعد نافعة لإسكات هذا الالم, اكتشفت ايضا ان هذا الالم يأخذ اشكالا غريبة ويصدر وجعا غير معروفا عندما تبدأ الام بإرضاع عطية وحتى مجرد احتضانهِ وبمجرد ان تدفعهُ بعيدا عنها يبدأ يهدأ ويتحول الى نبضات كهربائية تدور على اعضاء جسدها بالكامل وهذا جعل الام تبتعد عن عطية وتكف عن ارضاعه وتسلمهُ لخديجة لتقوم هي برعايتهِ, عبد الفتاح بدى سعيدا وهو يراقب بطنها التي بدأت تكبر بشكل اسرع من المعتاد وهو متأكد ان تلك الساعة الشيطانية التي اختلطت فيه رائحة الخمر برائحة دم شفاه أم عطية واختلطت فيه افرازات مؤخرة هذا الشاب الخنثي بإفرازات اللذة الشيطانية التي استطاع ان يغرزها داخل جسدها هي من كونت هذا الطفل, انها لحظة النشوة والسيطرة الكاملة والتي كانت كفيلة بتحويلهِ الى رجل هادئ مع مسحة واضحة من التكبر واحتقار الاخرين, هذهِ الصفات كانت جديدة في شخصية عبد الفتاح حتى بعد انتماءهِ للحزب وهوسهِ اليومي بمراقبة الاخرين وكتابة التقارير عنهم بمجرد شعوره بشك ولو بسيط من تصرفات احدهم, كانت الاعتقالات قد بدأت تزداد في الحي خاصة بين صفوف

الشيوعيين والاسلاميين وهذا جعل الناس تنتبهُ الى عبد الفتاح وبدأت الاحاديث تتكاثر انه هو وراء كل هذه الاعتقالات وبدأ اسلوبهُ في استدراج الاخرين من خلال الحوار مكشوفا وهذا جعل منهُ وحيدا, يتجنبه معظم رجال الحي وبدأ ينتقل الى طاولة البعثيين في المقهى بعد ان كان يفضل ان يجلس مع الاخرين, الشخص الوحيد الذي كان عبد الفتاح يتجنبهُ هو (حامد جلوب) وحامد هذا كان واحد من اقوى شقاوات المنطقة ويملك عصابة من الشباب والذي يتجنبهم ويخاف منهم الجميع, ورغم مطاردة الحكومة لعصابة حامد جلوب وغيرها من العصابات لكنها كانت سريعا ما تطلق سراحهم ولا تجد فيهم أي خطر ما داموا يكتفون بالصراعات بينهم ولا يحملون أي فكر او مشروع سياسي كما ان اغلب هؤلاء الشباب كانوا من غير المتعلمين والذين تدفعهم رغبات تافهة بالسيطرة على الحي وكانوا يخافون كثيرا من سلطة الحزب والدولة ويحاولون تجنبها دائما كما انهم يعتمدون في صراعاتهم على اسلحة بسيطة منها انواع مختلفة الاشكال والاحجام من السكاكين الصغيرة التي ترتبط بمداليات ذات اشكال مختلفة وجميلة كما ان هناك ايضا (القامات) وهي سواطير كبيرة كانت غالبا ما يستخدمونها في المعارك الكبيرة اما اكثر الاسلحة استخداما فهو ال(بوكس حديد) وهذا يتكون من خمس حلقات تبرز من كل حلقة قطعة مدببة, يضعون هذه الحلقات في اصابعهم ويستخدمون في لكم الخصم وهذا يصنع اثاراً على الوجهِ يصعب محوها وتبقى تاريخا سيئا للشخص الذي نال لكمة او اكثر من هذا ال(بوكس حديد).

كان عبد الفتاح يخاف كثيرا من (حامد جلوب) وهذا الخوف استمر معهُ منذ ان كان يعمل في بيع الخضار في السوق وما كان يسمعهُ عن شراسة وقسوة حامد وهذا جعلهُ يتجنب حامد

ولا يكتب عليه أي تقرير وكان يعرف ان الحزب ايضا لم يكن يهتم كثيرا بشقاوة حامد او يجد فيها أي خطر لكن الشيء الذي لم يكن بحسبان عبد الفتاح او الحزب ان الكثير من ابناء المعتقلين من وراء تقارير عبد الفتاح قد انظموا الى عصابة حامد جلوب واخر هؤلاء هو تحسين ابن ذلك الشيوعي السكير الذي كان يسكن بالقرب من بيت عبد الفتاح والذي كان اول ضحايا تقارير عبد الفتاح..

تحسين كان مثقفا ثوريا, يقرأ كثيرا ويمتلك اسلوب جيد في اقناع الاخرين بما يراهُ ويعتقدهُ وكان يقول لحامد انه يصلح ليكون قائد ثوري وانهُ يرى فيه قائدا كبيرا اكبر بكثير من شقاوة او زعيم عصابة, حامد وبصورة مفاجئة وجد نفسهُ قد تحول من زعيم عصابة الى قائد سياسي ورغم خوفهِ من الدخول الى هذا المنعرج لكن شكل السيطرة وقوة حجة تحسين والجدوى الذي بدأ يشعر بها في كونه زعيم سياسي مما لو انه شقاوة يحتقرهُ الجميع ويخاف منهُ, قال لهُ تحسين ان الجميع سينظرون اليه بحب واعجاب لا بخوف واحتقار كما يحصل الان, هذا جعل حامد جلوب ينتفخ ويهذب من كلامهِ ويتجنب اللغة السوقية التي كانت يتعامل بها مع الاخرين وهذا جعلهُ يلتفت الى تحسين ويسألهُ

- ماذا نفعل
- نصطادُ الحزبيين ..الواحد تلو الاخر ...وأول واحد هذا الكلب ابو عطية. أجابه تحسين

في تلك الليلة تصاعد الالم عند ام عطية حتى وصل الى حد لا يُطاق وبدأ صراخها يتسلل من خلال باب البيت ويصل الى مسامع الجيران, ذهبت خديجة الى بيت عزيز لكنها لم تجد هناك سوى امينة التي وضعت العباءة على رأسها وعادت

مع خديجة لتجد امها في حالة يُرثى لها, فكرت امينة بطلب المساعدة من الجيران لكن خديجة مسكتها من يدها واخبرتها ان بعد ما فعلهُ ابوها بهم فلن تجد من سيساعدها, بعد دقائق صعبة من الارتباك والخوف والألم قررت امينة الخروج الى الشارع العام وتأجير تاكسي ونقل امها للمشفى, عندما خرجت من البيت لمحت نساء المنطقة يتلصصن من وراء ستائر الشبابيك ومن وراء الابواب, كانت الابواب والشبابيك تنغلق بمجرد اقتراب امينه منها, وقفت امينة على الرصيف وهي في حالة ارتباك وخوف فلم يسبق لها ان اجرت سيارة تكسي وصعدت مع رجل غريب وحدها في السيارة, كانت السيارات تمر وهي تحاول ان تعثر على سائق كبير في العمر, اخيرا وبارتباك كبير مدت يدها واجرت السيارة وهي تكاد تبكي.
بصعوبة كبيرة حشرت امينة نفسها مع الام في المقعد الخلفي لسيارة الاجرة بعد ان وضعت رأسها على ركبتها وهي تصرخ وتتلوى من الالم بينما جلست خديجة في المقعد الامامي قرب السائق, نساء الحي تجرأنَ ووقفنَ امام ابواب بيوتهن يراقبنَ المنظر فقط, تحركت السيارة عندها نظرت ام عطية من خلال شباك السيارة الى نساء المنطقة الواحدة بعد الاخرى وكأنها تطلب منهن المغفرة على شيء لم ترتكبهُ, كانت تدرك ان ما فعله عبد الفتاح بالكثير من رجال الحي بحجة انتمائهم الى احزاب وخروجهم عن طاعة الحزب والثورة لا يمكن غفرانهُ رغم ذلك كانت قد لمحت نظرة تعاطف من بعض النسوة لكن لا شيء غير ذلك.
حاولت الدكتورة اخراج الجنين الذي تمسكَ بكلتا يدية وبكل قوة رافضاً الخروج وكلما حاولت اخراجهُ انزلق من بين يديها الى جهة اخرى مسببا الم لا يطاق للأم, بعد عدة محاولات قررت الدكتورة ان تجري عملية فتح بطن لأم عطية, في تلك

الساعة وصل عزيز الى المشفى بعد ان ذهب للبيت ولم يجد امينة وبعد ان اخبرهُ اطفال الحي بما جرى, خرجت الطبيبة وطلبت من عزيز التوقيع على تعهد يمكنهُ من خلالها اجراء العملية, استغرب عزيز وسألها ان هذا الطفل السابع ولم تحتاج الى أيِّ عملية من قبل لكن الطبيبة اخبرتهُ ان الوضع مختلف وانها بدأت تخاف على حياة الام, الحيرة والخوف والقلق وصل ذروتهُ عند البنات وعزيز وهم يشاهدون امهم تخرج من صالة الولادة وتدخل الى صالة العمليات.

في ذلك المساء كان عبد الفتاح قد عادَ من جلسة سمر مع بعض الاصدقاء الحزبيين الذين توطدت معهم العلاقة من خلال المكتب بعد ان تركهُ حمزة وابتعد عنه من دون ان يعرف السبب, هو ايضا لم يسأل او بشكل ادق كان يخاف ان يسأل كما انهُ لم يجد الرغبة الى تكرار حفلة اللواط تلك, عندما نزل من التاكسي امام مدخل الشارع الذي يؤدي الى البيت كان مترنحا ويسحل قدميه بصعوبة, كان قد افرط بالشراب في تلك الليلة مع انه ظلَ صامتا وكان يشعر بعدم رغبة بالكلام طوال الجلسة وكأنهُ ينتظر شيئا ما او يتوقع حدوث شيئا ما.

كان حامد جلوب وعصابتهُ يجلسون في رأس الشارع المقابل ينتظرون منذ ساعات مجئ عبد الفتاح, عندها قرر حامد ان يقوم بالعملية, اخرج مدالية فيها عدد من السكاكين الصغيرة واختار اكبرها حجما وحاول ملاحقة عبد الفتاح لكن تحسين ابن ذلك الشيوعي السكير مسكهُ بقوة وقال لهُ بكل جدية

- دعني افعل ذلك

اعطاه حامد جلوب السكين عندها ركض تحسين وراء عبد الفتاح وبسرعة كبيرة غرز السكين بظهرهِ, طعنهُ مرتين قبل ان يدفعهُ ويسقط على رصيف الشارع.

دم عبد الفتاح بدأ ينزلق على الرصيف ليصل الى مجرى الماء ويسير معهُ حتى فتحة المجاري المخصصة لسحب مياه الامطار, لم يصرخ عبد الفتاح ولم يطلب الغوث لكنهُ استطاع ان يلمح وجه تحسين قبل ان يغمض عينيه عندها بدأت الطبيبة بسحب الطفل الذي تكدست على جسدهِ الصغير الدم والافرازات بعد ان فتحت جدار الرحم ووجدت ان الحبل السري قد التف على قدمهِ اليسرى بطريقة غريبة وكأن شخصا ما لف بهدوء هذا الحبل على قدمهِ مسبباً للام الكثير من الوجع, اطلق الطفل حال خروجهِ صرخة هائلة جعلت البنات ينتبهن وتسود لحظة صمت بعد ان كان الجو مشحون بالكثير من الخوف والقلق والادعية.

لم يدرك تحسين ان يدهُ الخائفة لم تكن قادرة على قتل عبد الفتاح كما انه رأى عبد الفتاح وهو ينظر اليهِ, لام نفسهُ كثيرا لأنهُ كان عليه ان يعود ويغرز السكين في قلبهِ لكنهُ كان خائفا ومرتبكا فهذه هي تجربتهُ الاولى لذلك ذهب مباشرة الى البيت بعد ان اعادَ السكين لحامد جلوب, اخذ حقيبة صغيرة جمع فيها ما يلزمهُ من ملابس ثم توجهَ الى بيت عمهِ في الناصرية متجاهلا صياح امه التي كانت تحاول ان تفهم الامر, بعد دقائق فقط خرج احد الجيران من بيتهِ ليرى عبد الفتاح وهو مرمي على الرصيف وقد غطى الدم ملابسهُ وهذا جعلهُ يركض ويطرق ابواب الجيران الذين تجمعوا بسرعة بينما ذهب احدهم لاستدعاء الشرطة, اهتمام الجيران بعبد الفتاح كان مبرراً فهم يعرفون انهم سيكونون متهمين فيما لو تجاهلوه او انه مات من دون ان يحرك أيَّاً منهم ساكنا, الخوف هنا هو الذي جعلهم يتقافزون لإنقاذ هذا البعثي الذي يكرهونهُ والحقد هو الذي منع نسائهم من مساعدة زوجتهِ التي لم يكن لها أي يد فيما فعلهُ عبد الفتاح, عزيز والبنات انتبهوا الى الضجة التي

حدثت في المشفى وعندما سألوا احدى الممرضات قالت لهم ان رجلاً مطعوناً بسكين دخل للتوّ الى صالة العمليات, عندما افاقت ام عطية من التخدير سألت عن عبد الفتاح وهي لا تعرف انه مُمدد وفاقد الوعي على بعد عدة غرف منها وفي نفس المشفى.

بعد يومين كانت ام عطية قد تحسنت كثيرا والحقيقة انها شعرت براحة كبيرة بمجرد خروج الطفل من بطنها, عزيز عرف في اليوم التالي للحادثة بعد ان ذهب الى بيت عبد الفتاح بتوصية من البنات, اخبرهُ الجيران انهم نقلوه الى المشفى وان الشرطة قد بدأت تحقق في الامر, عندما ذهب الى المشفى وجد عبد الفتاح بحالة جيدة فسكين حامد جلوب لم تستطع الوصول الى أيٍّ من اعضاءهِ الداخلية واكتفت بحدوث جرحين في ظهر عبد الفتاح, عندها اخبرَ عبد الفتاح بولادة ام عطية وانها تنام معه في نفس المشفى هذا جعل عبد الفتاح يقفز من فراشهِ ويذهب لرؤية الام والطفل..

عندما رأي عبد الفتاح الطفل شعَر وان كل جروحهِ قد شُفيت, ها هو اخيراً امام ذكر يشعر انهُ من صلبهِ, اخيرا وبعد هذا العمر الطويل يستطيع ان يشعر بالاطمئنان وبان هناك من يرفع اسمهُ الى الابد, عطية كان ابن امهِ فقط ولم يشعر يوما انهُ ابنهُ, كان شيئا اخرا لم يفهمهُ والافضل ان ينساه بعد ان استقر ابنهُ بين يديهِ, ام عطية التفت اليهِ وقالت لهُ

- هذا الطفل انت من سيسميه

عندها التفت الى شباك المشفى الذي يطل على الخارج, كان الليل مظلما ولا أثر للقمر بينما كانت هناك سحب رمادية تكسر هذه العتمة في السماء, حتى النجوم بدت خافتة وليس لها القدرة على التألق واللمعان, ابتسم عبد الفتاح ورفع الطفل بين يديهِ وقال بهدوء وثقة

- سنسميه سلام

نعم سلام عبد الفتاح

رحلة نوال

(1)

امرأة مثل سميرة ليست من النوع الذي يمكن ان تقابلهُ كل يوم بل انك يمكن ان تعيش عمركَ كلهُ من دون ان تسنح لك الفرصة بلقاء مثل هذه الشخصية المركبة, امرأة جميلة مع مسحة براءة, نشطة ومتحركة ومرحة من دون ان تفقد جديتها او تمنحك الفرصة للتمادي معها في الحوار, تمتلك من الحكمة والمعرفة ما يوحي للمقابل انها تعرف جيدا كيف يسير هذا العالم والى اين يريد الوصول, الشيء الاغرب في شخصيتها هي قابليتها الكبيرة على قراءة كل افكارك ومنذ النظرة الاولى التي تراك فيها, كنت اشعر انها تعرف كل شيء, تعرف انني اعمل عند معتز وانهُ هو من رتب هذه الخلوة معها لاستدراجها لمعرفة قصة النائب سلام عبد الفتاح, الكلب الوفي الذي تمرد على صاحبهِ, كان يعرف ان سميرة وهذا الشيخ الذي يعيش في كوخ مخبوء داخل بستان متروك من بساتين الحلة, معتز كان يشك بان هذا الشيخ لهُ علاقة مع ابيه الشيخ ابراهيم النقي الذي بدأت مقالاتهُ تتصدر الصحف العراقية وتفضح معتز وتشكيلات حزبه الشيطانية لكن الامر بالنسبة اليه كان مرتبكا فلم يتصور ان اختهُ الذي احبها كثيرا وزوجها الكلب الوفي الذي حولهُ من مساعد بسيط له الى نائب في البرلمان سينقلبون ضدهُ, سميرة هي الوحيدة الان التي تعرف ما حدث بعد ان مات هذا الشيخ وبطريقة غريبة وهم يحاولون اجبارهُ على الاعتراف, مات حتى قبل ان يمدوا ايديهم عليهِ, بعدها قتل سلام بالسم واتهموا

زوجتهُ سميرة بانها هي من قتلتهُ, الغريب انني انا الان من علي ان اخبرها بقصتي, الخيارات بالنسبة لي معدومة تماما, فانا متأكدة ان رجوعي لمعتز من دون القصة تعني موتي المؤكد والحقيقة ان موتي مؤكداً حتى لو كنت نجحتُ مع سميرة, انا اعرف ان الحزب نفق بلا مخارج وان هناك باب يصلح للدخول فقط, الروح وحدها هي من ستنجح من الخروج من هذا النفق اما الاجساد الحية فمكانها الوحيد داخل هذا النفق المظلم, لن يمنحني معتز صكَ حريتي حتى لو عرفتُ القصة بل ان معرفتي لهذه القصة سيكون هو سبب لموت مؤكد, الموت هنا في المعرفة وفي عدم المعرفة والمنفذ الوحيد ان اصدق هذه المرأة التي لا يبدو عليها انها ستخلف وعدها, الامر الاخر هو ان هناك رغبة داخلي للتحدث, لقول كل شيء, كل ما مررتُ به وكل الآثام التي اقترفتها والجرائم التي شاركت بها خلال عملي مع معتز, وهذا ما جعلني التفتُ اليها واقول لها

- حسنا ..سأخبركِ بطبيعة علاقتي بمعتز
- لا..اخبريني كل شيء, كل ما حدثَ معكِ, قبل معرفتكِ بمعتز وبعد هذه المعرفة. أجابتني
- لماذا. سألتها
- اسمعيني..انا اعرف انكِ مررتِ بظروف في غاية الصعوبة وانكِ ايضا اقترفتِ الكثير من الخطايا, دعيني اعرف سبب الخطيئة فلكل خطيئة اسبابها, بعضها منطقية وبعضها مجرد نزق وانحراف واظن ان اسبابكِ ستكون منطقية. أجابتني
- حسنا ..اجلسي الان وسأخبرك بكل شيء

تعرفين, اغرب وضع ممكن ان يمرَ بهِ الانسان ان يكون غريبا عن اسمهِ, يسمعهُ وكأنهُ لا يعنيه او ان كائناً اخراً يعرفهُ جيدا هو من يحمل هذا الاسم, يحدث هذا, نعم يحدث عندما نضطر ان نقف امام الناس بأسماء اخرى نتحرك معهم ونكلمهم ونصدق اننا فقط هذه الاسماء عندها يبدأ الاسم

الحقيقي بالاندثار داخل الذاكرة, ننجح في استدعائهِ لمرة او مرتين لكن بعد ذلك هو نفسهُ من يبدأ المعارضة وكأنهُ يبدأ يشعر بالغيرة من كل هذه الاسماء التي تلبسنا لغايات فاسدة.
اسمي نوال, استطيع ان اؤكد ذلك, ان اتذكر انني عشت طورا كبيرا من حياتي بهذا الاسم, نوال ابنة مدرس الرياضيات نوري عباس التي كانت سمعتهُ قد انتشرت في بغداد كلها نتيجة لمعدلات النجاح العالية التي يحققها كل سنة وهو يقوم بتدريس طلاب السادس العلمي, هذه المرحلة تحولت الى مصفاة كبيرة تحدد مصائر الطلاب بعد ذلك, كان رجلا يحظى باحترام الجميع وكانوا لا ينادونهُ الا بكلمة استاذ, كان شخصا عطوفا وجادا ومحباً للأخرين بطريقة غريبة, حتى اكثر الطلاب مشاكسة ونزق كان يتجنب استاذ نوري بالرغم انهُ لم يعتمد في حياته التربوية اسلوب الشدة وبنفس الوقت لم يلغِ الحدود بينهُ وبين الطلاب, وهذا جعل الطلاب يحترمونهُ من جهة ويحبونهُ من جهة اخرى لانهم يدركون آجلا او عاجلا انهُ حريص جدا على مستقبلهم حتى اكثر من حرص اهلهم عليهم.
امي كانت البنت الوحيدة والمدللة عند اهلها مع خمسة أخوة كانوا لا يكفون عن زيارتنا واستشارتها في كل صغيرة وكبيرة مما جعل لها مكانة مميزة انعكست على مكانتها عند أبي وعندنا ايضا, انا واخي مؤيد الذي لمعَ ذكائهُ وهو في المراحل الاولى للدراسة, كانت نتيجته الدراسية لا تخلو من رقم مئة, وكنت أتساءل كيف ينجح دائما في الحصول عليها بالرغم انني لم أكن سيئة بالدراسة ولكن بمعدلات لاتصل الى التسعين, لا اتذكر في طفولتي وحتى في صباي اننا مررنا في يوم ما بأزمة مادية, كان راتب ابي وتدبير امي تجعل الشهر يمر علينا دون ان نحتاج مزيداً من الاموال وفي احايين كثيرة

كانت امي تتلقى مساعدات من أخوالي, كانت ترفض في البداية لكنهم في النهاية يرمون بالأموال على الطاولة ويخرجون ودائما عندما يكون ابي خارج البيت, حتى الحرب والشهداء الذين يلفون توابيتهم بالعلم العراقي بنجماتهِ الثلاث وسرادق العزاء التي تُنصب داخل الشوارع والازقة لم تكن لي سوى مناسبة مميزة للعب غير آبهةٍ بكل صرخات النسوة وبكائهن الذي كان يصدر من داخل البيوت, عندما قتل ابن عمي في الحرب وجدتُ حينها فرصة للاجتماع بأولاد وبنات الاقارب والركض حول السرادق التي تمتلئ بالناس.

اتذكر جيدا عندما تبدأ الشمس تنزوي وتبدأ بأرسال اشعتها الناعمة لتغطي الناس والشوارع وحتى هذه السرادق بلون اصفر باهت عندها تهب نسمات ناعمة تجعلنا نحن الاطفال نشعر بحيوية ونشاط ونحن نتلقف الشوارع ونتقافز بين السرادق الذي يصدر منها صوت عبد الباسط عبد الصمد وهو يجوّد سورة يوسف.

مع دخول الحصار وبعد ايام ممتعة عشناها بلا كهرباء ولا وقود مع قصف الطائرات الامريكية التي تهل علينا بمجرد ان تبدأ الشمس بالغروب, كان ابي يذهب يحمل معهُ فأساً كبيرة للمشتل القريب من بيتنا ليقطع الاغصان اليابسة لكن تلاميذهُ المنتشرون في كل الحي غالبا ما كانوا يقومون هم بالعمل بدلا عنهُ ورغم دشداشته المتسخة فأنهُ يقف وقفتهُ في الصف بالقرب من باب بيتنا الخارجي وهو يقول

- شكرا ابنائي...وبصوته الأجش الذي يعرفهُ الجميع

يبتسمون هم بوجهه قبل ان يبتعدوا, كنتُ اختلس نظرة من خلف الباب وانا ارى الشبان اليافعين بحثا عن حب قد يأتي من مكان ما, حينها تجاوز عمري السادسة عشر وبدأت اشعر بنهديّ يبرزان كرمانتين فلا تمل يدي من ملامسة حلمتيهما

كلما خلوتُ بنفسي, في احدى المرات وبعد ان خرجوا كلهم من البيت وبدون ان افهم لماذا افعل ذلك مددت يدي بين فخذيَّ وبدأت ادعكها بلطف, بدأت اشعر بلذة غريبة تسللت الى جسدي جعلت حركة يدي تزداد دون ان تجرؤ على الغوص في العمق لكنني في لحظة سحبتُ يدي بقوة عندما تذكرت انني ابنة الاستاذ الذي يحترمهُ الجميع وتساءلت كيف اقف امام امي وماذا سأقول لها لو عرفت ذلك بالتأكيد ستكون ردة فعلها مختلفة عن ذلك اليوم الذي اخبرتها فيهِ ان هناك قطرات من الدم بدأت تنزل مني وبشعور غريب من القلق والكآبة بدأ ينتابني قبل ان تتحول هذه القطرات الى بقع حمراء تستقر في منهولة المرحاض قبل ان تنزلق بهدوء الى داخل المجرى, قالت لي حينها انهُ امر عادي, علت سحنة من الخجل والسعادة وجهها وهي تضع يدها على كتفي وتخبرني بفمٍ مبتسم

- لا تخافي. أصبحتِ امرأة الان

عرفتُ بعد ذلك انه ليس هذا الدم الذي جعلني امرأة بل دم اخر مليء بالذل والسفالة وهو الذي حوّلني الى شيطان على هيئة امرأة.

مع اشتعال الحصار الاقتصادي على البلد منتصف التسعينات بدأت عائلة استاذ الرياضيات بالتفكك شيئاً فشيئاً, اخي مؤيد الذي ترك كلية الصيدلة ليعمل في الشورجة كمحاسب عند احد التجار الكبار بعد ان بدأ راتب ابي لا يسد الا جزء قليل من حاجة البيت وامي التي لا تريد ان تفهم ان اشياء كثيرة قد تغيرت وان طريقة الحياة التي كانت تعيشها قبل هذا الحصار لم تعد ممكنة الان, كانت هناك امور ومتطلبات لا يمكنها التنازل عنها رغم صعوبة الحصول عليها الان.

كان مؤيد يذهب الى العمل في الصباح الباكر ولا يعودَ منهُ الا بعد آذان المغرب, حاول ابي العمل معهُ في العطلة الصيفية

وفعلا ذهب معهُ الى الشورجة لكن مؤيد رجع في ذلك اليوم واخبر امي انه سيفقد عمله اذا ما اصر الوالد على الذهاب معهُ مرة اخرى فلم يكن ابي ليفهم هذا الكم من المساومات والمعاملات والاكاذيب والخداع الذي يعج به السوق لذلك انزوى داخل البيت لكن المشكلة الكبرى حدثت عندما اصرت أمي على قبول عرض بعض اصدقاء ابي من المدرسين للعمل في التدريس الخصوصي, كان عليه ان يذهب الى بيوت بعض التجار الكبار او الاغنياء ومنهم من يحتلون مناصب كبيرة داخل الحكومة ويبدأ بتدريس ابنائهم, هي محاولة واحدة رجع بعدها منكسراً ومنزعجاً فقد شعر انهُ فقد كل شخصيتهِ المعنوية امام هذا الطالب الذي منحهُ شعورا بالإحباط الشديد وان مدرس الرياضيات الشهير تحول الى اجير صغير امام هذا الطالب, رفض ابي التدريس الخصوصي وبدأت امي بدوامة من المشاكل والعتب والصراخ لا تنتهي, كان ينفعل احيانا لكنهُ يضطر للصمت امامها في احايين كثيرة, مصرف البيت بالكامل تحملهُ أخي مؤيد فلم يكن راتب ابي يكفي سوى ليومين او ثلاثة فقط, كان مؤيد يخبئ بعض المال بعيداً عن انظار الجميع وبعد اكثر من سنة من عملهِ في الشورجة جمعنا واخبرنا انه قرر ان يسافر وان بقاءهُ هنا لن يجعل منهُ سوى محاسب بسيط عند احد تجار الشورجة, بكت امي كثيرا وعارضتهُ كثيرا لكنهُ كان قد اتخذ قرارهُ الذي لا عودة عنهُ.

بعد شهرين سافر اخي مؤيد, لم تبكِ امي وهي تودعهُ لكنها تحولت الى وحش بحجم حبها لمؤيد وتعلقها بهِ, بدأ ابي بالعمل في بسطية صغيرة للسكائر في منتصف المدينة وبعيدا عن انظار طلابهِ الذي يصادفهم احيانا فيحاول ان يزيح بوجهه بعيدا عنهم, وعندما كان يعود في الليل كان يترك امي تصرخ وتندب حظها من دون ان يتفوه بكلمة, يذهب وينام مثل الميت,

كانت امي تعتبر فشل ابي في الإيفاء بمستلزمات البيت خاصةً بعد رفضهِ التدريس الخصوصي هو السبب الحقيقي الذي جعلها تفقد ابنها مؤيد اما اخوالي فكانت احوالهم لا تسر عدو ولا صديق فقد خسروا اكثر اموالهم بعد ان عملوا بالمضاربة بالعملة في شارع الكفاح وبعد ان تحول مقدار العملة العراقية مقارنة بالدولار والعملات الاخرى يشبهُ الارجوحة التي لا تكف عن الصعود والهبوط ومن دون أي قاعدة اقتصادية واضحة, هذه الفوضى جعلتهم يخسرون اموالهم وينزوون في محلات صغيرة قرب بيوتهم او العمل في اعمال تتطلب جهداً كبيراً وبالكاد كانوا يتدبرون امور حياتهم مما جعلهم لا يزورننا إلا في فترات طويلة, ولم يعودوا يقدمون أي اموال لوالدتي وهم يحتاجون من يساعدهم الان..

في هذه الظروف الصعبة تقدم لخطبتي شاب اردني اسمهُ عصام, اخبرنا انهُ يعمل بالتجارة مع بعض التجار بالشورجة والذي كان يعرفهم مؤيد ويعمل معهم بالرغم من انهُ لم يلتقِ مؤيد ولم يعمل معهُ, اخبرنا انه من عائلة ميسورة الحال هناك في الاردن وهو يعمل في تصدير البضائع الى داخل العراق لمساعدة الشعب العراقي على كسر الحصار, وانهُ يعرف معظم تجار الشورجة, قال انه متعاطف جدا مع الشعب العراقي وهذا جعل تجارتهُ تقتصر على التجارة مع العراق فقط, قال ان العراق له فضل عليهِ وهو السبب الاول في ثراءهِ عندما كان يعمل على نقل البضائع الى داخل العراق في الثمانينات قبل ان يقرر ان يكون تاجرا بعد ان عرف جيداً متطلبات السوق العراقي .

رفض ابي في البداية واخبرهُ انه سيرد له الجواب بعد ان يسأل عنهُ ويأخذ موافقة البنت لكن امي تدخلت بقوة ورحبت به وكانت تبدو انه فرحة جدا بهذه الصفقة..

احلام امي اخذتها بعيدا واعتبرت هذا الشاب الاردني هو المخلص الذي بعثهُ الربّ لينقذهم من هذا الضياع ويعيد ابنها الى احضانها مرة اخرى, هي ستقنع مؤيد بالعودة والعمل مع زوج ابنتها الجديد وربما تأخذ عائلتها وتذهب للأردن فهذا البلد لم يعد صالحاً للحياة, بعد ليلتين من النقاشات وبين اصرار ابي على تأجيل الزواج حتى يتمكن من السؤال والتأكد من صدق هذا الشاب الاردني وبين اصرار امي على استغلال الفرصة التي ربما لن تحصل على مثلها بعد ذلك, لم يسألوني عن رأيِ ابدا والحقيقة انني لم أعارض واخبرتهم انني اريد ان اراه اول مرة..

كان شاب في غاية الوسامة واللباقة يحاول ان يتكلم بلهجة عراقية ليتقرب مني والحقيقة انه كان قريبا من صورة الحبيب الذي اتمناهُ دائما, اخبرني انهُ يقضي معظم وقتهُ في العمل وليست لديهِ خبرة كبيرة مع النساء وانهُ قرر ان يتزوج بعراقية لأنهُ يعرف جيدا ان المرأة العراقية متمسكة بشرفها وعفتها ولم تصل اليها لعنة الانحلال والتطور التي اصابت بلدان كثيرة ومنها الاردن حتى مع هذا الحصار القاسي والحاجة الدائمة فان المرأة العراقية تبقى فوق كل الشبهات اضافة على قدرتها على ادارة شؤون البيت بشكل ناجح وذكي .

قبل يومين من الزواج اخبرني انني سنقضي شهر العسل في احدى دول الخليج, هو ايضا يريد قضاء بعض الاعمال هناك قبل ان نعود لبيتنا في الاردن.

خلال هذه الفترة رجع البيت الى هدوءهِ وتناسقهِ قبل حلول العاصفة, امي بدت فرحة خاصة مع الدولارات التي وضعها بين يديها عصام وكلها من فئة المئة دولار, ابي ترك بسطية السكائر وبدى هادئا رغم ان عدم اطمئنانهِ من هذا الزواج كان

واضحا على الدوام, عصام خلال هذه الفترة كان لا يدخل للبيت إلا وهو محمل بالهدايا منها انهُ في احدى المرات بعث للبيت سيارة محملة بالمواد الغذائية اخبرنا بعد ذلك انهُ يتاجر احيانا بالمواد الغذائية وان هذه جزء بسيط من شحنة تم تنزيلها للشورجة, امي قامت هذه المرة بتوزيع جزء منها على بيوت اخوالي وعندما رفضوا قالت لهم ان هذا جزء بسيط من دين قديم فضحكوا وضحك معهم البيت, طلبت امي مني ان اكلم عصام بعد الزواج على مسألة انتقالهم للأردن وعمل اخي مؤيد معهُ حتى بعد ان نجح في الحصول على لجوء الى استراليا, كنا نعرف ان مسألة عودتهِ شبه مستحيلة لكن امي كانت متأكدة انها ستستطيع اقناعهُ بالعودة اذا ما توفر العمل المناسب والظروف الجيدة.

كان الوداع صعبا ولكنه كان مُحملا بآمال وطموحات كثيرة كان اولها انني اخيرا سأتمكن من الصعود الى الطائرة التي كانت تبدو لي على الدوام عالماً غريباً ملئ بالمشاعر التي تحتاج الى الاكتشاف..

عندما وصلنا هناك واقلتنا سيارة الاجرة الى شقة في احدى العمارات التي لا استطيع ان اخمنَ عدد طوابقها وبعد ان انتهت دهشتي من جمال المدينة, وهيبتها مع هذا التصاميم المذهلة للشوارع والعمارات والجسور اضافة الى جمال الشقة التي سأقضي فيها شهر العسل مع عصام ومستوى الرفاهية العالية في كل ما تحتوي, اخبرني عصام انه سينزل ليجلب لنا شيئا نؤكلهُ...

مضت ساعتان ولم يعد عصام, فكرت حينها انهُ يمكن ان يكون قد تاه في شوارع هذه المدينة لكنني تذكرت انهُ اخبرني انها لم تكن زيارتهُ الاولى لها وانه يعرف شوارعها بشكل جيد وانها مدينة تتميز بالهدوء ومناسبة جدا للأزواج الجدد, عندها

بدأ القلق يتسلل الى روحي قبل ان افاجأ بشخص ما يفتح باب الشقة, تصورتهُ عصام ولكن لم يكن هو, ذهبتُ والتصقت بالحائط لكنه سارع بإخباري ان عصام هو من ارسلهُ وانه لا داعي ابدا للخوف

- اين عصام...اين ذهب. سألتهُ

اجابني انه سيخبرني بكل شيء وانه يجب عليّ ان اهدأ اولا ثم اخرج من جيبهِ لفة من الدولارات ورماها على المنضدة قبل ان يذهب ويفتح الثلاجة ويخرج قنينة كبيرة من الماء ويشرب, بعدها التفت الي وقال لي

- عديهن
- ماذا أعد. أجبتهُ
- الدولارات

كان يتكلم بهدوء وباللامبالاة لكن سؤال واحد كان في رأسي وعلى لساني

- اين عصام. آين ذهب ...متى يعود

اخبرني ان عصام لن يعود ولن أراه بعد الان وان مهمتهُ انتهت عند هذا الحد, عندها ادركت ان عصام كان سمسار نساء وانه يجلب النساء من بلدان متعددة الى هنا, كنت خائفة ومرتبكة ولا اعرف ماذا افعل, هل اهرب؟ هل ابقى؟ تأكدت ان كارثة حلت على رأسي وان يديّ الصغيرتين لن يستطيعا مواجهة كل هذا الجنون, حاولت الركض باتجاهِ باب الشقة لكن ذلك الشاب مسكني من شعري ورماني على الارض وصرخ بي

- الى اين ..

عرفتُ من لهجتهِ انه شاب عراقي اسمر السحنة يبدو عليه الدهاء والقوة, شدَّ قبضتهُ على شعري ثم اقترب من وجهي وقال بصوت هامس انها ليلة دخلتي وانه لا شيء سيتغير ما

عدا عصام, هو الوحيد الذي سيحل محلهُ شخص اخر بعدها يمكنني اخذ هذه الدولارات واعود للعراق, اخبرتهُ انني سأقتل نفسي ولن اسلمها لكم فأجابني انهم هم من سيقتلونني اذا عارضت ذلك ولن يسأل عني احد هنا لانهم دفعوا الكثير من الاموال للحصول عليَّ ولن يدعونني ارحل الا بعد ان يأخذ الشيخ مرادهُ

- أي شيخ...سألتهُ
- ستعرفينهُ اليوم ...اجابني

عندها هدأت وسألتهُ

- ولكن لماذا كل هذا. هل فقدتم النساء هنا

اجابني بهدوء

- لا ..ولكن الشيخ حفظهُ الله لا يحب النساء المستعملات...يريدها جديدة في كل مرة, يفتحها بيدهِ الكريمة

اخبرني انه سيتركني الان, فكري بشكل جيد وتأكدي انهم لا يعارضون موتي اذا اخترت ذلك او ساعة واحدة مع الشيخ واعود لأهلي مُحملة بالدولارات...

بمجرد خروجهِ حاولت ان افتح باب الشقة فكان مغلقا, ذهبت الى النافذة فوجدت نفسي على بعد اربعة طوابق عن الارض فارتميت على الارض وبدأت بالبكاء, ادركتُ حينها انه لا مهرب لدي وانني سأضطر للانصياع لما يريدونهُ...

بعد حوالي الساعة دخلت علي فتاتان واحدة عراقية واخرى لبنانية يحملون حقيبة كبيرة مملوءة بأنواع مختلفة من ادوات المكياج وملابس النوم وادوات لتسريح الشعر, اقتربت مني الفتاة العراقية, اجلستني وكلمتني بهدوء, قالت لي ان اكفَ عن الخوف وانها ستقف بجانبي بشرط ان لا أضخم الامور, هي ساعة واحدة وسينتهي كل شيء وسأعود لأهلي, سألتها ان كانت تستطيع ان تساعدني على الهروب الان فضحكت

واخبرتني ان لا أفكر بذلك وانهم يستطيعون ان يجدوني دائما ويعيدونني الى هنا, قالت لي انها تعيش هنا منذ خمس سنوات وانها كانت تستطيع العودة الى اهلها في أيّ وقت لكن الحياة هنا حلوة ومختلفة اما اهلي فالأفضل لهم ان ابقى هنا وابعث لهم الدولارات في نهاية كل شهر.

اخذتُ الدولارات التي وضعها هذا الشاب العراقي على الطاولة ودسستها في حقيبتي ونظرت اليها وسألتها

- ما هو الشيء المطلوب مني

(2)

في ذلك اليوم تحولتُ الى امرأة اخرى, بائسة ومتعبة وكل ما تأملهُ ان تلقي بجبل الآثام هذا الذي يخنقها من الداخل الى خارجها وبأيِّ طريقة, المهم ان ينتهي هذا الجنون بغض النظر عن الخسائر والمهم الان إرضاء هذا الكائن ذو السحنة الشديدة السمار والأنف بفتحتيه التي تشبهان مغارتين يؤديان الى المجهول والذي بدى وكأنهُ شفطَ كل الهواء في الغرفة منذ اللحظة الاولى التي فتح الباب ودخل فيها, شعور هائل بالاشمئزاز من جسدهِ الاسمر المائل الى السواد ومن شعرهِ الذي تحوّل الى غابة من القرف, ولولا رائحة الخمر التي غطت الغرفة منذ دخولهِ لشممت كل ما يمكن ان اتخيل من الروائح الكريه, ازحتُ بوجهي بعيدا عنهُ كي لاتصل اليهِ هذه الرسالة التي مفادها انني لم أعد أطيق وجودهُ معي في هذه الغرفة, ساعتان من التنظيف والمكياج وعمل تسريحة مناسبة للشعر وتعليمي طرق الغنج والدلال والجنس كلها من اجل هذا العبد الاسود الذي لا يساوي فلسين في سوق النخاسين, كانت الفتاة العراقية قد تكفلت بأعمال ازالة ما تبقى من زغب خفيف في جسدي وبعد ذلك البستني ثوب شفاف مصنوع بمجملهِ من قماش الدانتيلا, هذا الثوب كان قطعة زائدة في المشهد لان جسدي كان واضحا تماما من خلالهِ, الفتاة اللبنانية هي التي وضعت لي المكياج وبطريقة صارخة حتى انني لم اعد اعرفُ سحنتي عندما نظرتُ الى شكلي في المرآة, ابدو كلوحة تشكيلية تساقطت عليها الالوان بشكل لا يمكن تفسيرهُ, بعدها بدأوا بتعليمي ما يجب علي ان افعل منذ اللحظة التي يفتح فيها عليّ الباب حتى تنتهي هذه اللعبة المملة لكنني لم افعل أي شيء من ذلك رغم ان الفتاة العراقية اخبرتني

انهُ سيعطيني لفة دولارات اخرى اذا ما بدى راضيا ومستمتعا, قالت لي هذه الدولارات ستفيدكِ عندما تعودين للعراق, فضحكتُ, قلت لها اعود وماذا اخبرهم, ماذا سأقول لهم, هذا إلا اذا اردت التسبب بموت والدي ووالدتي, ابتسمت بوجهي وقالت لي, من الغد سأخذكِ معي الى شقتي, ابقي هنا لشهر او اثنين ثم ارجعي الى اهلك وعندما يسألونك اخبريهم انكِ لم تتحملي العيش في الاردن وان اخلاق عصام بدت سيئة ويمكن ان تضعين للقصة بعض التوابل مثل ان امهُ كانت امرأة متسلطة ولم تتقبلك منذ اليوم الاول وهي من اقنعت ابنها بتطليقكِ واعادتكِ للعراق, هكذا سيبدو الامر طبيعيا سيحزنون ليوم او يومين لكن مثل هذه القصة تحدث كل يوم وسرعان ما سيتم نسيانها خلال ايام قليلة, اقتنعتُ تماما بكلامها وقررت ان اقوم بالدور بالشكل المطلوب.
رفعتُ رأسي عن الوسادة وحاولت ان ابتسم بوجههِ فلم تكن اكثر من ابتسامة مشوهة يبدو انه فهمها وبدى غير مبالٍ, ذهب الى المغاسل وغسل وجههُ وخلع دشداشتهُ الناصعة البياض قبل ان يعود الى الغرفة, جلس على حافة السرير ثم التفت الي

- ما أسمكِ
- نوال اجبتهُ بصوت هامس

مرر اصبعهُ بهدوء على جسدي وهو يردد
نوال. نوال...نوال
ضغطَ على نهدي قبل ان يرفعني ويخلع ثوب الدانتيلا هذا, وقفتُ امامهُ عارية تماما حينها تذكرت ما اوصوني به, كان عليّ ان اتقدم واخلع ملابسهُ وابدأ بتدليك عضوهُ الذكري ومصهُ, قالت لي انه من المهم ان تلامس حشفة عضوهِ الذكري بلعومي واحاول دائما ترطيب عضوهُ بأكبر كمية من اللعاب لكنني لم أقم بذلك, وقفتُ عارية فقط وجعلتهُ ينتظر حتى ان هذه اللحظات بدت انتصاراً عظيما لي ولكن ليس لوقتٍ طويل لأنهُ رفعني بقوة ورماني على السرير ومن دون

أي مقدمات فتح فخذيّ واوغل عضوه الذكري, شعرتُ ان شيئا ما يتمزق داخلي وان الالم بدأ يأخذ اشكالا غريبة بينما هو يستمر بالصعود والهبوط على جسدي الذي بدى مثل قطعة قماش يستطيع ثنيّها وتطويعها كيفما يشاء, اخرج عضوهُ وبدأ ينظر الى الدم وهو يسيل ويسقط على الملاءة البيضاء التي فرشوها لمثل هذه الغاية, ضحك بصوت عالي, كان يبدو في منتهى النشوة وهو ينظر الى عضوهِ الذكري الذي تحول من اللون الاسود الى الاحمر, ضغط على نهدي بقوة, صفعني على مؤخرتي, قبلني بلسانهِ حتى احسست انني سأبتلعهُ قبل ان يوغل ذكرهُ مرة اخرى ولكن ليس لوقت طويل فقد شعر بإثارة ونشوة جعلتهُ يقذف بوقت قصير في المرة الثانية, لم افعل أي شيء, كنت ممددة كالميت حتى انني لم اتأوه, كنت احاول فقط ان اسيطر على الالم الذي كان كجرح مفتوح تُنثر بداخلهِ حبيبات الملح من وقت لأخر.

ذهب الى الحمام عندها رفعت رأسي ورأيت الدم الذي ملأ قطعة القماش البيضاء تسبح داخلهُ مادة رمادية حولت هذهِ القطعة الى لوحة سريالية كيدٍ تمتد في الهواء وهناك في الافق البعيد تحاول طيور النوارس مغادرة هذا الأفق المظلم نحو افقٍ اخر, اغتسل وارتدى دشداشتهُ البيضاء قبل ان يُخرج من جيبهِ لفة من الدولارات ويرميها على السرير ويخرج.

رفعتُ نفسي بصعوبة من على السرير, دفعتُ الدولارات في حقيبتي قبل ان انسى نفسي تحت ماء الدش لوقت طويل, خرجتُ عارية فلم يكن هناك أي حاجة للملابس, اخرجت كمية كبيرة من الطعام وبدأتُ بالتهامهِ, في تلك الليلة كانت الكوابيس غريبة جدا جعلتني انهض اكثر من مرة مرعوبة كي اشرب كمية كبيرة من الماء قبل ان اعود للنوم, في تلك الليلة رأيت كوابيس اكثر مما رأيت في كل حياتي السابقة,

كوابيس بلا معنى كلهم مروا علي وكأنها حفلة تأبين لا تريد ان تنتهي, قبيل شروق الشمس بقليل احسستُ بتعب شديد فأغمضت عيني ونمت.
في الصباح سمعتُ اصوات وجلبة في الصالة فقفزتُ مذعورة قبل أن ارى من فتح باب الشقة ودخل عليّ هذه المرة, ارتديت ملابسي بسرعة وارتباك خوفاً من ان يفتح علي باب الغرفة ويجدني عارية, خرجت لأجد امامي هذا الشاب العراقي الذي نقل الي بكل ثقة خبر مصيبة عصام اول مرة, ابتسمَ بوجهي وقال لي

- هيا ..اجمعي ملابسك
- خير
- سوف تذهبين لمكان ترتاحين فيهِ

كانت فكرة عودتي للعراق قد الغيتها في الوقت الراهن وقررتُ ان ابقى هنا لشهر وربما شهرين قبل التفكير بالعودة, احسستُ انهم لن يتركوني بسهولة وارضاء هذا المسخ الاسود لم يكن هو نهاية المطاف, ولكن لابأس فانا بحاجة الى المال واذا كنت ضيعتُ شرفي وعفتي فيجب ان لا يكون ذلك بلا ثمن,
ذهبتُ وجمعتُ ملابسي, حشرتها بطريقة عشوائية داخل حقيبة السفر, اغلب هذه الملابس كنت قد اشتراها لي عصام في العراق ايام الخطوبة, حشرَ هو الحقيبة في الصندوق الخلفي للسيارة بصعوبة وقال لي, تعالي اجلسي بقربي, حاولت ان افتح الباب الخلفي للسيارة ولكنه فتح الباب الامامي وأمرني ان اجلس بقربهِ في صدر السيارة.
المدينة فقدت هيبتها لدي وكل هذه البنايات العالية لم تكن سوى اعضاء ذكرية فقدت قدرتها على الحياة, مررنا على حديقة كبيرة, بدت هادئة وجميلة وهي تعجُ بأنواع الشجيرات والورود والنافورات, احسست براحة كبيرة وانا اتأمل هذه

الحياة التي تخلو من البشر سوى بعض الاطفال الذين يتقافزون هنا وهناك, اخيرا وصلنا الى عمارة تم انشاؤها منذ وقت ليس بالقصير, عرفتُ ذلك من انابيب الصرف الصحي التي تتسلق العمارة والتي تراكمت عليها الاوساخ لتغير لونها من الابيض الى الاسمر وفي بعض المناطق الى السواد, في الطابق الثاني فتحنا باب شقة ودخلنا, تتكون هذه الشقة من غرفة للجلوس يستقر في احدى اركانها تلفاز كبير وتنتشر مقاعد خشبية مغلّفة بقماش يبدو انه لم يتعرض للشمس ولم يهتم به احد منذ وقت طويل في وسط الغرفة استقرت منضدة زجاجية شفافة تناثرت عليها قشور الحَب والكرزات وقناني المياه وعلب المشروبات الغازية على جانبي غرفة الجلوس هناك غرفتان للنوم تحتوي كل غرفة على سريرين خلفهما يستقر دولاب ملابس خشبي وثلاجة صغيرة, غرف النوم بدت نظيفة ومرتبة مقارنة بغرفة الجلوس, وضع حقيبتي على احد الآسرة وقال لي ستنامين هنا وهذا هو دولاب ملابسكِ, اخبرني الشاب العراقي انني سأعيش هنا مع فتاتين هنَّ من سيقومن بتعليمي كل ما هو مطلوب, التفت الي وقال

- سترتاحين معهن...انا متأكد....

قبل ان يخرج فُتحت باب الشقة ودخلت فتاتان بملابس غريبة ومكياج على وجوههن وِضعَ بشكل مبالغ فيه يحملان معهما اكياس ملآى بالفواكه والخضر, وضعنَ الاكياس على المنضدة, احدى هاتين الفتاتين كانت طويلة ونحيفة ذات بشرة بيضاء عرفت بعد ذلك انها عراقية وهي من اقتربت مني ومررت يديها بين شعري قبل ان تقول للشاب العراقي

- ها... جاسم...طير جديد
- واصيل ضحى...ما زال خام ولايعرف شيئاً

التفت جاسم نحو الفتاة الاخرى التي كانت ذات بشرة سمراء, قصيرة نوعا ما وممتلئة عرفت من لهجتها انها مصرية وانها اكثر خبرة من ضحى العراقية, كانت ذات خلفية كبيرة وصدر ممتلئ وكانت تبدو متعبة وهي تتثاءب كثيرا

- نادية ..اعتمد عليكِ في تعليمها, اليوم ستخرج للتعلم فقط, أسبوع واحد اريدها بعدهُ قد تعلمت كل شيء....

هزت نادية رأسها قبل ان يتركنا جاسم ويخرج, اقتربت ضحى من وقالت لي

- تعالي نعد الفطور

بينما جمعت نادية كل ما تنثر على الطاولة بكيس ازبال ووضعتهُ قرب الباب, ذهبت انا مع ضحى وصنعنا الشاي والحليب ووضعنا قطع الجبن في صحون اخرجتها ضحى من دولاب المنيوم يضم عدد كبير من ادوات الطبخ

ظل الصمت يعم المكان ونحن نتناول فطورنا قبل ان اقطعهُ واسأل

- ماذا تعملون ..ولماذا في الليل

ابتسمت نادية وقالت لي

- نادي ليلي
- ماذا يعني ..ماذا تعملون في هذا النادي

فزت ضحى ومدت يديها كأنها تحاول ان تطير وقالت

- انا اعمل سفيرة. ألم تسمعي عني

عندها انفجرت نادية بالضحك الذي غطى كل الغرفة وكاد ان يخرج من بين نوافذها الى الخارج قبل ان تقف وتهمس باذني بلهجتها المصرية

- يابنت...نادي ليلي ..لا تعرفي ماذا تعمل النساء في نادي ليلي

اقتربت مني ضحى وقالت لي

- هذا وهذا فقط (واشارت الى ما بين فخذيها ونهدها) من نعمل بهما هناك....فهمتِ الان

عندها قفزتُ وأمسكت ضحى من كتفيها وصرخت بوجهها

- اسمعي ..لن اعمل معكم ..لن اكون مثلكم....افهمي ...انا بنت ناس
- ونحن بنات كلاب مثلا....اجابت نادية

عندها دفعت ضحى يدي عن كتفها وبابتسامة ماكرة بدأت تصرخ

- عو....عو عو...عو....عو عو عو ...

بدات تتحرك بالغرفة وكأنها تطير قبل ان تقرَب فمها من أذني وتهمس

- عو عو...عووووووووو

بعدها عم الضحك واحسستُ بأن الكلام مع بنات الكلاب لا طائل منهُ فهربتُ الى الغرفة واغلقتُ الباب خلفي قبل ان يلف الهدوء المكان كلهُ

دائرة الحيرة والقلق التي لفتني منذ قدومي الى هذا البلد الموبوء بالرفاهية والخطيئة كانت اكبر من ان اتحملها او استطيع التعامل معها وكم الاسئلة والشكوك الذي احتل رأسي جعلني اتقلب طوال النهار دون ان اهتدي الى حل او طريقة للهروب, خاصة بعد ان سلبني جاسم جواز سفري وجعل فكرة رجوعي للعراق غير ممكنة, في حوالي الساعة الرابعة عصرا نهضت ضحى من النوم وبدأت بإعداد طعام الغداء قبل ان تنهض نادية وتبدأ بالغِناء وهي تقوم بإعداد السلّطة, فتحت نادية الباب عليَّ وقالت لي

- هيا...حان وقت الغداء
- لستُ جائعة

ابتسمت واغلقت الباب خلفها وذهبت لتناول طعامها مع ضحى, بعدها بحوالي نصف ساعة فتحت نادية الباب علي مرة اخرى وهي تحمل قدح من الشاي وضعتهُ بقربي وجلست على حافة السرير

- اشربي الشاي على الاقل....قالت لي
- شكرا
- اسمعيني جيدا, نحنُ ايضا كنا بنات ناس لكن العيش في هذا البلد صعب جدا ولن تستطيعي الاستمرار هكذا
- اريد ان اعود الى العراق, اريد جوازي فقط

ابتسمت قبل ان تقول لي

- افهمي ارجوكِ...لن يعيدوا جوازكِ لكِ. كما ان جاسم هذا مجنون وسيجبركِ على العمل
- لن يستطيع وافضلُ الموتَ على عمل كهذا ...قلت لها
- يعني ..لن تذهبي معنا للنادي
- لا. لن اذهب. أجبتها بقوة واصرار

تركتني نادية وخرجت من الغرفة بينما احسستُ بقوة وبأنني اتخذت القرار النهائي بعدم بيع نفسي حتى اذا كلف ذلك حياتي, كنت ادرك ان موافقتي تعني سقوطي النهائي وانني سأدخل النفق الذي لن يمكنني الخروج منه بعد ذلك, وان موقفي هنا هو من سيحدد حياتي كلها بعد ذلك, المهم انني لن اكونَ نسخة من ضحى ونادية ومهما كلف الامر.

بعد حوالي الساعة دخل جاسم عليّ وحاول اقناعي بهذا العمل, قال لي انني سأعمل لفترة معينة, عدة اشهر فقط, على الاقل نستطيع تعويض الاموال التي صرفناها عليكِ خلال هذه الرحلة وبعدها سنعطيكِ الجواز وانتِ تقرري ما تشائين, اخبرتهُ انني لن اعمل كعاهرة وانني استطيع ان اقوم بأيِّ عمل اخر حتى ذلك الوقت...اما ان اتحول الى قحبة فالموت سيكون

ايسر لي كثيرا عندها تغيرت ملامح وجهه, بدى اكثر جدية وهو يقول لي

- ستعملين
- على حياتي...اجبتهُ

فلطمني على وجهي بقوة سقطت على إثرها على الارض وبدأ يكيل الي الشتائم قبل ان يشد شعري بقوة ويقترب مني ويهمس

- ستعملين. عاجلا او آجلا. ستعملين

دفع رأسي بقوة وخرج

ثلاثة أيام, يدخل عليَّ في كل يوم ويحاول اقناعي وقبلها نادية وضحى قامن باللازم لتحويلي الى عاهرة من دون جدوى, رغم الضغط الهائل ولكنني كنتُ اشعر بقوة هائلة وبدى لي ان ما يقوم به جاسم من ضرب وشتائم اقل بكثير مما توقعتهُ, في اليوم الثالث كان صبرهُ قد بدأ ينفذ لذلك ضربني بقبضة يدهِ بقوة جعل رأسي يترنح واسقط ليرتطم رأسي بالأرض بقوة جعلتني افقد الوعي وبدأت الدماء تتسلل من رأسي الى بلاط الغرفة.

فتحتُ عيني لأجد رأسي تحول الى ضمادات بيضاء وضحى تقف تتأملني وكم الحيرة والقلق بادي على محياها, كانت الضمادات تضغط على جمجمتي بقوة وألم هائل يرتطم برأسي ومن جميع جهاتهِ, نظرة غريبة ملؤها الاعجاب بانت على وجهِ نادية والتمعت في عينيها كلمات او ربما نوع من الشكر لأنني حققتُ لها ما أرادت هي فعلهُ على الدوام ولم تجرؤ على ذلك.

في اليوم التالي اخبرتني نادية انها استطاعت إقناع جاسم ان يتركني اعمل في المطبخ بعيدا عن الصالة التي كانت تتعالى فيها اصوات الاغاني وتهتز فيها الاكتاف وفيها تتم عمليات

المساومة مع البنات التي يقمنَ هنَّ عادة بإغراء كل من يدخل للنادي.
بعد أيام بدأتُ العمل في مطبخ النادي, يبدأ العمل هناك من الساعة الرابعة عصرا وينتهي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلا انهُ لا يسمح لنا بالعودة الا بعد الساعة الثالثة, عمل مرهق ملئ بروائح المأكولات لكنهُ ايضا تقليدي ويجعل المرء يختلي بنفسهِ وهو يقطّع اكوام الخضار واللحوم التي تتجمع امامهُ قبل ان يأخذها الطباخون ويرمونها في قدور كبيرة رغم ان صوت الموسيقى والغناء والهرج داخل الصالة كان يصل الى المطعم خاصة بعد منتصف الليل, كانت نظرات جاسم لا تخلو من الحقد والاعجاب في نفس الوقت وهو يراقبني من خلال زجاج باب المطعم الخارجي وربما اكون انا الوحيدة التي استطاعت هزيمتهُ ولم يستطع اجبارها على العمل في الصالة, بعد شهرين جاء جاسم واعطاني ستمائة دولار قال لي انهُ راتبي للشهرين السابقين وانني سأتقاضى ثلاثمائة دولار كل شهر كما اخبرني ان دوامي سينتهي في الساعة الواحدة ليلا ولا داعي لبقائي الى الساعة الثالثة, رجوعي من العمل في الساعة الواحدة جعلني اقضي معظم ساعات النهار وانا اتجول في الحديقة القريبة من العمارة التي اسكن بها, هذه الحديقة ورغم كبر مساحتها كانت شبه فارغة على الدوام, احيانا يأتي اليها بعض الاطفال واحيانا ارى ناس من جنسيات مختلفة يجلسون في مقاعدها المنتشرة في ارجائها, كنت اتأمل هذه الحياة البريئة التي لا تدري ماذا يدور خلف الابواب المغلقة للمدينة, اتأمل آذان الجوامع لصلاة الظهر واندفاع المصلين نحوها وخروجهم وهم يتوادعون, كان الالم داخلي ما يزال كبيراً ورغبتي بالعودة الى اهلي بدأت تتسع وتجعل الدموع تتسلل من بين جفوني غصباً عني فأردها بكم قميصي

واحيانا اتركها تحفرُ ممرات على خدودي عندما اشعر انهُ لا أحد قريب مني.
فجأة وقف امامي شاب ابيض الوجه يميل للشقرة مع شارب صغير يرتمي على شفتين ناعمتين وشعر اشقر, كان يبدو وسيماً وواثقاً من نفسهِ وسألني بهدوء وبلهجة عراقية واضحة

- تسمحي لي بالجلوس
- تفضل
- انتِ عراقية
- نعم. ولكن كيف عرفت
- لا أعرف. شعرتُ بذلك...الدم يحن

تأسف مني وقال لي انه كان يجلس في مقعد امامي وانهُ لا يعرف حقا كيف تجرأ على طلب الجلوس بقربي, ابتسمتُ بوجههِ واخبرتهُ

- انت قلتها...الدم يحن
- نعم. اسمي احمد
- نوال. أجبتهُ بابتسامة

لم يسألني عن شيء لكنه حدثني عن نفسهِ, قال لي انه جاء الى هذه المدينة منذ عدة ايام في عمل وانه سيبقى هنا ربما اسبوع او عشرة ايام, قال لي ربما اراكِ مرة اخرى, قلتُ لهُ انني سأكون هنا كل يوم, استمرت لقائتنا بعد ذلك وبشكل يومي, قال لي انه يعيش في سوريا وانه يحلم بالعودة الى العراق لكن, صمت قليلا بعدها استدرك وقال من دون ان يرحل هذا الملعون فليس هناك عراق وسنبقى مشردين في ديار الله, وافقتهُ قبل ان يبدأ يحدثني عن ذكرياتهِ في بغداد, فجأة صمت قبل ان ينظر في عيني ويسألني, هل انتِ مع اهلكِ هنا, اجبتهُ بالنفي ومن دون ان اشعر بدأت اقص عليه حكايتي كلها, كان لونهُ يتغير ويبدأ يضرب على فخذهِ وهو يصرخ

- كلاب ...عديمو الغيرة والشرف

سألني ان كنت استطيع الحصول على جواز سفري فأخبرتهُ ان هذا غير ممكن ولن يسلموني جواز سفري إلا بعد ان يستهلكوني تماما وان جاسم ما زال بين فترة واخرى يحاول اقناعي بالنزول الى الصالة وترك المطبخ, عندها نظر الي وبجدية كبيرة قال لي

- انظري...سأحلق شاربي هذا اذا لم انقذكِ من هؤلاء الكلاب

غيرتهُ وجديتهُ اذهلتني حقا بالرغم من انني لم أكن واثقة انهُ يستطيع ان يفعل شيئا, سألني ان كانت اوراقي الثبوتية من جنسية وشهادة الجنسية ما زالت بحوزتي فأخبرتهُ انها معي بعد ان اصرت امي وضعهن بكيس صغير وزجهن بين الملابس, قلت لها حينها ان الجواز يكفي لكنها قالت لي خذيهن قد تكوني بحاجتهن هناك, قال لي انه سيجري اتصالاتهُ وسنلتقي بعد يومين, وبالفعل التقينا بعد يومين وقبل ان افتح الحقيبة واسلمهُ الاوراق الثبوتية ذهبنا الى مصور في الشارع القريب, صنع لي صور صغيرة من النوع التي تستخدم في المعاملات الحكومية وضعها مع الجنسبة وشهادة الجنسية في كيس ودفعها الى حقيبة صغيرة يحملها, بعدها اخبرني انه سيعود الى سوريا غدا وانهُ سيعود الى هنا بعد اسبوعين او ثلاثة ومعهُ جواز سفري بعد ان اخذ مني رقم تليفون الشقة.

مضى شهر كامل, كنت اجلس فيه يوميا في الحديقة اترقب قدومهُ بلا جدوى, في ذلك اليوم أصابتني كأبة شديدة بعد ان ادركت انني ضيعتُ هذه المرة اوراقي الثبوتية بعد جواز سفري, ولم يكن احمد سوى وهم جميل استمرَ لمدة شهر وانتهى الان, كان يوم عمل متعب وممل وبالكاد انتهى, وصلتُ للشقة في حوالي الواحدة والنصف وقبل ان اغتسل من رائحة الخضروات واللحم رن جرس الهاتف, كان احمد على

الجانب الاخر, اخبرني انه عاد بجواز سفر لي واننا سنسافر غدا, وطلب مني ان نلتقي غدا في الساعة الثامنة صباحا في الحديقة نفسها حيث ان طائرتنا ستقلع في الساعة العاشرة, سألتهُ الى أين, اجابني الى سوريا ومن هناك الى العراق بالطريق البري.
ذهبتُ بسرعة, جمعت بعض ملابسي الضرورية ووضعتها بحقيبة صغيرة من النوع الذي يمكن حمله على الظهر, اخرجت ما جمعتهُ من دولارات كنت املك ست وعشرون ورقة من فئة المائة دولار, احسستُ انه مبلغ تافه فقررت ان احمل معي ما بجعبة ضحى ونادية من دولارات, فتحتُ دولاب ضحى بسكين المطبخ وبحثتُ عن ما تملكهُ وجدت انها تضع اكثر من مئة ورقة في حقيبة صغيرة, اخذتها ووضعتها مع ما املكهُ وحاولت فتح دولاب نادية لكنه كان مقفلا بشكل يصعب فتحه بسكين المطبخ لذلك تركتهُ, وضعت الحقيبة تحت السرير وحاولت ان انام بعد ان وضعتُ المنبه عند الساعة السابعة.
لم أنم في تلك الليلة وكنت اراقب طلوع الفجر بشوقٍ كبير, ذهبتُ اكثر من مرة وصنعت لي طعام, شاي, قهوة, وهذا الليل لا يريد ان ينتهي, اخيرا وفي حدود الساعة السابعة صباحا دفعت الباب وخرجتُ, ذهبتُ الى الحديقة وجلستُ انتظر هناك احمد, قبل الساعة الثامنة بربع ساعة جاء احمد, نظر الي وقال, كنت تعتقدين انني لن اعود, اجبتهُ نعم لكنك عدت وهذا هو المهم, مسكَ يدي وقال لي هيا, سارت الامور بصورةٍ طبيعية في المطار, كنتُ خائفة من ان يكتشفوا جوازي المزور, لكنهم ختموا الجواز قبل تسليمهِ الي ومن دون ان يشكوا بأيِّ شئ.

في دمشق قابلتُ معتز للمرة الاولى وذلك بعد وصولي بيومين عندما اخبرني احمد ان الاستاذ يريد رؤيتي, سألتهُ من هذا الاستاذ فقال لي انهُ مقرر الحزب معتز, مناضل كبير ضد الديكتاتورية ولهُ تاريخ نضالي يعرفهُ الجميع.
في ذلك الوقت بدأ يتسللُ الى داخلي شعور غريب تجاه احمد, في الطائرة في طريق عودتنا الى سوريا احسستُ بأنفاسهِ الدافئة, تمنيتُ حينها لو مدَ يدهُ وتناول يدي وحتى ان يقبلني لكنه لم يفعل شيئا, كان غاية في الرزانة بالرغم انهُ كان بين الحين والاخر يسرق نظرة لكنها نظرة قصيرة بمجرد ان احاول الامساك بها تنفلت مني الى جهة اخرى, كان شيئا غريبا قد اشتعل داخلي وحولّني الى كائن من رغبة كل ما اطلبهُ هو رؤيتهُ من جديد لأنه بمجرد ان اوصلني الى الشقة التي تقع في عمارة جيدة البناء ذهب ولم أرهُ الا اليوم عندما اخبرني ان الاستاذ يريد رؤيتي, عندما دخلتُ الى مكتب معتز الذي يقع في الطابق الرابع من عمارة تبعد عن مكان اقامتي حوالي ثلاثة او اربع شوارع ابتسم وقابلني بترحيب كبير قبل ان ينادي على الفرّاش الذي يسميه (الحجي)

- ماذا تشربين
- شاي. أجبتهُ

كان تصرف معتز مع الحجي ينّمُ عن بساطة شديدة وهو يطلب منهُ ان يجلب لنا قدحين من الشاي, سألني ان كنت بحاجة الى أي شيء هنا, شكرتهُ وقلت لهُ ان احمد لم يقصّر معي بأيّ شيء, اخبرني انهُ حزين جدا لما حدث معي وان احمد اخبرهُ بقصتي وهي قصة الكثير من العراقيين الذين شردتهم السياسة الغبية لهذا الملعون, قال لي انهُ يوميا يسمع قصة عن عذابات العراقيين داخل وخارج العراق وان مهمتهُ الاولى هو مساعدة العراقيين في كل مكان, هذا هو هدفنا حتى

يأتي اليوم الذي يتخلص فيه العراق من هذه اللعنة, وفي هذه المهمة فهو بحاجة لكل الشرفاء الذين دمر حياتهم حكم هذا الديكتاتور لكننا ايضا لانجبر احدا فهذا خيار شخصي ومن يُريد العمل معنا عليه اولا ان يملك الدوافع لذلك, قال لي انه سيساعدني حتى اصل الى بيتي في بغداد سواء وافقت على الانضمام للحزب او لم اوافق وفي حالة موافقتي فأنهم سيتكفلون بكل مصاريفي هنا في سوريا ومصاريف اهلي في العراق وطلبَ مني ان افكر بالموضوع بهدوء قبل ان ارد عليه, كان يردد كثيرا كلمة (أخيتي) وهو ينادِيني (شوفي اخيتي, والله اخيتي, على راحتج اخيتي) هذهِ الكلمة منحتني احساس بالأمان واصبح معتز قريب مني بشكل كبير, شكرتهُ ووعدتهُ انني سأفكر بالأمر بكل جدية وسأرد عليه في الغد, كان احمد ينتظرني خارج المكتب, طلبَ مني ان يوصلني للشقة فوافقتُ, في الطريق دعاني لتناول الغداء في مطعم يعرفهُ, قال لي انه يقدم اكلات سورية طيبة جدا, اكتفيتُ بهز رأسي وابتسامة خفيفة, تغدينا وبدوتُ حينها مرتبكة حتى انني لم اتناول سوى بعض السَلطة وقنينة من العصير البارد, خرجنا من المطعم, كان احمد على غير عادتهِ جريئا ومرحاً ويبدو عليه الاطمئنان والفرح, دعاني لدخول سينما مررنا عليها بالقرب من المطعم فوافقتُ, اعجبتني جدا فكرة الدخول للسينما خاصة مع احمد, كان الفلم رومانسي تتخللهُ الكثير من القبل والمشاهد المثيرة عندها اشتعلت داخلي رغبة قوية جعلت شفتيَّ تحتك الواحدة بالأخرى وهو يتأملني اكثر مما ينظر الى الفلم, كنت اتمنى ان يمدَ يدهُ ويتناول يدي لكنه لم يفعل, عندما خرجنا من السينما كنت قد تحولتُ الى كتلة من الرغبة تمنيت لو ألقي برأسي على كتفهِ واتناول شفتيه بقبلة لا تنتهي, التفت الي وقال انه يريد ان يحدثني بموضوع اذا لم امانع اجبتهُ

لابأس, كانت الشمس قد بدأت تنزوي وهي ترمي بظلالها لتغطي جزء من الشارع الذي تقع فيه الكافتيريا التي دلفنا اليها انا واحمد, بقى صامتا لفترة بدت طويلة وهو يتأملني وهذا جعلني اسألهُ

- ماذا. ما الموضوع احمد

فاستجمع قواهُ واخبرني انه يريد الزواج مني حتى انه كان يرغب بي منذ اللحظة الاولى التي رآني فيها في تلك الحديقة لكنهُ ارادني ان استقر قبل ان يخبرني برغبتهِ تلك, أرتبكتُ كثيرا حينها فلم أكن اتصور ان احمد سيطلب مني ذلك خاصة بعد كمية الصد الذي رأيتهُ منهُ منذ ذلك اليوم الذي وقف امامي في تلك الحديقة, اخبرتهُ انني مررتُ بتجربة صعبة فقدتُ على إثرها عذريتي وانت رجل تستحق امرأة افضل مني, امرأة لم تُغتصب من قبل ولم يتلاعبوا بحياتها بهذهِ البشاعة, لكنهُ مدَ يدهُ على فمي فلامست شفتيّ وقال لي انسي كل هذا ارجوكِ, ارميهِ كما ترمين أي قذارة في سلة مهملات, انا احبك وهذا وحدهُ يغفر كل الذنوب واريدك زوجة تعيش معي ما تبقى من العمر, كما انني احتاج الى امرأة تفهم طبيعة عملي وتتحمل هذا العمل الغريب, ثم صمت وبدأ يتأمل وجهي قبل ان يمدَ يدهُ لتحتضنَ يدي قبل ان يرفعها ويقبلها ويقول لي بهدوء. آنا احبك ..افهمي ارجوكِ.

احسستُ حينها بدفأ غريب يتسلل الى روحي ويحوّلني الى كتلة من الرغبة لكن وبصورة غير ارادية سحبتُ يدي ثم استجمعتُ قواي وقلت له بالجدية اللازمة

- احمد حقيقة لا اريد ان اظلمكَ معي, انا ضائعة ولا اعرف ما تخبئ لي الايام اذا كنت ستؤكد لي انكَ ستكون معي حتى اخر يوم من حياتي فاستطيع ان اخبركَ انني اريدكَ ايضا وربما بشكل اكبر بكثير مما تتصورهُ لكنني خائفة, ولا اعرف نهاية

كل هذا, عندها نظر في عيني وقال لي سأكون معكِ حتى الموت اعدكِ بذلك ثم تناول يدي فتركتها بين يديهِ قبل ان تعلو شفتي ابتسامة الرضا والقبول.

(3)

أخيراً تمنحني الحياة روعتها وجمالها, شهران مع احمد كانتا بمثابة رحلة سياحية الى الجنة وكأن الربّ يعوضني عن كل ما عانيتهُ في الفترة السابقة, احمد ذلك الملاك الذي يمكنهُ ان يستوعب أيَّ امرأة ويحولها الى كائن عاشق بكل ذرة من ذرات كيانها, بكل خلية من خلايا جسدها, الشيء الوحيد الذي بدأ يعكر صفوَّ هذه الحياة هو اسلوب الاستاذ الذي كان يدرّسنا في الدورة المكثفة التي دخلتُ بها بعد ان وافقتُ للانضمام للحزب الذي يترأسهُ معتز والذي يلعب فيه احمد كل الادوار الباقية, تتمحور هذه الدروس حول كيفية الحصول على المعلومة من الناس التي يحتاجها الحزب من خلال حوارات عادية في اماكن متفرقة وبطرق متنوعة بعد افتعال لقاء مع الشخص الذي يملكُ هذه المعلومة والتي يتم نقلها بتقرير مكتوب الى مركز القيادة في الحزب, في الشهر الثاني بدأنا نتعلمُ كيفية استدراج الاشخاص انفسهم, الاشخاص الذين هم في العادة اعداء للحزب او يمتلكون معلومات يحتاجها الحزب ومن غير ممكن الحصول عليها بالطرق العادية لاستحصال المعلومة, بدى المدرس هنا جريئاً وهو يشرح لنا ما علينا القيام به لكسب ود وثقة الاشخاص المرصودين مُسبقاً, اغراءات, خبث انثوي على اعلى مستوى تسبقهُ ايحاءات الجسد والتركيز على المناطق الاكثر اثارة في جسد المرأة, كانت هذهِ الطرق تختلف باختلاف الاشخاص, العمر, الشخصية, الالتزام الديني, البيئة والعائلة والاصدقاء, كل هذه الاشياء يجب ان يتم معرفتها ودراسة الشخصية المرصود قبل معرفة الطريقة الصحيحة للتعامل معهُ.
كنتُ اخبر احمد وابث لهُ شكوكي وارتيابي وخوفي من اسلوب الاستاذ فيخبرني انها معلومات فقط وانها دورة تثقيفية وكل من ينضم الى

الحزب يجب ان يتعلمَ كل هذه الاساليب الذي تستخدمها في العادة مخابرات الديكتاتور حتى لا يقع في شراكهم, طلب مني ان استوعبَ واحفظ هذه المعلومات دون التفكير بما ورائها ولا أدعها تخرب روعة الحياة التي نعيشها, كان يدعوني للخروج, نجوب في شوارع دمشق وربما نأخذ طعام العشاء في احدى مطاعمها قبل ان نعود للشقة وبمجرد اقفال باب الشقة خلفنا يتناولني بالقبل ويحوّلني الى عصفورة صغيرة بين يديهِ يفعل بها ما يشاء, في الشهر الثالث قَلتْ المحاضرات واكتفوا بمحاضرتين فقط احدهما سياسية يقدمها لنا معتز بنفسهِ ايام الاحد واخرى دينية يقدمها لنا شيخ يسمونهُ شيخ تواب ايام الاربعاء, لم اكن افهم اشياء كثيرة من محاضرة معتز, لكن هناك كلمة بدأت تتكرر كثيرا في كلا المحاضرتين وهي (المذهب) فكل هذا الهوس هو من اجل تدمير المذهب, كل العالم لاهمَ لهُ سوى تدمير المذهب, كانت محاضرة معتز تتكلم عن الكثير من المؤامرات التي استطاع المذهب عبورها بفضل سياسة شيوخ وعلماء المذهب وبفضل هذا الحزب الذي كان شوكة بعين كل يحاول ان يسئَ اليهِ ابتداءً من الديكتاتور حتى اصغر عدو لله ودينهِ, اما محاضرة الشيخ فكانت تركز على ان مذهبنا هو المذهب الذي يمثل الدين الحق وعلى اننا نحن فقط الفرقة الناجية بينما سيكبُ الله باقي الفرق والمذاهب على وجوههم في نار جهنم, الكثير من الآيات والاحاديث والروايات التاريخية التي كنت اسمعها لأول مرة جعلتني في حالة حيرة حقيقية فالحقيقة انني طوال حياتي كنت متدينة, اصلي واصوم واقرأ القرآن وازور الاماكن المقدسة لكنني لم افكر في يومٍ ما بهذهِ الطريقة, ابي ايضا لم يخبرني في يوم ما اننا ضمن مذهب يتعرض لمؤامرة كونية طوال عمر الزمن, الحقيقة انني لم أرَّ في حياتي هذا العدو, ربما كنت مغفلة ولا اعرف ما يدور في هذا العالم, المهم انني الان اعيش حياة جميلة مع احمد واصدق كل ما يقوله معتز وهذا الشيخ ما دام احمد يريدني ان اصدقهم, بعد حوالي شهر من نهاية الدورة اخبرني احمد ان اتصل بأهلي في العراق

واخبرهم انني سأكون عندهم الاسبوع القادم, سألتهُ ماذا سأقول لهم لو سألوني عن عصام, قال لي قولي لهم انكِ بخير الان وانك ستخبرينهم بكل شيء عندما تصلين للعراق, عندما دفع سماعة الهاتف اليَّ ارتبكتُ كثيرا, لم اكن واثقة بعد انني قادرة على هذه المواجهة لكن صوت امي جاء متعباً ومنكسراً وغير مفهوم, صرخت (يمه نوال) وبكت, كنت اسمع صوتها المرتجف وتشنجات بكائها عبر سماعة الهاتف لكنني وبصوبة استطعت تمالك نفسي وصرختُ

- امي ..ما الذي جرى. ما بكِ...اخبريني ارجوكِ

عندها هدأت وقالت لي لا شيء, اشتقنا لكِ كثيرا فقط, احسستُ ان مصيبة كبيرة قد حصلت هناك وحاولتُ ان اسألها لكنها حولت الحوار وسألتني عن حالي مع عصام, اجبتها انني بخير الان وعندما اصل الى بغداد الاسبوع القادم سأخبركم بكل شيء, صمتت قبل ان تقول لي(هلا يمه) وتغلق سماعة الهاتف..

وضعتُ سماعة الهاتف ولم انبس بكلمة واحدة طوال الطريق حتى وصلنا الى البيت وبمجرد ان فتحت الباب ودخلت انفجرتُ بالبكاء, كنت اعرف ان الاوضاع هناك تزداد سوءً وان مصيبة قد حلت, احمد وقف قليلا وجعلني ابكي قبل ان يمسكني بقوة ويقول لي, نوال ارجوكِ لا تهتمي, الامور ستتحسن انا اعدكِ بذلك, عندما نصل اليهم الاسبوع القادم سيتغير كل شيء, نوال حبيبتي انا بلا اب وبلا ام سيكونون هم ابي وامي وعائلتي وستسير الامور بشكل جيد, اعدكِ بذلك, لم يكن احمد متأكداً من عودتهِ معي الى بغداد, لكنهُ قبل يومين من موعد رجوعنا الى بغداد اخبرني انه سيعود معي فهناك ما يجب القيام به الان وان الحرب على الابواب وايام هذا الطاغية في نهايتها, سألتهُ ان كانت عودتهُ تحمل أيَّ خطر عليه فأخبرني الان ليس هناك ما أخشاه فهذا المعتوه محتار

بنفسهِ الان, وهذا هو الوقت الصحيح للعودة وترتيب الامور بانتظار اعلان نهاية الديكتاتور..
عدنا الى بغداد عبر الطريق البري بعد ان اقلتنا سيارة نوع (GMC) برفقة عائلة عراقية تتكون من الاب والام واربعة اطفال, كان هناك ايضا رجل يجلس في صدر السيارة قرب السائق, كان السفر متعبا ووقفنا اكثر من مرة, للأكل او للصلاة او للتزود بالوقود, اخيراً وصلنا الى كراج النهضة ومنها اخذنا سيارة اجرة الى البيت, بمجرد ان دلفت بنا السيارة الى الحي الذي قضيتُ فيهِ معظم سنوات حياتي شعرتُ بأمان غريب وكأنهُ لا مكان في العالم آمنا سوى هذا المكان, وقفت السيارة امام باب بيتنا, نزل احمد بينما بقيتُ انا جالسة وكأن شيئا ما يمنعني من الدخول الى هذا العالم, الى هذا البيت الذي عشتُ بهِ معظم سنوات حياتي, كنتُ اتوقع ان اشياء كثيرة حدثت وكان علي ان اكون مستعدة لمعرفتها, اخير تحاملتُ على نفسي ونزلتُ, كان احمد قد اخرجَ الحقائب من صندوق السيارة الخلفي ورماها امام باب البيت, انتظر احمد ان اطرق الباب لكنني لم افعل فاضطر هو لطرق الباب, دقائق او دهور لا اعرف, كانت رغبتان غريبتان تنتابني رغبة رؤية امي وابي ورغبة اخرى تقول لي عودي فلا داعي للعودة وان ما موجود خلف هذا الباب الكثير من الفواجع والاسرار, اخيراً فتحت امي الباب على غير العادة, كنت اتوقع ابي هو من سيفتح لي لكنني وجدتُ امامي فجأة, امرأة مسنة, متعبة وبالكاد تقدر على الوقوف, ارتميت بحضنها ولم اقل كلمة واحدة لكنها ما لبثت ان دفعتني وهي تسألني عن احمد

- من هذا
- زوجي احمد

- ها...كيف
- تعالي وسأخبركِ بكل شيء

تركتها وركضت الى الداخل وانا اصيح

- ابي...ابي..لقد عدتُ..

بحثت عنه في كل غرف البيت لكنهُ لم يكن موجودا فعدتُ الى امي وسألتها

- اين ابي؟ ..الا يعرف انني قادمة ..اين ذهب

امي وقفت عند باب الغرفة من دون ان تقول شيئا, سألتها مرة اخرى لكنها لم تجب ..اخيراً اندفعت وجرتني من يدي وقالت لي ..تعالي ارتاحي الان, لكنني دفعتُ يدها وسألتها بقوة ..اين ابي...استاذ نوري اين...اين ذهب, صمتت قليلا قبل ان تفرَ دمعة من عينيها وتحتضنني بقوة, فدفعتها عندها ادركت ان ابي قد مات, مات وانا هناك, مات حتى من دون ان يودعنا انا واخي مؤيد, مات؟, سألتها فهزت رأسها عندها اندفع الحزن من كل جوانبي, الحزن الذي خبأتهُ طوال هذه الرحلة على امل ان تبددهُ يد ابي وهي تحضنني مرة اخرى, صرخت بأعلى ما استطيع

- بويه.....استاذ نوري ..انا عدت, عدت بويه ..بويه

قبل ان اسقط

الاشياء التي انكسرت داخلي نتيجة موت ابي اكبر من كل الاشياء الاخرى حتى اكبر من عذريتي الذي فظها ذلك الشيخ ذو المنخرين الكبيرين والتي اشعر بالاختناق كلما تذكرتهما, بقيتُ طوال النهار صامتة تتخلل نوبة الصمت هذه فاصل من البكاء وانا اتذكرُ تحركات ابي داخل البيت, كل شيء كان يذكرني فيهِ, حاول احمد كسر صمتي وهو يخبرني انني امرأة مؤمنة وهذا امر الله وكلنا سنموت بالنهاية, يكفي الان انهُ هو بقربي, قال لي انهُ سيكون ابي وامي وكل عائلتي فاحتضنتهُ وبكيتُ مرة اخرى, كانت امي تشاركني البكاء, امي

التي بدت محبطة ومنكسرة بشكل لم اعرفهُ سابقا, اخيرا احمد قال انه سيذهب ليجلب لنا ما نأكلهُ, بمجرد خروج احمد جففت امي دموعها بكم ثوبها واقتربت مني وسألتني, من هذا احمد وما الذي حصل لكِ في الاردن, اخبرتها ان ام عصام حاربتني منذ اليوم الاول, كانت تعاملني بقسوة وعصام كان ابن أمهِ, اكتشفتُ ان اهلهُ لم يكن راضين بهذه الزيجة وانهم تفاجئوا عندما دخلنا عليهم, عشت ايام صعبة, الكل كان يعاملني بعدم احترام وعصام كان لاحول ولا قوة, خلال هذه الفترة تعرفتُ على بنت عراقية اسمها سحر كانت تسكن في شقة قريبة من بيت عصام, كنت اشكو لها حالي وهي ساعدتني كثيرا, اخيرا طلقني عصام ورماني في الشارع بضغط من اهلهِ, امهُ على الاخص, ذهبت وعشت فترة قصيرة عند سحر قبل ان تطلب يدي لأخيها احمد, الذي ترك الشقة بمجرد وصولي بعد ان طردوني اهل عصام لكي لا يتسبب لي بأيِّ احراج, وبالفعل تزوجتُ احمد, امي.. احمد انسان طيب وابن عائلة ويحبني كثيرا وفعلا عوضني الله بهِ عن ذلك الكلب عصام, مسدت امي على شعري وقالت لي

- تعذبتِ يمه ...الله يسعدك مع احمد
- وانتم ..كيف كان حالكم

صمتت قليلا, فرت دمعة من عينيها وقالت لي

- مثلما تشاهدين واومأت الى البيت

كان البيت شبه فارغ فأبي كان قد باع معظم اثاث البيت ولم يتبق سوى سجادة مفروشة في وسط الغرفة وسرير حديدي كانت امي تنام عليه وطباخنا الذي اكلتهُ العفونة والدهون وبعض الحاجيات الاخرى التي لا ثمن لها, البيت كان مثل أمي, متعب وفي حالة يُرثى لها, قلت لها سنترك هذا البيت وسنعيش مع احمد لكنها رفضت وقالت لي اذهبي انت اما انا فسأبقى انتظر ان يُفتح باب البيت ويدخل مؤيد عليّ, سألتها عن اخي مؤيد فقالت انه استطاع ان يحصل على لجوء في استراليا لكن ظروفهُ صعبة وما يمنحوهُ

من اموال يكفي لمعيشته فقط رغم ذلك فانهُ ارسل مرة واحدة ورقتين من فئة المئة دولار اخبرنا انه استطاع ان يجمعها بصعوبة من المنحة التي يعطونهُ اياها, بعد وفاة ابيك لم استطع الاتصال به, طلبت من خالك ان يتصل به اكثر من مرة لكن حال خالك لا يسر عدو ولا صديق ومشاكلهُ جعلتهُ لا يزورني كثيرا, احيانا يحمل معه بعض المواد الغذائية, سألتها وكيف عشتِ طوال تلك الفترة بعد موت ابي قالت لي هناك تقاعد ابوكِ والجيران لم يقصروا معي, احيانا تلاميذهُ يحملون لي صواني الطعام, وانا لم اعد بحاجة الى شيء, اريد ان ارى مؤيد بعد ان رأيتكِ واموت, اندفعتُ نحوها قبلتها من رأسها وقلت لها سيكون كل شيء على ما يرام, اخبرتُ احمد ان يأتي هو ليعيش معنا في هذا البيت, ورغم انه تردد لكنني لمحتُ علامات القبول منذ اول لحظة, قبل ان يقف ويذهب الى امي ويقبلها من رأسها ويقول لها انهُ سيكون مثل ابنها ولن يدعها تحتاج لأيِّ شيء, ابتسمت امي بوجههِ وقالت لهُ

- اريد فقط من الله ان يحفظكم ويستر عليكم

قال لي احمد اننا لن نستطيع ان نعيش في هذا البيت إلا بعد ترميمه واننا منذ الغد سنذهب الى شقتهِ في منطقة الكرادة وسنعود للبيت بعد ان يكتمل من الترميم, ذهبت الى حقيبتي وسألت احمد, كم يكلف هذا الترميم, فابتسم وقال لي انا الان رجل البيت وانا من سيتحمل كل شيء

في اليوم التالي ذهبنا الى شقتهِ, كانت جميلة, الاثاث كلهُ من النوع الفاخر والاجهزة الكهربائية من مناشئ اصلية وتلفاز كبير يرتمي وسط الصالة, عندما فتحتْ امي محفظتها وجدتها ممتلئة بالمال فسألتني ان كنت وضعتُ انا هذا المال في محفظتها لكنني انكرت واعتذرتُ لها لأنني لم انتبه لذلك سألت احمد اول ما دخل للبيت عن هذه الاموال فابتسم بوجهها وقال لها ان امهُ ماتت وهو صغير وكان يتمنى دائما ان يضع المال

في محفظتها, الان انت امي وتحققت لي هذه الرغبة, صمتت امي قبل ان تدعو له بالرزق والصحة , كان احمد يعود محملا بأكياس الخضر والفواكة ويبقى طوال الليل يرمي النكات ويضحك معنا خاصة مع امي مما جعل وجه امي يعيد نظارتهُ, بدت مرتاحة وكأنها تخلصت من كل الهموم مرة واحدة ونست كل شيء حتى ابي, ابي الذي كان يشكل جرح داخلي احاول الاقتراب منهُ لكنني خائفة من السؤال عما حدث له وكيف مات, لم اسأل امي وهي ايضا حاولت ان تنساه او تتناساه فقط لتبقى على قيد الحياة من اجل ذلك اليوم الذي ترى فيه اخي مؤيد, بعد حوالي عشرين يوما دخل احمد وقال لنا ان ترميم البيت قد اكتمل وعلينا ان نذهب الان لنشتري الاثاث, قلت له انني انا من سيتحمل ثمن هذا الاثاث فابتسم وحاول ان يرفض لكن امي قالت لهُ

- لخاطري يمه

فقال لها انهُ لا يستطيع ان يرفض لها طلبا, قال انهُ قد اشترى غرفة نوم وبعض الاثاث ونقلها الى البيت نحتاج ان نشتري الان الاجهزة الكهربائية والسجاد والستائر وبعض الامور الاخرى, خرجنا الى السوق, امي هي من اختارت السجاد والستائر بينما تركني احمد ان اختار الاجهزة الكهربائية, وضعناها كلها في سيارة حمل وذهبنا الى البيت, بعد ان مررنا على المسطر القريب واخذنا بطريقنا ثلاثة عمال من اجل ادخال الاغراض وترتيبها, خلال ساعة كان كل شيء في مكانه الصحيح, سمح لي احمد باختيار الترتيب المناسب للأجهزة والاثاث وهو كان حلقة وصل بيني وبين العمال, كان يسألني ويعود ليوجهَ العمال, بعد ان خرج العمال كان البيت قد منحني شعورا وكأنني داخل بيت ادخلهُ للمرة الاولى, كل شيء تغير, واجهة البيت كانت قد زُخرفت بالمرمر داخلها

قطعة زرقاء كتب عليها باللون الابيض (هذا من فضل ربي), سلم البيت الذي كان مصبوبا بالإسمنت تحول الى قطع من المرمر تتسلق الواحدة فوق الاخرى تسندها قطع المنيوم تصعد الى الاعلى بشكل جمالي رائع, كان قد غيّر ارضية البيت بالكامل بالكاشي الموزاييك ولكن الشيء الاكثر اثارة ان اسلاك الكهرباء الرصاصية اللون كانت قد اختفت وحل محلها ازرار فقط تبرز من صفحة الحائط الابيض الذي كان ما يزال يصدّر لنا رائحة الجص, هذه الازرار كانت تضئ البيت كلهُ وبشكل يجعل البيت يظهر بالكامل, كل التفاصيل ومعها كل الذكريات التي حاولت محوها ولكنها تبرز من هنا وهناك تجعل الالم والحزن يعود رغم كل محاولاتي لا بعادهِ ودفنهِ بعيدا في الذاكرة, الاضاءة وشكل المراوح السقفية التي كانت تخرج منها وردة كبيرة تقبع داخلها مصباح نيون يضخ الضوء الذي يتقاطع مع دوران ريشها مشكلا عالما غريبا من النور, احمد لم ينسَ ان يصنع حديقة صغيرة في الفسحة بين الصالة الرئيسية وباب البيت الخارجي زرع فيها عدد من الشجيرات الصغيرة والورود, غرفة النوم المصنوعة من خشب الصاج جعلت احمد يمضغ شفتيه قبل ان يخطف قبلة طويلة متقطعة خوفا من ان تدخل امي علينا لكنهُ بمجرد ان ذهبت امي للنوم اطفأ التلفاز وسحبني من يدي قبل ان يعريني ويدفعني على السرير, لم تكن لدي أيَّ رغبة بالجنس لكنني كنتُ اعتقد ان احمد يستحق المكافأة بعد كل الذي عملهُ لأجلي, لذلك مارستُ الدور كما يجب حتى انني لم ارتدِ ملابسي بعد ان اكمل وبقيتُ عارية طوال الليل, في الصباح بدأتُ اتلمس جسدي وكأنني اكتشفهُ للمرة الاولى, كانت رغبة خائفة قد تركتها البارحة احاول اكمالها اليوم مع هذا الرجل الذي بدأتُ اعشقهُ بكل جوارحي, دفعتُ الغطاء عنهُ وبدأتُ بتقبيلهِ عندها,

قبلتُ صدرهُ ورقبتهُ وعندما وصلتُ الى شفتيهِ فتح عينيه وابتسم قبل ان يتناولني بقبلة طويلة.
نسيتُ كل شيء سوى ابي, احمد جعلني انسى كل ما مرَ بي لكن ابي مازال في البيت, يتحركُ, يطلبُ مني ان اصنع لهُ الشاي رغم ذلك فانا احاول ان اتجاهلهُ بكل قوتي, بكاملِ قدرتي على التحمل, كنتُ اعرف ان الامور لا يمكن ان تستمر على هذا النحو وان الحياة لا تمنح سوى فواصل قصيرة تشبهُ الاعلانات التي تظهر بالتلفاز بين المشاهد الدرامية, احمد قال لي وبطريقة مختلفة انهُ يريدني ان اتعرف على نساء المنطقة خاصة زوجات منتسبي الجيش والشرطة والدوائر الامنية, قال لي ان اسرارَ الدولة كلها عند النساء قبل ان يبتسم ويقول, انتِ لا تحتاجين من يقوم بتعليمكِ الان, اريد تقارير عن كل شيء, كل ما تسمعينهُ في السوق ومن نساء الجيران, بعدها بدأتُ اخرج كثيرا, تعرفتُ تقريبا على كل نساء شارعنا والشارع المجاور ومن ضمن هذه النساء تعرفتُ على ام يوسف زوجة ضابط برتبة مقدم يعمل في احدى المؤسسات العسكرية, تعرفتُ عليها بعد ان دار حوار بيننا حول الطبخ عند محل البقال القريب من بيتنا, قلتُ لها انني تزوجتُ قريباً ولا اعرف الكثير من الطبخات, فانتفخت وقالت انها ستعلمني كل شيء, بعد يومين كانت معي في مطبخ البيت تعلمني كيفية طبخ تبسي الباذنجان, الغريب انني بمجرد ان تكلمتُ قليلا عن احوال البلد كشفتْ عن كل ما في جعبتها والحقيقة انها كانت تملك الكثير من المعلومات فأبو يوسف كان سخي معها وكل اسرار القيادة كانت بين يدي ام يوسف في الليل, كل ما ذكرتهُ ام يوسف تحول الى تقرير استراحَ بين يدي احمد الذي بدى مذهولاً من كمية المعلومات واهميتها, لقاءاتي مع ام يوسف استمرت بشكل شبهِ يومي وبدأت ام يوسف تعرّفني على نساء

في المنطقة, زوجات موظفي حكومة وضباط جيش ودوائر امنية وكم المعلومات بدأ يكبر والتقارير بدأت تأخذُ كل وقتي واعجاب احمد بعملي بدأ يزداد إلا ان جاء ذلك اليوم الذي سمعتُ فيهِ صوت طلق ناري ليسودَ بعدهُ الصراخ القادم من الشارع المجاور لشارعنا, ركض الشباب ليروا ماذا هناك, لبستُ عباءتي وخرجتُ عندما رأيت احدى جاراتنا سألتها ماذا هناك اخبرتني ان مسلحين قتلوا ابو يوسف في باب بيتهِ,رجعتُ الى البيت, كان احمد نائم على بطنهِ وهو يفتح قدميه على عرض السرير, ايقظتهُ وقلت له بصوتٍ هامس, احمد قتلوا جيراننا ابو يوسف, ابتسم ابتسامة لم افهم معناها ثم غطى رأسهُ باللحاف وقال لي , دعيني انام قليلا, كنتُ اعرف ان جماعة احمد هم من قتلوا ابو يوسف وزادَ يقيني بعد ان عرفتُ الذين تم اغتيالهم في الفترة التي سبقت مقتل ابو يوسف وكلهم من الذين وردت اسمائهم في تقاريري التي كنت اسلمُها الى احمد, ام يوسف كانت تبدو ضائعة اكثر منها حزينة, كانت تصمتُ لكنها سرعان ما تبدأ بالصراخ واللطم قبل ان تهدأ مرة اخرى, اقتربتُ منها حاولتُ مواساتها, لكن دموعها نزلت بقوة قالت لي انها لا تعرف ماذا تفعل, كيف تعيش, بعد ان رحلَ ابو يوسف وترك لها خمسة ابناء كلهم في مراحل دراسية اولية, احتضنتني وهي تصرخ (ضيعونا الي ما يخافون من الله)

رجعتُ للبيت وانا أتساءل ان كنتُ اخافُ من الله او لا, ابتسمت ورفعتُ رأسي للسماء وصرختُ

- اينكَ يا الله في كل هذا الجنون

كنت انوي ان اكلمَ احمد في الموضوع ولكن بدى الأمر سخيفاً فانا اعرف انه سيقول لي ان هؤلاء هم رجال الديكتاتور وانهم هم ايضا سبب بلوتنا وخرابنا, لذلك لم اسألهُ لكنني قررت ان

اتوقف عن كتابة التقارير واذا ضغطَ علي احمد فسأكتبُ لهُ تقارير وهمية واسماء لاوجود لها, بالتالي هم لم يستطيعوا ان يكذبوني وانا انقل لهم ما تقولهُ النساء فقط, لم اذهب بعدها لزيارة ام يوسف بينما قلبتْ الافكار وتأنيب الضمير حياتي رأساً على عقب, ها انا اتحول الى قاتلة, الى شرارة للقتل, انا اتحمل كل عذابات ام يوسف وابنائها وعذابات اخرين لا اعرفهم, فهم يقتلون عوائل كاملة وليس رجلاً واحداً, يا الهي كنتُ اتخيل دموع امهاتهم وزوجاتهم واشعر بانني ارتكبتُ إثماً لا مغفرة لهُ, لقد تحولتُ الى اداة للقتل ولكن هل كنتُ اجهل ذلك عندما دعاني معتز للانضمام للحزب, في حينها لم أفكر الا بأحمد, احمد الشيطان الذي يعرف جيدا كيف يمثلُ دور الملاك, انه ملاكي وهو نفسه شيطان الاخرين, بقيتُ طوال النهار في حالة اكتئاب وشعور بالذنب, حاولتُ النوم ولكن بلا جدوى حتى انني لم آكل شيئا, امي انتبهت لي وسألتني اكثر من مرة وفي كل مرة اجيبها بانه لا شيء, كنت احتاج كثيرا الى من يسمعني, من اقول له كل ما يدور في رأسي ولكن من هذا وماذا اقول, نظرت الى امي التي كانت جالسة في ركنِ الغرفة وقلتُ لها

- (فلّيني يمه)
- تعالي

ذهبتُ ونمتُ في حجرها بينما بدأت هي تنبش شعري بحثاً عن القمل او أيّ كائنات اخرى نست نفسها هناك, بدأتُ بالبكاء, نوع من الدفء اجتاحني ولكنهُ لا يشبهُ الدفء الذي كنتُ اشعر بهِ عندما كنت اضع رأسي على صدر ابي, ابي كم احتاجكَ الان, انت الوحيد الذي كان يمكنُ ان اخبرهُ بكل شيء, انت منقذي الأكيد الذي لن يدفعني الى الهاوية بعد ان اخرجني من هاوية اخرى, ابي لماذا لم تنتظرني, لقد اشتقتُ

لك كثيرا, اشتقتُ لك بطريقة لا يمكنني تحملُها, لهذا رفعتُ رأسي وسألت امي والدموع غطت ملامح وجهي بالكامل

- كيف مات ابي...اخبريني بكل شيء ارجوكِ

قالت لي انهُ بعد ان سافرتِ مع عصام بيومين حاول ابوك الاتصال بكِ ولكن الرقم الذي اعطاه عصام لأبوك كان لأخرين لا يعرفون من هو عصام, انتابنا القلق ولكننا لم نكن نعرف ماذا نفعل وبمرور الايام اوضاعنا بدأت تسوء واموالنا بدأت تنفذ مما اضطر ابوكِ لبيعِ اثاث البيت لنتمكن من الاكل, بعدها بدأ ابوكِ يذهب للشورجة ويسألُ هناك عن عصام, سأل التاجر الذي كان يعمل عندهُ مؤيد لكن بلا جدوى لم يكن احد يعرف عصام, في الشورجة كلها, قلت له اذهب للشرطة فقال لي وماذا تفعل لنا الشرطة, في تلك الفترة بدأ ابوك يهزل بطريقة غريبة وتمكن مرض السكري من جسمهِ بالكامل وكان غالبا ما يسقط وهو بالكاد يتنفس, لم نكن نملك اجرة الدكتور الخاص وكنا في كل مرة ننقلهُ للمستشفى, يعطونهُ ابرة الانسولين فيصحو لكننا لم نكن قادرين على توفير ابر الانسولين بشكل مستمر فيسقط بعد ان تحولَ جسمهُ الى خمسة اعواد ثقاب ورأس يتحرك في الشارع, في احد الايام قال لي ان احد تلاميذهُ واسمهُ ابراهيم سيساعدهُ في الكشف عن حقيقة عصام, كان والد هذا الطالب ضابط في جهاز المخابرات وكان ابوكِ يتأمل ان يقول لهُ حقيقة عصام

- وهل اخبرهُ بشيء...سألتها
- لا اعرف. في ذلك اليوم. عادَ وهو متعب جدا, قلتُ له انني سأعد لكَ الطعام لكنهُ قال لي انهُ ليس جائعاً وانهُ يريد ان ينام فقط, ذهب الى سريرهِ ونام, في حوالي الساعة الثامنة مساءً ذهبتُ لأوقظهُ بعد ان اكملتُ طعام العشاء, كان هامدا ينظر الى شيء ما في السقف, كنت اعتقد في البداية انها نوبة سكري فقط لكن اولاد الجيران الذين نقلوهُ للمستشفى اخبروني

انهُ ميت منذ ساعات, مات بهدوء وتكفل اصدقائهُ المدرسين وطلابهُ بمراسيم الدفن والفاتحة.
قفزتُ من حجر امي وركضتُ الى غرفتي, ارتديتُ ملابسي وخرجتُ, عندما سألتني امي الى اين اجبتها عندي عمل, ذهبتُ مباشرة الى بيت استاذ حميد استاذ اللغة العربية وصديق ابي في المدرسة, عندما فتحَ الباب عرفني مباشرة, كان حزيناً ومستاءً جدا ووضع كل اللوم عليَّ وعلى اخي مؤيد قال لي اننا تركناهم وكان من المفروض ان نبقى بقربهم في هذه الظروف العصيبة, اجبتهُ انني كنت متزوجة في الاردن وانني عدتُ الان, صمت قليلا وقال لي الله يرحمهُ استاذ نوري كان تربوي من الطراز الاول, قلتُ لهُ عندي طلب منكَ فأجابني اطلبي ما تشائين قلت لهُ اريد ان اسألك عن احد الطلاب الذي كانوا يدرسون عند ابي, اسمه ابراهيم, قال لي كثيرون اسمائهم ابراهيم في المدرسة وبعد تردد قلتُ لهُ ان اباه يعمل في المخابرات, رفع رأسهُ قليلا ليتذكر وقال لي, نعم, نعم مازال في المدرسة هذا الغبي, رسبَ العام السابق في البكلوريا وما زال في المدرسة, طلبتُ منهُ ان اقابل ابراهيم هذا فقال تعالي غدا الى المدرسة وستقابلينهُ, في اليوم التالي ذهبت الى المدرسة, كل المدرسين عزوني بأبي قبل ان ينهي استاذ حميد الدرس وبمجرد ان رآني صاح احد التلاميذ وطلب منهُ ان يستدعي ابراهيم للإدارة, بعد دقائق جاء ابراهيم وهو شاب اسمر طويل يرتدي بنطال جينز وتي شيرت اصفر مرسوم عليه برج ايفل مع كتابات باللغة الفرنسية, اقترب من استاذ حميد وقال له نعم استاذ اومأ استاذ حميد اليَّ قبل ان يخرج ويترك لنا الغرفة, ابتسمتُ بوجههِ وانا اخبرهُ انني ابنة استاذ نور عندها تغيرت ملامحهُ وقال لي رحمه الله, بدأ ينظر الي بطريقة غريبة, سألتهُ عن الذي حدث وان كان ابي طلب منهُ

شيء قبل ان يموت, ابتسم وهو يقول لي انت ابنتهُ التي كانت في الخليج, صمتُ قليلا واجبتهُ نعم ثم طلبت منه ان يخبرني كل شيء.
قال لي ان استاذ نوري قد عرف عن طريق احد الاساتذة ان ابي يعمل في جهاز المخابرات لذلك طلب مني ان اتدبر لهُ مقابلة مع ابي, كنت احب استاذ نوري كثيرا ولا استطيع ان ارد لهُ طلباً وبالفعل بعد يومين اخذتُ استاذ نوري الى بيتنا وقابل ابي, قال لهُ كل القصة وكيف ان اخبارك انقطعت بعد ان تزوجتِ هذا الشاب الاردني, طلب ابي من استاذ نوري ان يخبرهُ بملامح عصام وكل ما يعرفهُ عنهُ وقال لهُ تعال بعد يومين, بعد يومين وضع ابي بين يدي استاذ نوري ملف يحوي على صور لأردنين مطلوبين للقانون العراقي, فجأةً قفز استاذ نوري وهو يشير الى احدى الصور, هذا هو, هذا عصام, اخذ ابي الملف وسحب ورقة وبدأ يقرأ بها, قال ان هذا الرجلُ اسمهُ عماد وليس عصام وهو اردني الجنسية ويعمل كسمسار نساء, سألهُ استاذ نوري ماذا يعني سمسار نساء, فاخبرهُ ان هذه الظاهرة اكتشفناها قبل فترة وان هناك سماسرة اردنيين ولبنانيين ومصريين يتزوجون عراقيات ويسافرون معهن الى دول الخليج وهناك يسلموهن للعمل في بيوت دعارة ونوادي ليلية, بعد ان يفظ بكارتهن واحد من اغنياء الخليج او شيوخهم وبمبالغ كبيرة, اجرينا تحرياتنا واكتشفنا لحد الان اربعة اردنيين وثلاثة مصريين ولبناني يدخلون الى العراق لهذا الغرض ولكن للأسف لم نستطع ان نعتقل أيَّ واحد ولكننا ابلغنا دولهم بجرائمهم هذه, لم ينبس استاذ نوري بعدها ببنت شفه, شكر ابي وخرج, في اليوم التالي كان خبر وفاة استاذ نوري قد عمَ المدرسة, جعل المدرسين والطلاب يتركون

المدرسة ويذهبون الى بيتهِ ويشاركون في مراسيم الدفن والعزاء.
مجرد التفكير بما كان يشعر به حين خرج من بيت ابي ابراهيم حينذاك جعلني اشعر بقهر يجتاح جسدي كلهُ, قهر من النوع لذي لا تريدهُ ان يتركك الا بعد ان تنتقم, فلا احد برئ وكلهم يستحقون العذاب والموت, كلهم ليس الديكتاتور وحده بل الالاف الذين كانوا يضربون الناس او يتركونهم لمصير مختل بعد ان اصبحت الحياة شبهُ مستحيلة واصبح توفير الطعام انجاز يومي لا يقدر عليه الجميع, استاذ نوري التربوي الذي كان يحترمهُ الجميع يسلمُ ابنتهُ الوحيدة لبيوت الدعارة ولشيخ مختل يلتذ بفظ بكارة البراءة ومن دون أيِّ مبرر, مجرد لذة سخيفة تدمر حياتها وتجعل مدرس الرياضيات يشعر بالقرف والحيرة والالم الذي يحولهُ الى جثة بعد ان فقد كل مبررات الحياة, انا ايضا افقد الان كل مبررات الحياة سوى سبب واحد يجعلني استمر بلعبة احمد حتى النهاية, لا شيء يجرني الان للحياة سوى الانتقام, فكلهم دفعونا يا ابي الى المجهول الى موت كئيب وغير مبرر.
ابي وحق صدقك وروعتك, وحق محبتك وطيبتك, وحق انسانيتك وعطفك, سأنتقم منهم كلهم, سأدفنهم في براميل الموت والنجاسة, سأرمي بهم في قذارة الواقع المختل, لن يمنعني عنهم شيء غير الموت, هذا الموت التي سأكون حريصة على ان لا يجئ بأوانهِ, بل قبل آوانهِ دائما ويتركهم قذارة مرمية في الشوارع
اينكَ الان يا احمد. حبيبي احمد الذي سيأخذ بيدي لانتقم من كل هؤلاء السفلة

عندما عاد احمد كان تقريري عن ابو ابراهيم جاهزاً, سلمتهُ التقرير وقلتُ لهُ هذا ضابط في المخابرات, بعد اقل من شهر كان خبر مقتلهِ يتناقلهُ الناس بخوف وقلق.

(4)

كان ابو ابراهيم اخر ضحاياي, بعدها لم يطلب مني احمد ان اكتبَ التقارير, هو نفسهُ بدأ يغيب عن البيت لأيام طويلة وعندما كنتُ اسألهُ عن سبب غيابهِ يقول لي انه العمل وان نهاية الديكتاتور بدأت الان, الامريكان ايضا بدأوا يحركون قواتهم باتجاه العراق, كل هذه الاحداث لم تكن تقلقني, كنتُ في حالة بين الموت والحياة وكانت صورة ابي لا تغيب عن مخيلتي حتى مع اشتعال الحرب وبداية هجوم القوات الامريكية على البلد, لم اخبر امي بشيء عن موت ابي, امي التي كانت مشغولة بالأحداث وكانت غالبا ما تتركني لوحدي في البيت وتذهب الى بيت اخوالي, مرت الايام بسرعة كبيرة قبل ان اجدَ الهمرات وقد ملأت الشارع الرئيسي والجنود الامريكان يقفون بقرب بنادقهم الاوتوماتيكية واجهزتهم الغريبة, انتابني حينها شعور غير مفهوم, شعور بالحيرة والوجع اضافة الى شعور بالأمل بعد ان رأيتُ صورة الديكتاتور يضربونها بالنعال من خلال شاشة التلفاز.

في تلك الايام كان كل شيء ضبابي الشيء الوحيد الذي كان ينمو داخلي هو كمية الكره والحقد على كل شيء ربما حتى على هذا الذي نسميهُ وطناً, الذي جعلنا مثل الدراويش ندور على انفسنا طوال الوقت من دون ان نعرف الى اين تسير بنا الاقدار, احمد خرج ولم يعد بعد دخول الامريكان وامي كانت اكثر حيوية ونشاط خاصة بعد تحسن الاوضاع المادية لأخوتها بشكل مفاجئ وانا بقيت وحدي في البيت, والحقيقة لم أكن وحدي فأبي كان معي على الدوام ولكنهُ لم يكن يتكلم, كان

يسمع شكواي وبكائي فقط, يسمع كل ما مر بي من دون أيّ ردة فعل, كنتُ اعرف انهُ مات, الشيء الذي لم اكن متأكدة منهُ انني ما زلتُ على قيد الحياة فالديكتاتور هرب والقتلة ما زالوا يجوبون الشوارع والبلد يشعر بفراغ غريب وساعات من اللاجدوى حتى مع تعالي اصوات العربات العسكرية الامريكية التي غطت الشوارع.
بعد ثلاثة اشهر وبينما كنتُ جالسة في الباحة الخارجية للبيت فتح احمد الباب ووقف امامي وسألني بهدوء

- كيف حالكِ نوال
- لا اعرف
- لقد اشتقتُ لكِ كثيرا
- حقا

رفعني من كتفي وادخلني الى البيت, قال لي ان الامور تغيرت وان معتز وصل الى العراق وانهُ كان مشغولاً بترتيب مقر الحزب ولم تسنح لهُ الفرصة للعودة للبيت, قلتُ لهُ اعرف ذلك, احسستُ ان اعتذارهُ وحتى طلبي لاعتذار او تفسير لغيابهِ سخيفاً ولا داعي لهُ, هو كلهُ لم يعد لهُ داعي, تعشينا قبل ان يتناولني بالقبل ويدفعني على السرير, كنتُ مجرد دمية تحتهُ فلم تعد بي أي رغبة للحياة او الجنس او أيّ شيء اخر وهذا جعلهُ يقف ويبتعد قليلا ويسألني

- ما بكِ نوال
- لا شيء. اكمل فقط

سحبتهُ نحوي وجعلتهُ يكمل ما بدأهُ لأنني لم اكن اريد ان افسرَ أيَّ شيء او اقول أي شيء, اريدهُ ان يكمل وينام وربما يذهب في الغد, اريد من الامور تسير بشكلها المعتاد بدوني او من دون الاحساس بها.

في الصباح وبعد ان تناولنا طعام الفطور طلبَ مني احمد ان اغيّرَ ملابسي, سألتهُ الى اين؟ فقال لي الى مقر الحزب, الان بدأ عملُكِ وهو افضل من جلوسكِ في البيت هكذا, فكرتُ للحظة ان ارفض العمل لكنني كنت ادرك ان عودتهُ للبيت هذه المرة من اجل هذه الغاية وانني لا يمكن ان ارفض العمل بعد هذه الدورات التثقيفية في سوريا, كنتُ اعرفُ انهُ يجري اعدادنا للقيام بأعمال لصالح الحزب, كنتُ اتصور ان عملي سيكون ايام حكم الديكتاتور لكن وبعد ان سقط فلا اعرف الى اين يريدون ان يسيروا بي وماذا سيطلبون مني, ولكن لا شيء مهم بالنهاية فانا بالفعل بحاجة الى عمل بعد ان اصبحَ ما يرسلهُ لي احمد من اموال لا تكفي سوى للأكل وتلبية متطلبات البيت بحدودها الدنيا.

قبل ان ندلفَ الى الشارع الذي يقع فيهِ مقر الحزب لفت انتباهي بائع الشاورما ورائحة اللحم المشوي بدأت تتسلل الي وتذكرني بطعم الشاورما السورية التي كانت تصطف ذرات اللحم على الخبز قبل ان يضع بقرب هذا اللحم المقبلات والطرشي ويلفها بطريقة فنية مميزة ويضغطها داخل فرن أعدَ لهذا الغرض, بعدها يلفها مرة اخرى بورق ابيض ويقدمها وهو يبتسم, احسستُ ان هذا البائع سيصنع لي الشاورما بنفس الطريقة ويقدمها بنفس الابتسامة لكن احمد لم يمنحني الوقت لتأمل كل ذلك وبدت فكرة ان اطلب من احمد ان نقف لتناولَ الشاورما اكثر من مجنونة, احمد الذي بدأ يتعامل معي بشكل رسمي وفقد كل روحية الزوج المحب التي كانت تحتلهُ عندما كنا في سوريا, هو ايضا بدى مهموما ودائم التفكير ويعيش في عالم بعيد عني لا يمكنني اكتشافهُ او فهمهُ حتى, اخيرا وصلنا الى بيت فخم عرفتُ بعد ذلك انهُ كان لاحد المتنفذين في النظام السابق الذي هرب وترك خلفهُ كل هذا الجمال, الجنود الذين

كانوا يحرسون البوابة الرئيسية للبيت ركضوا وفتحوا الباب وهم يقولون (تفضل استاذ), عندما دخلنا البيت الذي يحتوي على صالة كبيرة يرتفع سقفها حتى اعلى البيت يتدلى من السقف ثريا كبيرة ملونة على شكل عنقود عنب كرستالي كبير, صعدنا السُلم الذي يلتف بشكل انيق حتى الطابق الثاني عندما وصلنا الى احدى الغرف الذي كان يجلس على بابها شاب انيق يرتدي بدلة سوداء, سأل احمد الشاب (موجود الاستاذ) فأجاب الشاب (نعم ..تفضل), دفع احمد الباب كي أفاجئ بمعتز وهو يجلسُ خلف مكتب خشبي كبير ينتشر علية الكثير من الاوراق والاقلام واجهزة الهاتف وفي مقدمتهِ قطعة خشبية مكتوب عليها (مقرر الحزب), وقف معتز وسلم علينا قبل ان يسألهُ احمد

- هل تذكرتها

ابتسم معتز وهو يقول.

- اهلا نوال. تفضلي

بقينا حوالي ربع ساعة في مكتب معتز عندها اكتشفتُ ان معتز قد تغير كثيرا, لم اسمع منه كلمة (اخيتي) التي كان يرددها كلما يراني هناك في سوريا كما انهُ بدى صارماً في تعاملهِ مع الشاب الذي يرتدي البدلة السوداء وهو يطلب منهُ ان يقدم لنا الشاي, معتز هذه المرة بدى مهيباً ومخيفاً بطريقة غريبة وهو يخبرني انني سأعمل مع استاذ عادل, وعندما سألتهُ لماذا لا اعمل مع احمد, اجابني, احمد يعمل الان في مجال اخر ولا يحتاجكِ معهُ, طمأنني احمد وهو يخبرني ان أستاذ عادل هذا رجل كبير في السن وطيب القلب وانني سأرتاح في العمل معهُ, خرجتُ من المكتب بعد ان وضع بيدي قصاصة ورقية قال لي سلميها للأستاذ عادل بينما بقى احمد في مكتب معتز قادني الشاب الى غرفة استاذ عادل في الطابق الاول من البيت, لم يكن استاذ عادل في مكتبهِ, طلب

من الشاب ان اجلس وانه سيذهب لإبلاغهِ, بعد دقائق جاء استاذ عادل, كان رجلا في الخمسينيات من عمره ذو لحية بيضاء خفيفة وعينين صغيرتين, كانت وجنتاه قد التصقت ببعضهما ولايفصل بينهما سوى فم صغير استقرت داخلهُ اسنان صفراء من أثر التدخين, كان يمتصُ السيكارة بكل قوة قبل ان يرفع رأسهُ وينفث الدخان في سماء الغرفة, اخذ الورقة مني قبل ان يلتفت الي ويقول

- انتِ زوجة احمد حسيبة
- من هذا احمد حسيبة ..سألتهُ باستغراب

ارتبك قليلا وهو يقول لي

- اعني ..احمد. احمد

كتب شيئا ما على قصاصة ورقية صغيرة ودفعها نحوي وقال لي, اذهبي الى قسم التدريب, قسم التدريب هذا لا يبتعد كثيرا عن غرفة استاذ عادل وهو يتكون من صالة تشبه الصف الدراسي بقربها غرفة صغيرة تجلس فيها فتاة مُحجبة تقرأ كتاب الادعية والتعاويذ, اخبرتني هذه الفتاة ان اعود غدا عند الساعة التاسعة صباحا.

شغلني كثيرا ما فلت من لسان استاذ عادل, (احمد حسيبة), هل هو زوجي احمد ولماذا يسمونهُ بهذا الاسم ثم لماذا ارتبك استاذ عادل وكأنهُ ارتكب خطيئة ما, في الحقيقة لم اسأل احمد طوال هذه الفترة عن شيء, اهلهُ مثلا لأنهُ اوحى لي منذ اليوم الاول ان هذه من اسرار الحزب وانه من الافضل ان لا يعرف أيٌّ منا تاريخ الاخر, انا ايضا كنتُ اكرهُ الماضي واحببتُ ان اعيش حاضري فقط مع احمد لهذا لم اسألهُ عن شيء.

في اليوم التالي ذهبت الى قسم التدريب, عندما دخلتُ الى الصف وجدت تسعة فتيات يجلسنَ على الكراسي, ثلاثة منهن كنت اعرفهن حيث كنَّ معي في سوريا, سلمتُ عليهن بحرارة وسألتهنَ عن احوالهن قبل ان يدخل استاذ عادل ويبدأ المحاضرة.

استاذ عادل كان مخزن كبير للمعلومات وكان يتكلم بتفاصيل تبدو مملة وهو يشرح لنا كيف ان حزب البعث ما زال موجودا وفاعلاً وما كان الديكتاتور قد خطط له لفترة ما بعد سقوطهِ, قال ان اتباع الديكتاتور ما زالوا يختبئون في بغداد وباقي المحافظات وانهم سيقومون بعمليات لضرب العراق الديمقراطي الجديد, قال انه يريدون احداث فوضى في البلد تمكنهم من التسلل الى السلطة مرة اخرى وعودة الديكتاتور وبمساعدة من دول الجوار التي لا تريد للعراقيين ان يعرفوا طعم الديمقراطية لا نها ستشكلُ خطر على وجودهم, فشعوبهم لن تسكت اذا كانت ترى كل يوم نموذج ديمقراطي مثالي وستنتفض عليهم لذلك سيفعلون كل شيء من اجل تقويض هذه الديمقراطية الناشئة في هذا البلد وبمساعدة من اصحاب الديكتاتور المختفي في مكان ما, قال لنا ان عملنا هو اصطياد اعداء الديمقراطية ووأدهم الى الابد.
استمرت المحاضرة حوالي الساعة والنصف قبل ان يطلب منا الذهاب الى المطبخ وتناول الفطور قبل ان نعود مرة اخرى الى الصف حينها دخلت علينا الست عايدة واخبرتنا انها هي من ستشرف على تعليمنا في الفترة القادمة, قالتْ ان الفكرة الاساسية ان للمرأة قدرات هائلة يمكن استخراجها وترويضها والاستفادة منها ومهمتي هو ان اشرح الطرق الصحيحة لاستخراج مثل هذه القدرات, ست عايدة امرأة في حدود الاربعينات من العمر ذو جسم ممتلئ ونهدين كبيرين, يغلب عليها القصر لكن وجهها جميل بطريقة معينة رغم عينيها الصغيرتين وشفتيها الكبيرتين لكن وجهها الدائري الممتلئ يوحي للرائي بانهُ امام امرأة جميلة, المشكلة في ست عايدة انها لا تعرف شيئاً اسمهُ الخجل فكانت بكل سهولة تشير الى أيّ عضو من اعضائها من دون ان تلتفت لردة الفعل لذلك, تقبض على ما بين فخذيها بكل يدها او تضرب مؤخرتها او ترفع نهديها حتى يظهر جزء كبير منهُ او تصف

العضو الذكري للرجل ومناطق الشهوة فيهِ وطرق اغراء الرجل, كل هذا تشرحهُ من دون ان تنتبهَ لابتساماتنا وضحكنا وما يدور بيننا من احاديث اثناء المحاضرة , في تلك الفترة ازدادت علاقتي مع كل زميلاتي لكن علاقتي مع سهيلة كانت لها خصوصية معينة, فهذه الفتاة التي لم تصل الى الثلاثين من عمرها والتي تملك شفتين تحمل كل عوامل الاغراء للمرأة قبل الرجل, كانت جريئة وهي تقرب فمها من اذني وتصف ست عايدة بالقحبة, في احدى المرات سألتُ سهيلة عن اكثر شيء مغري في جسدي فأشارت الى نهديّ وهزتْ برأسها وكأنها تشتهيهما بقوة عندها كنتُ اتأمل انا شفتيها واحلم لو انني استطعتُ تناول هاتين الشفتين بقبلة طويلة, رجعتُ للبيت وتعريتُ تماما امام المرأة, كان نهداي جميلان بالفعل وهما يشبهان عرموطتين صفراوين نصف ناضجتين, فركت حلمتيهما بقوة وتخيلتُ لو انهما يغرقان الان داخل فم سهيلة.

الست عايدة ازدادت جرأة محاضراتها حتى انها وصفت لنا بشكل دقيق كيفية اجراء ممارسة جنسية كاملة مع رجل ما في مكان عام حتى يصل الى حالة القذف ومن دون ان ينتبهَ الينا احد, مثلا في سيارة اجرة او في مكان منزوي من حديقة عامة, وباستخدام الايحاءات قبل ان نجعلهُ يفتح سحاب البنطال وتمتد اليد لتدعكَ عضوهُ بشكل خفي ومن خلال العباءة السوداء, كان هاجس العمل يقظ مضجعي كثيرا وكنا نتساءل ماذا سنعمل بعد كل هذه الاثارة كما ان غياب احمد بدأ يقلقني كثيراً فحاجتي الى الرجل كانت في ذروتها في تلك الفترة, سهيلة طلبت مني ان اشتري جهاز (cd) لعرض الفديوات, قالت لي انها تملك افلام يمكننا ان نراها سوية, بعد يومين كانت امي قد ذهبت الى بيت اخوالي عدنا انا وسهيلة للبيت, اعددنا الطعام واكلنا قبل ان تخرج سهيلة من حقيبتها احد الافلام وتبدأ بعرض الفيلم قبل ان تستلقي على الاريكة, احسست

بالانزعاج في بادئ الامر فانا لم اشاهد في حياتي رجل يعري امرأة قبل ان يتناولها بالقبل وزاد انزعاجي عندما اخرج عضوهُ الذكري وبدأت هي بمصهِ بطريقة شهوانية لكن رغبتي بدأت تتشكل عندما بدأ يمتص نهديها وشفتيها وهو يوغل عضوه الذكري داخلها, تأوهاتها جعلتني جسدي يهتز بالكامل, كنت اعرف هذه النشوة لكن كيف يمكنني الحصول عليها الان, بدأت احكُ فخذيَّ الواحدة بالأخرى قبل ان تلاحظ سهيلة ذلك وتمد يدها نحو فخذي وترفع ثوبي, بعدها وقفت, مسدت على شعري بهدوء ومررت اصبعها على شفتيَّ قبل ان تنزل على نهدي وتبدأ تدعكهما بقوة من وراء الثوب, اقتربتُ مني وبدأت تمتص شفتي السفلى قبل ان تنتقل الى العليا وتضع لسانها داخل فمي وتحاول ان تستجدي منهُ اللعاب, دقائق وكنا فتاتين عاريتين تماما داخل بيت استاذ الرياضيات, تناولتْ نهداي وعندها اشتعلت الرغبة داخلي جعلتني اتأوه بشدة قبل ان تمدَ يدها على ما بين فخذي وتبدأ رحلة اللذة التي لا تقاوم, احببت سهيلة بطريقة لا تصدق حينها فهي الوحيدة التي منحتني لذة كاملة, حتى احمد كنتُ اشعر دائما ان عليهِ ان يستمر لكنه وبمجرد ان يقذف يقف ويبتعد تاركاً لذة ناقصة مركونة في زوايا العقل اما سهيلة فتمنح الامور كاملة وتطعم الجائع حتى التخمة, سهيلة حبيبتي التي منحتني شيء ما, شيء شيطاني كنتُ احتاجهُ على الدوام لأتخلص من لعنة الطفولة وانني بنت استاذ الرياضيات الذي يحترمهُ الجميع, الشيطان وحده ملاذي ما دام يمنحني اللذة الكاملة, هو الذي يمثلني في هذا العالم وهو ملجأي ومأواي, الشيطان الجميل الذي جاء عن طريق سهيلة والذي يخلصني الان من تناقض هذا العالم بين محاضرات الست عايدة وما تقرأهُ موظفة استعلامات قسم التدريب من ادعية وتعاويذ على بعد امتار قليلة منها, التناقض بين هذا الملاك احمد في سوريا وبين احمد حسيبة هنا في بغداد, التناقض بين استاذ

الرياضيات التربوي الكبير وبين ذلك الرجل الذي سلم ابنتهُ لبيوت الدعارة في الخليج, الشيطان او سهيلة هم وحدهم من يمنحون الحقيقة وجودها الكلي كما يمنحون اللذة تخمتها اللازمة.
كانت علاقتي مع سهيلة قد تطورت كثيرا, كنت لا افارقها واستغل ايَّ فرصة تخرج فيها امي من البيت وادعوها ونبدأ لعبة المرأة والمرأة او الرجل والمرأة, كنا نتبادل الادوار الى ان نصل للذة الكاملة, نسيتُ احمد نهائيا فالحقيقة ان الرجل هو وحدهُ من يستطيع ان يمنح المرأة اللذة المطلوبة مجرد كذبة وان امرأة مثل سهيلة يمكن ان تمنحَ اللذة لقبيلة من النساء, اللذة هنا وحدها هي الكيان المقدس والقابل للتصديق وكل ما عداها مجرد اكاذيب ابتداءً من استاذ الرياضيات وانتهاءً بهذهِ القحبة الست عايدة.
انتهت الدورة بعد عدة محاضرات القاها علينا هذه المرة استاذ عادل, كانت محاضرات مخابراتية تتحدث عن طرق الاغتيالات والاسلحة المستخدمة وانواع المسدسات التي تستخدم كواتم الصوت وانواع هذه الكواتم, كذلك انواع العبوات اللاصقة, كل المحاضرات كانت تدور حول طرق اغتيال الاشخاص, احسستُ حينها بالخطر وانني اقفُ على الحافة الحادة للموت وان امكانية سقوطي كبيرة جدا لكن لم يكن بإمكاني التراجع والحزب اصبح المورد الوحيد الذي اعتاشُ منهُ بعد ان هجرني احمد وبشكل جعل قلقي يزداد وجعلني احاول الحصول على ايٍّ معلومة عن مكان تواجدهِ لكن من دون جدوى, ايضا كنتُ اخافُ ان ابتعدَ عن سهيلة اذا ما ظهر احمد في حياتي مرة اخرى وهذا جعلني في حيرة دائمة وفي قلق لا اعرف كيف اتخلص منهُ.
بدأنا الدوام في غرفة كبيرة في مقر الحزب وكان استاذ عادل يزورنا في فترات متقطعة, في حينها كنتُ افكر في استاذ عادل وانني يمكن ان اعرف حقيقة احمد من خلاله لكنهُ دعاني الى غرفتهِ ليطلبَ مني تنفيذ مهمتي الاولى

(5)

المهمة الاولى التي كلفني فيها استاذ عادل هي استدراج شاب اسمهُ كريم وهو ابن واحد من المتنفذين في احدى الاحزاب التي كانت على صراع عقائدي وسياسي مع حزب معتز, كريم هذا لم يدخل في الثلاثين من عمرهِ بعد وكان يلتقي دائما في احدى النوادي التي كانت تضمُ اولاد المسؤولين والتجار وكبار الضباط, هذا النادي كان يمنح عضويتهُ عن طريق مكاتب الاحزاب فقط ويخضع لحماية امنية مشددة على الدوام, دخلتُ الى النادي بهوية تحمل اسم ظمياء عبد المعز وهي ابنة احد الضباط الكبار في الامن الوطني, ظمياء هذه كانت ترتدي بنطال جينز يدفع مؤخرتها للخارج وتي شيرت بفتحة كبيرة من موضع النهدين وباروكة شعر صفراء اضافة الى مكياج صارخ جعلني لا اعرف سحنتي عندما نظرتُ بوجهي في المرآة, بعد اسبوع من ترددي على النادي ومراقبة كريم والاقتراب منهُ وانا احاول تعديل حمالة الصدر او التفت عنهُ لتظهر مؤخرتي بشكل اكثر وضوحا تعرفت على كريم عن طريق احدى البنات التي تعرفتُ عليها منذ اليوم الاول لدخولي للنادي, يومان وبدأت علاقتي مع كريم تأخذُ شكلاً اخرا بعد ان طبقّتُ كل ما تعلمتهُ من هذه القحبة الست عايدة, قال لي انهُ يريد ان يراني خارج النادي فرفضتُ اول الامر لكنهُ ألحَ عليّ فوافقتُ بعد ايام, قال ان بيتهم فارغ في اوقات الصباح فابتسمتُ واخبرتهُ انني املك شقة فارغة على الدوام, فوافق وقال لي هيا لكنني اخبرتهُ ليس الان, غدا في الساعة العاشرة سأنتظركَ امام باب النادي بسيارتي, تعال وحدكَ ولا

تخبر احداً بالأمر, اذا اردت لعلاقتنا ان تستمر فلا تخبر احدا, وعدني بذلك قبل ان اتركهُ واخرج من النادي.
عندما وصلت في الساعة العاشرة الا خمس دقائق وجدتهُ واقفاً امام باب النادي, فتحت الباب فصعد وانطلقنا نحو شقة احمد, بمجرد ان دخل كريم من باب الشقة كانوا بانتظارهِ, ضربهُ احدهم الذي كان يختبأ خلف الباب الرئيسي للشقة على رأسهِ من الخلف, التفتُ فرأيتهُ ساقطا فذهبتُ الى الحمام عندها سمعتُ اطلاقتين من مسدس كاتم, كان الصوت واضحاً جعلني استعجل في محو كل ما وضعتُ على وجهي من مكياج قبل ان اخلعَ الباروكة وارتدي ملابسي واخرج, كانوا يلفونهُ بسجادة ليتمكنوا من انزالهِ من الشقة ورميهِ في النهر وربما في مزبلة ما, تأملتُ خيط الدم الذي فلتَ من بين طيات السجادة ليشكلَ مسارا على ارضية الشقة قبل ان افتح باب الشقة واخرج.
اللاوعي او اللاوجود هو الذي سيطر عليَّ داخل لعبة الموت التي تتكرر دون التفكير او الاحساس بمن داخلها او بما يمكن ان تخلفهُ من تبِعات على حياتي بعد ذلك, كل شيء كان طبيعياً وعادياً وغير مزعج ويسير بشكل تلقائي, كل هذهِ الجثث المغطاة بالبطانيات والسجادات التي تتشكل على سطحها خرائط من دم, عادي جدا كل هذا الموت عادي فلم يكن سوى عمل مكرر كما انني لا أُريد ان افكر بما اقوم بهِ, اعمل عملي واغلقُ باب الشقة واخرج بعد ان اخلف ورائي جثة واسم وشخصية اتمرن عليها لأيام قبل ان ابدأ باستدراج الضحية الى شقة احمد او الى بيوت وشقق في اماكن متفرقة, كنت امثل شخصيتين وربما ثلاثة شخصيات في الشهر الواحد وتنقلتُ حينها في مهن كثيرة, مرة طالبة في جامعة بغداد ومرة اخرى عاهرة في احدى الشقق في منطقة البتاويين ومرة

ثالثة ربة بيت واخرى متسولة وضائعة ومجنونة ومع كل شخصية من هذه الشخصيات اسم جديد وطريقة تعامل جديدة, كل هذا من اجل استدراج الضحية وبأسباب مختلفة, الجنس او طلب المساعدة واحيانا تجري الامور بشكل اكثر سلاسة وفي احايين اخرى تُصعّب علينا الضحية الامر نتيجة تركيبتها الخاصة او لان الامور لا تسير بالشكل المخطط لها, كانت مهمتي وشخصيتي واسمي ينتهي بمجرد ان افتح الباب وادخل برفقة الضحية ليجدَ امامهُ كواتم الصوت التي لن تتأخر في وضع رصاصة في الرأس ولف الجثة ببطانية او سجادة ثم القائها بالنهر وربما في مزبلة ما, كان هناك على الدوام من يراقبني وانا اقوم باستدراج الضحية, اكتشفت ذلك بعد ان انتبهت ان هناك سيارة تلاحقني دائما ومع كل ضحية, عندما سألتُ استاذ عادل اخبرني هي لحمايتي فيما لو وقع أي طارئ والحقيقة كانوا يراقبونني ليتأكدوا ان كل الامور تسير على ما يرام فلا أحد يثق بأحد داخل هذا العالم المختل وايٌّ واحد منا هو مشروع خيانة محتمل وربما نتعرض نحن للاستدراج وبشكل عكسي لنكون نحن الضحايا, كنت احضرُ لمقر الحزب بعد انتهاء كل عملية واقبض مكافأة جيدة بعيدا عن مرتبي الذي اتقاضاهُ عند رأس كل شهر, ورغم تحسن وضعي المادي لكن علاقتي مع سهيلة اصابها الكثير من الفتور, كانت هي مشغولة على الدوام, دعوتها لتذهب معي للبيت اكثر من مرة فاعتذرت حتى احسست انني الحُ عليها بطريقة مخجلة جدا, حتى الشيطان يتخلى عني هذه المرة بعد ان خلق داخلي صراعاً رهيباً بين العامل الاخلاقي الذي لا اعرف اين يختبئ ويخرج دائما ليشكل عامل ازعاج وقلق وبين حاجتي للرغبة التي سيطرت عليّ كليا وبدأت تمسخ شخصيتي تدريجيا وكأنني اصبحت مدمنة مخدرات, كنتُ متأكدة ان الشيطان لن

يذهب بعيدا فهو يقوم على الدوام بتغيير قواعد اللعبة وتغيير اللاعبين ايضا ليضمنَ لي اللذة والدهشة بمدياتها القصوى..
المهمة هذه المرة جاءت من مكتب اخر بعد ان سافر استاذ عادل وتولى مسؤولية البنات استاذ منذر, استاذ منذر هذا كان شاب في منتصف الثلاثينيات وكان مرحاً على الدوام ويحفظ عدد كبير من النكات, كان لا يتكلم معنا إلا بعد ان يقرب وجههُ منا بطريقة مثيرة وتشعرنا بالخجل وهو يغمض عينه اليسرى بشكل لا ارادي, عرفت بعد ذلك ان منذر كان من اوائل الذين انضموا للحزب داخل العراق وانهُ كان عين معتز في الداخل, لكن معتز لم يكن يرتاح لهُ ويعتقد دائما انهُ لا يمكن الوثوق به رغم حاجتهِ الدائمة لخدماتهِ, عندما سألت سهيلة عن منذر اجابتني وهي تبتسم, هذا يموتُ على النسوان روحهُ بهذا (واشارت الى ما بين فخذيها) ابتسمت بوجهها وقلت لها, وهذا عز الطلب, منذر هو من سيقول لي من هو احمد ولماذا تزوجني, سيقول لي كل شيء, خلال فترة بسيطة تعمقت علاقتي بمنذر فهو كان ينجذب بسهولة لأيّ امرأة لا تصدهُ او لا يتضح على ملامحها انها تحتقرهُ وتقرف من طريقة كلامهِ التي تنتمي الى الشارع حتى وهو بهذه المكانة في الحزب ورغم بدلتهِ وربطة عنقهِ اللواتي توحيان ان من يرتديهما استاذ جامعي او ربما موظف بمنصب محترم, بعد حوالي الشهر كنتُ اجلس معهُ لوحدنا في مكتبهِ عندما تجرأت وسألتهُ بعد فاصل من الارتباك

- من هو احمد حسيبة ولماذا ينادونهُ بهذا الاسم
- امه اسمها حسيبة
- لماذا ينادونهُ باسم امهِ...سألتهُ
- وانتِ ماذا تريدين ان تعرفي عنهُ. أجابني بسؤال
- كل شيء

- كل شيء. ليس هنا ..وليس من دون مقابل
- وماذا تريد مقابل...اجبتهُ وانا ابتسم
ابتسمَ لي, قربَ وجههُ وقال لي
- والله. ..انتِ ذكية وتعرفين ماذا اطلب, وغمزَ بعينهِ بعد ان حاول ان يرسل نظراتهُ لتخترق ما بين نهدي
- اوكي..متى
- غدا...انتظريني في رأس الشارع الساعة العاشرة..
- اوكي..اتفقنا

عند الساعة التاسعة والنصف وصلتُ الى المكان الذي حددهُ منذر قرب مطعم بيع الشاورما عند رأس الشارع الذي يقودنا الى مقر الحزب, شعرتُ حينها بجوع شديد وانا اتأمل الشاورما التي يقطعّها الصانع بساطور طويل وتتحول الى ذرات بانتظار توزيعها داخل الخبز, اقتربتُ من البائع وطلبتُ ساندويج وبدأتُ اراقب طريقة العمل, بالرغم من ان طريقة عمل الساندويش نفسها في سوريا لكن الطعم كان مختلفاً, ففي سوريا لم تبدو حموضة اللحم واضحة ومزعجة كاللحم الذي امتلأ فيه الساندويش هنا, لقد قلدوا طريقة التقديم ولكن يبدو انهم لحد الان لا يعرفوا طريقة التحضير وبشكل يجعل جميع المذاقات متساوية من دون ان يطغى مذاق الحامض على كل المذاقات الاخرى, رغم ذلك شعرتُ بشعور جميل وانا اتأمل المارة مع صوت فيروز الذي كان يصدر من داخل المحل, نسيتُ منذر واحمد حسيبة وابي والحزب وكل شيء وبدأتُ اتأمل الناس من دون ذاكرة او غاية او أيّ شيء اخر, تمنيتُ لو ان منذر لم يأتِ وانني اعود للبيت وانام فقط, نوم من دون كوابيس او شعور لكن سرعان ما وقفت سيارة منذر امام باب محل الشاورما واومأ اليَّ, اندفعتُ وصعدتُ الى السيارة ومن دون ان اقول شيئا, اوقف منذر السيارة امام عمارة تقع في

اطراف المدينة ونزل, سلم على بواب العمارة ودفعَ اليهِ خمسة الاف دينار وصعدنا الى الطابق الثاني, اصوات موسيقى وضحك نساء كان يصدر من الشقق الاخرى مما يوحي اننا داخل عمارة مشبوهة, فتح منذر باب الشقة وتوجه مباشرة الى الثلاجة واخرج بطلين بيرة ونصف كيكة مملؤة بالقشدة والكريمة مزخرفة على جانبيها بورود حمراء, وضع نصف الكيكة امامي وسألني

- تشربين بيرة

ابتسمت واجبتهُ

- لا ..والله لو يدري فيك معتز

ضحكَ ملء شدقيهِ وقال

- هو معتز يشرب العرق ب(القندرة)

جلس بقربي وامتص جرعة كبيرة من بطل البيرة قبل ان يلف يدهُ على كتفي, بهدوء رفعتُ يدهُ من كتفي وقلتُ لهُ

- ليس قبل ان تخبرني بكل شيء
- ماذا تريدين ان تعرفي عن احمد حسيبة
- كل شيء, لماذا ينادونهُ باسم امهِ, لماذا تزوجني, واي شيء اخر

وضع بطل البيرة على المنضدة التي امامهُ وبدى جاد وهو يقول لي.

امه اسمها حسيبة, كانوا ينادونها حسيبة القوادة, كانت اشهر قوادة في بغداد, يقولون انها كانت مدعومة بشكل مباشر من ابن الديكتاتور وانها كانت المسؤولة عن توفير كل العاهرات ليقضي معهن لياليهِ الحمراء, حسيبة هذه كانت تعمل في البداية عاهرة في ابو غريب قبل ان تتوطد علاقتها مع بعض المتنفذين والضباط الذين طلبوا منها ان تعتزلَ العمل هناك وتأخذ بيت يقع في وسط المدينة وتعمل على اجتذاب النساء

لهم, قبل ان يخبروها ان ابن الديكتاتور يحتاج منها عدد من البنات كل يوم خميس وربما في ايام اخرى, احمد كان يعيش في هذا الجو مع العاهرات وكان مرشحاً ليكون قواد لكنهُ اختار ان يكون قواد من نوع اخر, قواد بطريقة مشرعنة وتكفلها السماء, في منتصف التسعينات تعرف احمد على سلام عبد الفتاح الذي كان يزور البيت برفقة احد اعضاء مكتب القيادة القطرية الذي يعمل مع عدي اسمه عزيز, يقولون ان عزيز هذا كان نسيب سلام وكانوا يقضون ليالي حمراء في بيت حسيبة القوادة, طلب احمد من سلام ان يجد لهُ عمل في الاردن وانهُ يريد ان يسافر فوفرَ لهُ سلام العمل عند احد اصدقائهِ الذي لديهِ مصنع لصناعة الحلوى والمعجنات والمواد الغذائية هناك, وهناك تعرف على معتز الذي دعاهُ للعمل معهُ في الحزب الذي كان يمتلك احدى المقرات في الاردن والذي اضطر للانتقال الى سوريا بعد ان تحسنت علاقات الاردن مع نظام الديكتاتور, معتز في وقتها ارسل لي يطلب ان اكتبَ لهُ تقرير عن احمد وبعد جهد طويل استطعت ان اعرف انهُ ابن حسيبة القوادة وعرفت كل تاريخها وتاريخهُ معها, كان احمد يكرهُ امهُ كثيرا, المرة الوحيدة التي رأيت فيها احمد يكلم معتز بعصبية وعدم احترام هو عندما ناداه معتز وهو يضحك ب(أبن حسيبة) عندها ثار احمد وطلب من معتز ان لا يناديه احد بهذا الاسم بعد ذلك وبالفعل جمع معتز كل الكوادر المتقدمة وطلب منهم الكف عن مناداته بأحمد حسيبة, كان الكل تعود على هذا الاسم وغالبا ما كانوا ينسوون وينادونهُ لكن سرعان ما يعتذرون لهُ, بعد فترة التقى احمد بسلام في الاردن, يقولون ان سلام كان قد هرب بعد ان سرق اموال شحنة رز كانَ من المفروض ان تنزل للشورجة لصالح ابن الديكتاتور, وارسلوا سلام لاستكمال هذه الصفقة لكن سلام

سحب الاموال من المصرف وهرب, كان ينوي الخروج بهذهِ الاموال الى اوربا لكن السلطات الاردنية بدأت تبحث عنهُ بطلب من السلطات العراقية, هذا جعل سلام يتصل بأحمد الذي كان يعمل مع معتز في مكتب الحزب حينذاك, احمد عرّف سلام على معتز وشرح لهُ ظرفهُ وان السلطات الاردنية تطاردهُ الان, استطاع معتز من تدبير جواز سفر مزور لسلام وارسالهُ الى سوريا قبل ان يلتحق به هو واحمد وكل كادر الحزب الذي كان في الاردن, في سوريا تطورت العلاقة بين سلام ومعتز واصبح سلام الرجل الثاني في الحزب حتى ان معتز زوجهُ اختهُ بعد عودتهم للعراق, أظن كان اسمها سميرة, اما احمد فطلب منهُ معتز ان يتكفل هو بتجنيد النساء لصالح الحزب, كان احمد يبحث عن عراقيات يصلحن للعمل داخل الحزب, بنات ناس قادتهن الظروف للسفر والضياع ليكون احمد هو الامل الممكن حينذاك, كان احمد يعرف كل بيوت الدعارة والنوادي الليلة في معظم الدول العربية وكان لديهِ كادر وجواسيس يمنحونهُ كل المعلومات التي يحتاجها, على ما أظن ان شخص اسمهُ جاسم يعمل في احدى النوادي الليلية في الخليج هو الذي اخبرهُ بأمرك وهو ايضا الذي اعطاهُ جواز سفركِ بعد ذلك.

- اعرف جاسم هذا ..ابن الكلب

يعني لقائي مع احمد في تلك الحديقة لم تكن صدفة ولا الدم يحن..يا اولاد الكلب

ضحك منذر وهو يقول

- لا طبعا. لامجال للصدفة, كان احمد يعرف عنكِ كل شيء قبل ان يلتقيكِ هناك
- هل تعرف. جاسم هذا كان يضربني لإجباري للعمل في الدعارة في ذلك النادي.....

- نعم...وهو نفسهُ الذي سلمكِ لأحمد بعد ان لم يستطع اجبارك للتحول الى قحبة هناك, جاسم اخبر احمد انكِ سرقتِ 30 ورقة من فئة مئة دولار من احدى زميلاتكِ في السكن..
- يا الله كان المبلغ اقل من هذا بكثير
ضحك منذر وهو يقول لي. صار الباقي بجيب جاسم لان احمد بعث له 30 ورقة بعد ذلك
- لكن انت كيف عرفت بكل هذه التفاصيل. سالتهُ
- ابتسم وهو يقول ..كنت اقرأ ملفكِ السري قبل ان اقابلكِ
- ملف سري. سألتهُ
- نعم ..هناك ملف سري فيه كل شيء لكل عامل في الحزب, نستطيع فقط الحصول على هذه الملفات عندما نتولى المسؤولية, عندي الان ملفات عن كل واحدة منكن
- طيب اين يمكن ان اعثرَ الان على السيدة حسيبة ام احمد. سألتهُ
- حسيبة القوادة راحت ضحية الصراع بين ابناء الديكتاتور يقولون ان ابن الديكتاتور الاصغر ارسلَ شيخ دين معروف ليرمي عمامتهُ امام الديكتاتور عندما زار الجامع الذي يدير شؤونهُ هذا الشيخ, حلف الشيخ يمين انهُ لن يرتديها مرة اخرى الا اذا خلصهم من بيوت الدعارة التي كانت تنتشر في المدينة لكن الديكتاتور وبهدوء كبير رفع العمامة من الارض والبسها للشيخ وحلف لهُ انه سيقطع رؤوسهن, وبالفعل بعد ايام امر ابنهُ الاكبر الذي كان المسؤول المباشر عما يسمون بفدائيّ الديكتاتور ان يقوم بالقضاء على كل بيوت الدعارة المنتشرة في بغداد, ابن الديكتاتور هذه المرة يقتل نساءهُ بيديهِ, سلمتهُ المخابرات لائحة بكل هذه البيوت واسماء من يدير شبكات الدعارة هذه وكانت حسيبة القوادة على رأس هذه اللائحة, في تلك الفترة ارسل لي احمد رسالة كي اذهب واعرف ماذا

جرى لأمهِ بعد ان سمعَ بالخبر, سألتُ بعض المحلات القريبة وعرفتُ انهُ تم قطع رأسها مع كل البنات الموجودات في البيت معها حينذاك ووضعوا جثثهن في اكياس كبيرة قبل ان يتم دفنهنَ بعد ذلك في اماكن مجهولة.

صمت منذر قليلا وبعد ذلك سألني

- ماذا تريدين بعد
- بطل بيرة...اجبتهُ وانا ابتسم

ذهب للثلاجة واخرج بطل بيرة فتحهُ ووضعهُ امامي, شربتهُ وكأنني اشرب قنينة بيبسي عندها بدأ يضحك لكن دمعة لعينة لم استطع منعها من الخروج, التفت الي منذر فقلتُ لهُ كي ابرر خروج هذه الدمعة

- هذا ابن الكلب دمر حياتي ..انا غبية لو فقط وافقت جاسم, ان اكون قحبة في الخليج افضل من اكون قاتلة في هذا البلد الملعون, عندها انفجرتُ ببكاء حار جعل منذر يقف حائراً امامي, اقترب منذر مني ومسح دموعي فوقفتُ وذهبتُ الى الحمام وغسلتُ وجهي وخلعتُ ملابسي كلها ثم عدت عارية تماما امام منذر, وقفتُ امامهُ كالتمثال, ارتبك قليلا ثم قال لي
- لستِ مُجبرة على فعل شيء. فقط ارتدي ملابسكِ واخرجي
- لا...لا شيء بلا مقابل. افعلها واجعلنا ننتهي

ابتسم بوجهي وقال لي

- منذ فترة طويلة وانا افكر بالهروب من معتز وحزبهِ واعتقد انني سأقومُ بذلك قريبا, لقد فقدت انسانيتي منذ زمن طويل واريد ان اعيش بعيد عن الموت والمؤامرات ما تبقى لي من هذا العمر
- لن تهرب منذر, ولن تخون معتز, ولن تتركني اغادر هذه الغرفة دون ان تجعل عضوك الذكري يقذف لعنتهُ داخلي, لا

داعي لنكذب على بعضنا, افعلها الان وتأكد انك لن تحصل علي ابدا بعد اليوم, تأكد من ذلك

- ابتسم وخلع ملابسهُ ورفعني الى السرير, عندها مثلت دور القحبة على اكمل وجه, القحبة التي اتمناها الان, القحبة التي تركتها بإرادتي لأتحول الى قاتلة ملعونة لا تستحق المغفرة, اعتقد حقا ان الربَّ يمكن ان يغفر للعاهرات والزناة لكنهُ لن يغفر للقتلة, اوقف منذر اهتزاز جسدهِ على جثتي وسألني
- ما بكِ
- لا شيء...لا شيء

سحبتهُ من مؤخرتهِ لأجعل عضوه الذكري يخترق احشائي بالكامل وبدأت اتأوه بصوت عالي قبل ان يزداد اهتزازهُ ويقذف داخلي عندها انفجرت بالبكاء.

(6)

قررتُ ان اقابل معتز واخبرهُ بقراري بالاستقالة من الحزب لكن الشاب ذو البدلة السوداء الذي يجلس عند الباب منعني من الدخول, كان صوت معتز عالياً وهو يسب ويلعن شخص ما ويتهمهُ بالخيانة والتآمر على الحزب, بعد دقائق خرج شاب جميل الهيئة وتبدو عليه ملامح القوة والبأس بعضلات مفتولة وشارب طويل, سألتُ الشاب الواقف عند الباب

- من هذا؟
- سلام عبد الفتاح, أجابني, ثم استدرك, معتز عصبي جدا الان ولا انصحكِ بالدخول عليه

هذا جعلني اترك المقر واذهب الى محل الشاورما واتناول ساندويش كبير قبل ان اعود الى البيت, بعد ثلاثة ايام اتصل بي منذر وطلب مني الحضور الى مقر الحزب وبالفعل ذهبتُ والتقيتُ منذر وقلتُ لهُ انني افكر بالاستقالة من العمل مع الحزب عندها ابتسم وقال لي, الاستقالة عن الحزب تعني الاستقالة عن الحياة ايضا, انتِ تعرفين ان معتز لن يدعكِ تخرجين من باب المقر الا للدخول الى باب الجحيم لكن اسمعيني جيدا, اوضاع الحزب هذه الفترة ليست على ما يرام وعلاقة معتز مع سلام عبد الفتاح وصلت الى حدود القطيعة, والحقيقة ان سلام منذ محاولة اغتيالهِ هناك في الحلة ولحد الان والمشاكل لا تفارقهُ, يقولون ان زوجتهُ سميرة تعرضت للجنون بعد اختفائها لثلاثة اشهر في بساتين الحلة وسلام بدأ الاتصال بأحزاب معارضة للقضاء على معتز, لا اعرف ان

كان هذا صحيحا ولكن الاوضاع سيئة وهذا يجعلني ارتب الامور للهروب من الحزب والبلد كلهُ, اذا احببتِ تعال معي نهرب من كل هذا الجنون, سألتهُ متى؟ فأجابني الامر يحتاج بعض الوقت, اريدكِ الان ان تتصرفي بشكل طبيعي وتنفذي كل اوامر معتز بكل جدية كي لا يشك بشيء.
دخلنا على معتز, كان هادئاً ومبتسماً, اخرج قنينتي عصير وقدمها لي ولمنذر قبل ان يجلس على مكتبهِ, قال لي انه هو من رشحني لهذه المهمة المختلفة والتي ستكون علامة فارقة في عملي داخل الحزب, قال لي مكانتكِ عندي وفي الحزب كلهُ ستتغير اذا ماتمكنت من تنفيذ هذه المهمة بالشكل المطلوب, منذر قال لهُ, اطمئن استاذ فنوال لن تقصر ابدا وستنفذ ما تريد بالشكل المطلوب ولاتوصي حريص, ابتسم معتز عندها دخل علينا شاب ابيض الوجه مائل الى الصفرة ذو شعر يقترب من البياض وتبدو عليه ملامح الجدية والانزعاج وقف معتز وقال لهُ, اهلا ليث تفضل, قدم معتز ليث لنا وقال لهُ هذهِ هي نوال التي ستشاركك في هذهِ المهمة, اخبرنا معتز ان مهمتنا هذه المرة هي اغتيال قس مسيحي يكاد لا يخرج من الكنيسة التي يدير شؤونها, حتى بيته يقع ضمن الكنيسة التي يحميها جنود من خلال سيطرة ثابتة نُصبت بالقرب من باب الكنيسة الرئيسي, اخبرني منذر بعد ذلك ان ليث هذا شاب من عائلة مسيحية متدينة كانت تسكن في الموصل وان اهلهُ سافروا كلهم الى لسويد, هو وحدهُ ترك اهلهُ والتحق بمعتز ولا احد يعرف ما هي طبيعة هذه العلاقة بين معتز وليث لكن يبدو ان ليث يثقُ كثيرا بمعتز ويمشي وراءهُ مثل الكلب, سألتُ منذر لماذا يريد معتز قتل هذا القس, ابتسم واخبرني انه لا يعلم, اكيد ان هناك اوامر عليا جاءتهُ بهذا الخصوص, مِن مَن هذه الاوامر؟, ابتسم وقال لي, هل

تتصورين معتز يعمل لوحدهِ, معتز وراءه دول عزيزتي, هي من تطلب ونحن ننفذ فقط.
في اليوم التالي التقيتُ بليث في مقر الحزب وبدأ يعلمني كيف ابدو امرأة مسيحية, كيف اصلي, كيف احلف, قال لي لا تقولي شيئا دون ان تحلفي ب (العذرا) قلت له ومن هي (العذرا) هذه, قال لي مريم البتول, ام الرب يسوع, اخبرتهُ انني ارى من خلال الافلام الامريكية تمثال كبير لها في الكنائس, قال لي ان هناك تمثال كبير لها ايضا في الكنيسة التي يدير شؤونها هذا القس, سألتهُ هذا يعني اننا سنقتل القس امام (العذرا), فابتسم وقال لي لو طلبوا مني ان اقتل (العذرا) نفسها فلن اتردد.
بعد اسبوع انتقلنا انا وليث للسكن في عمارة تقع مقابل الكنيسة, المفروض انني انا زوجة ليث واننا انتقلنا من الموصل للعيش في بغداد لان ليث حصل على تعيين في وزارة الصحة في العاصمة كمحاسب, ليث كان هادئاً ومرحاً وفي غاية الخلق والدماثة مع الجيران وصامتاً عندما نغلق علينا باب الشقة, رغم ان صمت ليث حيرني وازعجني لكنهُ من جانب اخر انتابني شعور بالراحة والتأمل والحقيقة انني كنت خائفة من ان يطلب مني ليث ممارسة الجنس معي لكنهُ لم يفعل ذلك حتى انني لم اشكل بالنسبة اليهِ أي هاجس, كان هاجس تنفيذ المهمة هو الذي يشغلهُ طوال الوقت لذلك كان يراقب كل شيء ويبقى يراقب تحركات السيطرة المرابطة امام باب الكنيسة لساعات طويلة, في احدى الايام طلب مني ان اصنع له صينية طعام حملها الى جنود السيطرة وهناك تعرف عليهم, كان يقف بقربهم ويحادثهم بين فترة واخرى, في قداس يوم الاحد غسلنا وتطيبنا وذهبنا الى الكنيسة وكانت المرة الاولى التي ارى فيها القس, كان رجل كبير في حدود الستين

من العمر ذو لحية بيضاء يرفع بيدهِ اناء للتبخير قبل ان يبدأ بترتيل آيات من الانجيل المقدس وتبدأ حينها المراسيم الاعتيادية لقداس يوم الاحد, شعور غريب انتابني وانا اقف اردد معهم التراتيل وتمثال (العذرا) الذي يبرز من احدى جوانب القاعة بدى حقيقيا بطريقة غريبة, كنتُ اشعر انها تلتفت الي وتقول لي شيئا لا افهمهُ او ربما لم اكن مستعدة لفهمهِ, بعد انتهاء القداس قدمنا احد الجيران الذي كان يسكن بالقرب من شقتنا الى القس فباركنا القس وعندما وضع يدهُ على رأسي شعرت بقشعريرة غريبة جعلتني اتحرك بصعوبة, تعرفتُ بعدها على السيدة نرجس التي كانت تسكن في الشقة التي تحت شقتنا بالضبط, نرجس كانت ذكية جدا وهي موظفة في وزارة المالية, كانت تسألني عن الموصل وكنت اتهرب بطريقة او بأخرى عن الاجابة واحاول ان اميل بالحديث عن الطبخ والمكياج والملابس مما يثير المرأة ولكي لا افضح نفسي طلب مني ليث ان لا ازور نرجس مرة اخرى, ذهبنا بعدها انا وليث للقس, عندما دخلنا الكنيسة كانت فارغة وكان القس يجلس في احدى الزوايا يقرأ في كتاب, قال له ليث انهُ جاء للتعرف عليهِ, سألهُ القس عن بعض القساوسة في الموصل فأجابهُ ليث بكل تلقائية, كان يعرف كل شيء هناك, بدى القس مرتاحا من ليث وهو يكلمه عن القساوسة هناك وعلاقته بهم قبل ان يباركنا ونخرج, بقينا اسبوع اخر زرنا القس مرة اخرى, كنت اصمت بينما يقوم ليث بالتحاور مع القس عن وضع المسيحيين في البلد الذي بدأ لا يسر عدو ولا صديق, قال لهُ ليث ان يجب علينا ان نجمع الشباب ونشكل ميليشيا للدفاع عن كنائسنا ومقدساتنا فرفض القس هذه الفكرة وقال لهُ ان الكثير من القساوسة يطرحون هذا الرأي الان لكنني اعتقد انهُ غير صحيح فربنا يسوع استقبل العذاب

والصلب من دون ان يقتلَ احداً ونحن لن نلطخ ايدينا بالدماء واذا كانوا سيقتلوننا فليفعلوا وعندها سنقف بالقرب من الرب المصلوب طاهرين ولم تصبنا هذه اللعنة, عندما خرجنا سألتُ ليث, الرجل يرفض ان يقتل احداً, هذا القس مسالم جدا فلماذا نقتلهُ, قال ربما سنفعل ذلك لأنهُ مسالم ففي الحروب عليك ان تشهر سيفكَ والا ستدوسك حوافر الخيول.

اخيرا حدد ليث يوم الاثنين لتنفيذ المهمة, فبعد قداس يوم الاحد طلبت من القس ان التقيهِ لأسألهُ بضعة اسئلة, قال لي تعالي في الغد, اخبرتهُ انني سأزورهُ قبل الساعة التاسعة صباحا, كان هذا الموعد قد حددهُ ليث مسبقاً بعد ان لاحظ ان السيطرة تفرغ في حدود هذا الوقت من خلال عملية تبديل الحراسة, الجنود كانوا يذهبون للتوقيع في سجل الحضور في المقر الذي كان لا يبعد كثيرا عن موقع الكنيسة قبل ان يعودوا لموقع السيطرة, اعتقد انهم كانوا مطمئنين للوضع الامني للكنيسة فلم يسبق ان استهدفَ احداً هذه الكنيسة, كانوا يخافون من السيارات المفخخة ايام اقامة القداس فقط, لكن في باقي الايام كان الروتين يجعل الجنود يتركون السيطرة ويذهبون للأكل وحتى للتمشي في الشوارع القريبة , كانوا يخافون من الضباط الذين كانوا يزورونهم للتأكد من وضع الحراسة وتواجدهم كما هو مسجل في سجل الحضور, قبل ان ادخل للكنيسة لاحظتُ الجنود, كانت مهمتي هي ابقاء القس داخل الكنيسة الى ان يغادر الجنود عندها يدخل ليث ويقوم باللازم, سلمتُ على القس فردَ السلام قبل ان يضعَ يدهُ على رأسي ويباركني بعدها سألني ماذا تريدين ان تعرفي, سحب كرسيين وجلس قبالتي وبعد قليل من الارتباك سألتهُ

- ما هي الذنوب التي لا يغفرها الربُّ
- الذي لا يستطيع غفرانها...اجابني

- الربُّ لا يستطيع غفران الذنوب
- لأنها لا تتعلق بهِ
- كيف ابونا
- عندما يسرق الانسان او يقتل او يخون امانة انسان اخر فانهُ هنا لن ينال الجاني مغفرة الرب الا بعد ان ينال مغفرة الضحية ومن وقع عليها العمل السيء(صمت قليلا ثم استدرك) هذه هي العدالة
- وهل يغفر الانسان ابونا
- احيانا يطلب الربُّ منهُ ان يغفر عندما تكون للجاني اسباب موجبة وحقيقية فالرب يحبُ ابنائهُ, يحبهم بطريقة لا نعرفها او نشعر بها, يحبهم اكثر مما تحب الام ابنها ومما يحب العشيق عشيقتهُ لكن الانسان يخطئ مع الانسان والرب يتألم لهذه الخطايا
- وانت...سالتهُ
- انا
- نعم. هل يمكن ان تغفر

ابتسم وهو يقول لي, ويسوع ما اعرف, هذه القرارات نعرفها في حينها فقط

حينها دخل ليث بهدوء ومن دون ان يشعر القس وقف خلفهُ واخرج المسدس كاتم الصوت عندها انتبه القس, نظر اليهِ ثم التفت الي وقال بهدوء

- لن اغفر لكِ...لن اغفر....

في تلك اللحظة اطلق ليث رصاصتهُ فاخترقت رأس القس لينفض الدم على ملابسي, كان القس ينظر الي بشكل مباشر وكل الذي حصل ان الرأس اهتز قليلا بينما بقت النظرة ثابتة لقرون, لزمن غير معروف, احسستُ بجسدي يتخلى عني, بدأتُ اشعر باختناق وظمأ شديد يحرق احشائي ويخرج من

فمي على شكل تنهيدة هائلة, سقط القس بطريقة غريبة وكأنهُ يسجد تحت قدميَّ, كانهُ يطلب المغفرة مني قبل يسقط على جانبهِ وتقع عينه على عيني مرة اخرى, تحركت شفتاه, كان يقول شيئا مثل

- لن أغفر لكِ ابدا....

سحبني ليث بقوة وانا سحبتُ نظرة القس معي, كان كل شيء مجرد خلفية لعينيَّ القس اللذان يصرخان انهما لن يغفرا لي ابدا, كراسي الكنيسة, بابها الرئيسي, السيطرة الفارغة من الجنود, باب العمارة, السلم الذي يقودنا الى الشقة مباشرة, كل هذا كان مجرد خلفية لعيني القس اللذان يهتزان, يقتربان ويبتعدان واحيانا يرتجان بقوة حسب قوة سحب ليث لذراعي وهو يقول لي

- علينا ان نغادر قبل ان يعود الجنود

دفعني لأغيّرَ ملابسي المبللة بالدم قبل ان يضع الملابس بكيس اسود ويرفع حقائبنا اللواتي كنا قد وضبنا داخلها مسبقا كل ملابسنا واغراضنا, خرجنا وبسرعة نقل ليث الحقائب ووضعها في صندوق سيارتهِ المركونة في الشارع المجاور قبل ان نذهب مباشرة الى مقر الحزب, كانوا في مقر الحزب قد سلبونا موبايلاتنا وسلمونا موبايلات بلا كاميرا, سلمت الموبايل واعطوني موبايلي قبل ان يدخل ليث الى غرفة معتز ويقول لي انتظريني هنا لكنني بهدوء خرجتُ من مقر الحزب وآجرت سيارة وتوجهتُ مباشرة للبيت, عينا القس ما زالتا امامي عندما نظرت الى شاشة الموبايل, كان خالي قد اتصل بي ثلاث مرات من البارحة ظهرا وهذا اثار استغرابي لذلك اتصلتُ بهِ, جاء صوتهُ متعبا وهو يخبرني ان امي قد اغمى عليها بالأمس وتم نقلها للمستشفى, اغلقتُ الهاتف وطلبتُ من السائق ان يعود بي الى المستشفى, عندما وصلت الى المستشفى وجدتُ اخوالي واثنان من اولادهم يقفون في الحديقة

الخارجية بينما اصغرهم يجلس وهو يضع رأسهُ بين يديهِ, قابلني خالي واحتضنني وقال لي

- البقاء لله
- اين هي الان
- في ثلاجة الموتى ..ننتظر ان نستخرجَ لها شهادة وفاة

عندما اخرجوها من ثلاجة الموتى لم يكن شيء فيها قد تغير عن اليوم الذي عدت فيه الى بغداد ورأيتها بعد هذه الرحلة الغريبة, كانت ميتة منذ ذلك الوقت وربما منذ اليوم الذي وجدت استاذ الرياضيات ميتاً في سريرهِ, رفعوها ووضعوها في التابوت قبل ان يتعاون اولاد خالي ويضعون التابوت على سطح السيارة وننطلق الى بيت خالي الكبير.

لم ابكِ, لم أنم ولم اضع لقمة في فمي, بقيتُ جالسة بعد ان ارتديتُ السواد أتأمل النساء اللواتي يلطمنَّ احيانا وينحنَ احيانا اخرى قبل ان يتقدمنَ نحوي يقبلنني او يكتفين بالمصافحة ويخرجنَ, زوجات اخوالي حاولن اقناعي بتناول بعض الطعام لكنني لم اجبهن وكل الذي قلتهُ انني لستُ جائعة, عندما نام الجميع كان صورة الموت تحوم في كل ارجاء البيت وعيون القس تظهر بين الفينة والاخرى من مكان ما في فراغ الغرفة, ربما نمتُ قليلا لكنني لم اشعر بذلك لأنهُ في حدود الساعة السادسة صباحا نهض الجميع وبدأوا بإعداد الفطور للمُعزين من الاقارب الذي امتلأ بهم البيت, رأيت اخوالي يتناقشون حول مصاريف العزاء فذهبتُ اليهم وقلت لخالي الكبير انني سأتكفل بكل المصاريف, اعترضوا في البداية لكن سرعان ما وافقوا فذهبتُ مع ابن خالي واخرجت مليونين من حقيبة اضع فيها اموالي وسلمتها الى خالي عندما عدنا, عندها احسستُ بتعب وخواء شديدين جعلاني اسقط واغيبُ عن الوعي لأجد نفسي في غرفة الطوارئ في المستشفى وكيس المغذي معلق فوق رأسي, بقيت حتى المساء في المستشفى برفقة زوجة خالي الاصغر,

عندما قاسَ الطبيب ضغط الدم, اخبرنا ان كل شيء على ما يرام وانهُ يمكنني الخروج من المستشفى وقال لا تنسي ان تتناولي الطعام والسوائل, طلبت من ابن خالي ان نذهب الى بيتنا, لم توافق زوجة خالي وقالت يجب ان نذهب للعزاء لكنني اخبرتها انني سأكون هناك في الصباح, حاولتْ اقناعي بان تبقى معي لكنني اخبرتها انهم يحتاجونها في العزاء وانني بخير الان,دخلت البيت وارتميتُ على الكنبة واغمضتُ عيني فهجمت علي الصور من كل مكان ففتحت عيني بسرعة وذهبت الى المطبخ, فتحت الثلاجة وجدت هناك قنينة عصير مع الكعك ابو السمسم, اكلتُ قطعتين من الكعك واخذت قدح كبير من العصير قبل ان انتبه الى كيس الادوية فتحت ووجدت حبوب منومة تناولتُ قرصين وتمددتُ على الفراش, كنت مُتعبة الى درجة لا تصدق لذلك نمتُ هذه المرة ومن دون ان افكرَ او اتذكر أيَّ شيء.

قفزتُ من فراشي على صوت طرقات قوية للباب, هرعتُ وفتحت الباب فوجدت ابن خالي, اخبرني انهُ يطرق الباب منذ حوالي الربع ساعة وانهُ جاء للاطمئنان علي, قلت له انني بخير واخبرتهُ انني سأغيّر ملابسي والحق بك الى العزاء, مر اليوم الاخير من العزاء بشكل اعتيادي, كان الكل مشغول بإعداد وليمة اليوم الثالث, وكان خالي يبدو مرتاحاً بعد ان وضعتُ المليونين بين يديهِ, ورغم ان نعي الملاية التي جاءت لإحياء اليوم الثالث من العزاء كان حزينا لكنني شعرتُ بانها تستجدي المشاعر فقط وان كل ما تقولهُ لا يعنيني لذلك طمست راسي بين يدي عندها برزت امامي عيني القس, فرفعتُ راسي وانفجرتُ بالبكاء, سألني خالي عن زوجي وعدم حضورهُ للعزاء فأجبتهُ انه لم يعد من السفر وانه سيعود بعد اسبوع, كانت امي اخبرتهم انني واحمد سافرنا للأردن من اجل العمل لذلك لم يلمنني احد على أيِّ شئ او يسألونني الا في اليوم

الاخير بعد ان رفعوا سرادق العزاء, طلب مني خالي ان ابقى فرفضتُ وقلتُ لهُ اريد ان ارتاحَ قليلا.
بعد ثلاثة ايام زارتني سُهيلة, بدتْ متأثرة بشكل منافق ومُقرف, سألتني ان كنت احتاج الى شيء فشكرتها وبقيتُ صامتة, صمتي وعدم مبالاتي جعلها تفتح حقيبتها وتخرج ظرف وتدفعهُ نحوي, قالت لي هذه ارسلها معتز, سألتها ما هذه فأجابتني انها مكافأة العملية الاخيرة, اعدتُ اليها الظرف وقلت لها بهدوء

- سهيلة ..سلمي لي على استاذ معتز واخبريه انني لن اعمل في الحزب بعد الان...استقلتُ

ذهبتُ واخرجتُ ورقة وكتبت استقالتي وسلمتها الى سهيلة ضحكت سهيلة قبل ان تتجهم وتقول لي

- نوال ..كوني عاقلة, لن يسمحوا لكِ بذلك
- اذا اخبريهم انني سأكونُ هنا في هذا البيت مستعدة للموت متى ارادوا ذلك
- يبدو انكِ مُتعبة الان, سأتركك واعودُ اليكِ بعد ايام

قبل ان تخرج وضعت الظرف على الطاولة وحاولت ان تغادر لكنني ناديتها بجدية فوقفت, وضعت الظرف في يديها وقبل ان تلتفت سألتها

هل كان معتز يعلم بعلاقتنا

وضعتْ الظرف في حقيبتها وابتسمت وقبل ان تغادر التفتت وقالت لي

- هو من ارسلني اليكِ

غياب احمد سبب لي احراجاً كبيراً امام زوجات اخوالي اللواتي كنَّ يزرنني بين اليوم والاخر, اعتذرتُ بأعذار كثيرة كان اخرها اننا تخاصمنا وخرج زعلان من البيت وهذا جعلني اطلبُ من سهيلة التي زارتني بعد حوالي عشرة ايام من زيارتها الاولى ان تطلب من معتز ان يرسلَ لي احمد, كانت

زيارة قصيرة لم تستطع فيها سهيلة من الكلام بعد طلبي هذا لذلكَ خرجت ووعدتني انها ستتصل بي, بعد ثلاثة ايام اتصلت بي وقالت لي ان احمد لن يستطيع الحضور وانني اذا احببت رؤيتهُ فعلي ان اذهب في الغد الى مقر الحزب عندها ساجدهُ في مكتب معتز, ذهبتُ في اليوم الثاني وكنتُ اعرفُ ان معتز يريد رؤيتي وانني قد لا اجد احمد هناك, لكن احمد دخلَ علينا بعد دقائق من وصولي الى مكتب معتز واول ما رآني اقتربَ مني وقال لي بهدوء

- كيف حالك نوال
- اهلا..اهلا ..احمد حسيبة

ابتسم معتز بينما تغيرت ملامح احمد لكنهُ لم يقل شيئا وجلس.
قال لي معتز, هذا احمد, ماذا تريدين منهُ, قلتُ لهُ قبل ذلك اريدك ان تعرف قراري وهو قرار نهائي ولا رجعة فيهِ ومهما كلفني ذلك, هز معتز رأسهُ, فقلت له انني لن اعمل مرة اخرى لصالح الحزب ولن اشارك بقتلِ أيِّ انسان بعد ذلك اما انت يا احمد فأريدك ان تطلّقني الان, سألني معتز وماذا سأفعل بعد ذلك, كيف سأعيش اخبرتهُ انني سأسافر الى اخي مؤيد في استراليا, عندها وقف معتز وقال لي بهدوء غريب

- مسألة طلاقكِ من احمد سهلة, ومسألة عدم مشاركتكِ في عمليات الاغتيال ايضا سهلة لكن قضية سفركِ وخروجكِ من الحزب مستحيلة

عندها وقفتُ وبعصبية كبيرة قلتُ لهُ

- سأخرج من الحزب حتى لو الى القبر

ابتسم ومسدَ على شعري وقال لي

- لا ..نوال. آنت عزيزة علينا ..فقط لا تكوني ناكرة للجميل

- نعم انا ناكرة للجميل استاذ معتز, الجميل الذي انقذني من ان اكون قحبة في الخليج وحولّني الى قاتلة هنا, شكرا لكم سيدي ..اتركوني ولن انسى جميلكم هذا ما حييت

لغتي المستهزئة جعلت معتز ينفعل قليلا لكنهُ سيطر على نفسهِ وقال لي

- حسنا ..سيطلّقكِ احمد, وسأقوم بنفسي بتسفيركِ الى استراليا ولكن ليس قبل ان تنفذي المهمة الاخيرة

صرخت بعصبية

- لن اشارك بقتل أيِّ شخص, اقتلني ولكنني لن اقتل أيَّ انسان بعد الان
- لا. مهمة بلا قتل هذه المرة, لن يموت احد...كل ما في الأمر ان هناك ما اريدُ ان اعرفهُ عند انسان ما, وأنت ستجلبين لي ما اريد معرفتهُ
- من دون قتل
- من دون قتل
- استاذ معتز ..انت لا تتلاعب بي
- لا, هناك امرأة ما تهمني كثيرا, هي الان في السجن متهمة بقتلِ زوجها, قصة هذه المرأة تهمني كثيرا, ستدخلين معها في السجن وتعيشين في نفس الغرفة معها ولا اعتقد انكِ ستجدين صعوبة لتجعليها تُخبرك بكل ما اريدُ معرفتهُ, بعدها سأتركك ترحلين الى اخوكِ في استراليا..
- استاذ معتز ..انت لا تكذب علي
- انا بحاجة الى هذه القصة ..اما انتِ فلا تهميني بشيء ما دمتِ لن تبقي في البلد
- حسنا...دع احمد يطلّقني وبعدها اخبرني ماذا افعل

خابرت خالي وطلبتُ منهُ ان يحضر معي ليشهد على الطلاق, في نفس اليوم حضر احمد ومعهُ شيخ معمم وكان خالي حاضرا واكملنا ترتيبات الطلاق.

المحاكمة

سميرة: هذا كل شيء, كل القصة
نوال: لا هناك شيء اخر, نسيتهُ او تناسيتهُ
سميرة: ماذا
نوال: ان تمثال (العذرا) كان يبكي وتنزل الدموع من عينيهِ لتفترشَ ارضية الكنيسة بينما ليث يطلق رصاصتهُ على رأس القس...كانت تبكي على القس بالتأكيد
سميرة: لا. كانت تبكي عليكِ
نوال: وانتِ على من تبكين الان
سميرة: عليكِ ايضا, لقد وصلني كل هذا الوجع و الحيرة والخوف منذ اللحظة التي عرفتِ فيها ان عصام كان سمسار نساء فقط, ولهذا بكيتُ
نوال: والان, ماذا افعل
سميرة: لا شيء, سأتصل بمعتز وأنهي هذه القصة
نوال: وهل تنتهي فعلا
سميرة: لا ..طبعا ..ولكنني لا استطيع ان اتدخلَ في هذا الأمر, هم وحدهم يستطيعون منحكِ المغفرة او الجحيم
نوال: انا استحق الجحيم بالفعل ولكن هناك ما لا افهمهُ, انت والعذرا بكيتما علي, لماذا, لماذا وانا امرأة من جحيم
سميرة: لأننا نُحبكِ, المحبة هي من تجعلنا نبكي على الانسان وهو يرتكبُ خطاياه

نوال: اذا لماذا هذه القصة منذ البداية, لماذا لم تأخذ الامور طريقا اخر, ما الذي دلَّ عصام على باب بيتنا ليطرقهُ ويجعلني ادخل في هذا الكابوس, اعترف, نعم سميرة, انا اعترف بكل خطاياي ولكنهُ اعتراف مُحمل بعدد هائل من الاسئلة وعليكم ان تجيبوا, انتِ او الرب او العذرا عليكم ان تجيبوا على هذا الاسئلة فقط لتكتملَ قناعتي بهذا الجحيم
سميرة: حسنا. تعالي

كان كل شيء هادئاً فالساعة يبدو انها قد تجاوزت منتصف الليل والسجن تخنقهُ الوحشة بطريقة غريبة بينما كنتُ اشعر بانتعاش كبير بعد ان اخبرتُ سميرة بقصتي, سميرة التي بدأت تسّبح وتحّمد قبل ان تقودني من يدي الى سريرها وتقول لي
- نامي
افترشتُ السرير, وضعتْ يدها على جبهتي وبدأتْ تتلو بعض الادعية والتراتيل التي اسمعها للمرة الاولى عندها بدأ الخدر يتسلل عبر قدمي الى بطني وصدري فيشلُ رقبتي قبل ان يصل الى رأسي ويجعلني اغطُ في نومٍ عميق وربما غيبوبة غريبة.
ها انا اقفُ في الطريق الذي يتكون من شارعين تفصل بينهما الاشجار القليلة الارتفاع والتي لاتغطي ظلالها الا جزء صغير منهُ, محلات تصليح السيارات والبقالة وبيع المواد الإنشائية وكذلك محلات الموبايل وافران الصمون والخبز كلها مقفلة, اختفت السيارات والمارة لتجعلني وحدي امشي في شارع لا يريد ان ينتهي, الشيء الوحيد الذي تغيرَ في هذا الشارع هو نهايتهُ التي كانت تقع على طرفها الايسر اعدادية للبنات وعلى طرفها الايمن محلات استنساخ وبيع لوازم مدرسية, اختفت المدرسة والمحلات ليغطيهما جسر كبير يرتفع الى السماء, الجسر ايضا كان متكون من شارعين يفصل بينهما سياج حديدي, بدأتُ احثُ الخطى لأصلَ

الى ذلك الجسر فلم افهم كيف تمكنتْ الحكومة من بناءهِ بهذه السرعة, وصلتُ اليه وعندما وضعتُ خطوتي الاولى على الجسر رأيتُ ان هناك عالما يقع في الاعلى, هذا الجسر لا ينزل في الجهة المقابلة وكل ما هو مطلوب هو الوصول الى اعلى نقطة فيهِ, بدأتُ اقترب عندها رأيتُ بوابة كبيرة مصبوغة بلون اخضر وعلى جانبيها سياج حديدي يستمر في الجانبين الى اماكن لا يمكن لنظري الوصول اليها, في الجزء العلوي من البوابة كانت هناك لافتة كبيرة مكتوب عليها بخط نسخ ازرق بارز (الجنة) وامام هذه البوابة يستقرُ مكتب خشبي طويل تتزخرف جهتهُ الامامية بدبابيس من النوع الذي يشبهُ نبات الفطر ذات الرأس الكبير والمسمار المدبب, هذه المسامير الملونة شكلت وروداً غطت الواجهة الامامية للمكتب, في منتصف المكتب يجلس شيخ كبير ذو لحية بيضاء قطنية المظهر, كانت شراييهُ واوردتهُ تسير تحت طبقة شفافة من الجلد مولدة ممرات وردية اللون واضحة المعالم اما عيناهُ الواسعتان وشفتاهُ الموردتان فكانت تمنع الانسان من النظر الى أيِّ شيءٍ سواه, خلف الشيخ يقف شابان عاريان إلا من لباس يغطي عوراتهما, كانا جميلان وقويان ويبرز من خلفهما جناحان ابيضان كبيران, على الجانب الايمن من الشيخ يجلس رجل قصير القامة ذو ملامح حادة يكتبُ شيئا ما في سجل كبير امامهُ وعلى يسار الشيخ يجلس رجل طويل وضعيف البنية ينظر اليَّ بين الحين والاخر فتسقط دمعة منهُ يلتقطها برداءهِ قبل ان يلتفت بعيدا عني, اشجار الصفصاف والنخيل واشجار اخرى كانت تمتد من الداخل على طول السياج الخارجي للجنة واصوات طيور كثيرة صمتت كلها وبشكل مفاجئ عندما وصلتُ واشار لي الرجل القصير ان ادخل الى غرفة صغيرة مصنوعة من قضبان حديدية لها باب من الخلف اغلق لوحدهِ بمجرد ان دخلتُ الى داخل هذا القفص, على الجانب الايسر من المكتب يجلس القس وخلفهُ كل

الضحايا الذين رأيتُ جثثهم ملفوفة ببطانيات وسجادات قبل ان اخرج, حتى ابو يوسف وابو ابراهيم واخرين اراهم لأول مرة اعتقد انني كتبت تقارير عنهم من دون ان اراهم وسلمتها حينذاك لأ حمد حسيبة, على الجانب الايمن ابي وامي كانا يجلسان قرب بعضهما وهما يقلبان اوراقاً ويتناقشان بشكل حاد, الاشياء هنا تبدو معزولة ومترابطة بطريقة ما, موجودة ومفقودة ايضا, حقيقية وخيالية ولكنها صادقة وخالية من الانفعالات وكأن العالم يسير بشكل ابطأ او بكلمة ادق اهدأ فلا داعي للانفعال مادامت المعرفة ممكنة وما دامتْ هناك اجابات لكل الاسئلة, لم اكن خائفة كنتُ اراقب فقط ولم اكنْ اعرف ما يجري او اتأمل ان تسير الامور بشكل معين فكل الذين يمتلكون المعرفة امامي وكل ما سأفعلهُ انني سأركز على كل ما يقال واحاول ان استوعبَ المشهد, في هذه اللحظة وقفَ الرجل القصير وصاح بأعلى صوتهِ

- محكمة

اشارَ الرجل الطويل للقس لكي يبدأ بمرافعتهِ

القس- ايها القاضي العادل

ونحنُ نقفُ بين يديكَ علينا ان لا نفكر كثيرا في شكل العدالة بل نراها فقط ولأنك تمنحنا فرصة المعرفة والاكتشاف, فرصة ان نقرر مصير من تعدى على حياتنا وحريتنا وقادنا قسراً الى الموت, وبالرغم ان هذه الفتاة لم تطلق الرصاصة لكنها هي من وضعتنا في طريقها, بالتالي لا اهمية للرصاص الذي يخترق الهواء فقط ولكن اهميتهُ عندما يعترضهُ جسدٌ ما وهذه المرأة قامت بالجزء الاهم من عملية القتل وهي انها وضعتنا في طريق الموت, الموت الذي جاء قسراً وبشكل مخطط لهُ وحتى من دون ان تعرف السبب, هل يمكنها ان تعطيني سبب واحد لقتلي, هل كانت تعرفني او تعرف أيَّ من هؤلاء الضحايا, هذه الفتاة تحولت الى آلة للقتل من دون أيِّ تفكير, لقد الغت عقلها الذي كرمها

الربُّ بهِ لتتحول الى رصاصة تخترق الاجساد ومن دون معنى او سبب لذلك باسمي وبالنيابة عن هؤلاء الضحايا نطالبُ باقسى العقوبات بحقها واننا لا يمكن ان نغفرَ لها ما دام الامر متعلق بنا ..وشكرا

الاستاذ نوري- شكرا لكم ايها القاضي العادل لأنك منحنتني فرصة الدفاع عن ابنتي رغم انني ادرك انني لن اكونَ قادراً على اقناعكم او اقناع الضحايا لمنحها المغفرة ولايمكنني ان انكر كل ما قامت به من جرائم, نعم هي كانت الرصاصة التي قتلت كل هؤلاء, انا اعترفُ بذلك, ونعم ايضا انها سلبت ارواح هؤلاء قسرا بل وقامت بأشياء اشمئزُ منها كأب, ربما من المفترض ان اكونَ اول من يعاقبها ولكنني مدرس رياضيات واعرفُ جيدا ان المقدمات الخاطئة تقود الى نتائج خاطئة ايضا والمقدمات الآثمة ستقود الى نتائج آثمة وفي حالة مثل حالة نوال فمن هو المسؤول عن صناعة هذه المقدمات, مَن؟ ..ها...
الام- عصام
استاذ نوري- لا ..عصام كان شيطاناً فقط, نحن من سلمها للشيطان وجعلهُ يفعل بها ما يشاء, نحن ايها القاضي العادل السبب الرئيسي في كل هذه الجرائم, نحن ايها القس من حولها الى رصاصة قاتلة, واذا كان هناك من يستحق العذاب والجحيم فنحنُ فقط من يستحق ذلك
القس- ولكنكم لم تكونوا تعرفوا, عدم المعرفة يبرء ساحتكم
استاذ نوري- هل حقا لم نكن نعرف, لقد سلمناها من دون حتى ان نسأل, الدولارات أغشت عيوننا وجعلتنا نبيعها من دون ان نفكر, كان علينا ان نتأنى او حتى نذهب معها الى الاردن ولكن الدولارات جعلتنا لانفعل شيئا, ببساطة لقد بعناها وقبضنا الثمن ولم يكن بمقدورها مواجهة العالم, لم تكن اكثر من فتاة بريئة لا تعرف شيئا عن هذا العالم
القس- لا تعرف شيئا (باستهزاء)
استاذ نوري- نعم لا تعرف شيئا اما ما حدث لها بعد ذلك فلم تستطع مقاومتهُ, لقد حاولت ولكن السيل عالي ويداها ضعيفتان, في الحقيقة

..نعم ..في الواقع..(يوجه كلامهُ نحو الشيخ)..اسف ولكنني لا افهم كيف يسمح الربُّ ..نعم... اعتذر لهُ, واستغفرهُ, واتوبُ اليه ..لكن كيف يسمح بكل هذا, كيف يضع ابنتي بمواجهة كل هذه القسوة والخديعة والوجع ومن دون مقدمات.
القس- وهل تعتقد ان الربَّ هو من فعل ذلك. غفرانكَ
استاذ نوري- انا لا اعرف ..اعتقد ان هناك شيئاً خاطئا, شيئا كان يجب ان لا يحدث, قضية ان تواجهَ فتاة مثل ابنتي بشاعة العالم وفي وقت واحد لا استطيع استيعابها
الرجل الطويل- انت قلت ..انك انت السبب.... انت من سلمها لهذهِ البشاعة
استاذ نوري- ليس سببا واحدا, انا واحد من اسباب كثيرة, مثلا هذا الملعون الذي أدخل جيشهُ الى لكويت وجعل حياتنا تتحول الى نوع من الركض المجنون وراء لقمة العيش, ألم يكن سبباً, عصام وجاسم واحمد حسيبة ومعتز, هؤلاء الشياطين, أليسو اسباباُ
الرجل الطويل- ربما يكونوا هم ايضا ضحايا, احمد حسيبة تربى في بيت دعارة, ماذا نتوقع ان يكون مستقبلهُ
استاذ نوري- ولهذا اقول ان على الرب ان يتدخل, على الاقل يفسر لنا هذه المعادلة التي لاتتزن ابدا, الضحية التي تتحول الى جلاد لضحية اخرى ستتحول الى جلاد اخر وتستمر هذه السلسلة التي لانعرف فيها من هي الضحية ومن هو الجلاد
القس- هذهِ سفسطة, فكل شئ بيّن, وعلى الانسان ان يكونَ ذاتهُ دائما
استاذ نوري- ولكنك لم تغفر لها ايها القس وربما لو عشتَ لفترة اطول لتحولتَ الى جلاد اخر ..من يدري؟
القس- مستحيل
استاذ نوري- المستحيل ايضا ان تتحولَ ابنة استاذ الرياضيات التي ربيتها على الاخلاق والانسانية الى وحش يقتل كل هؤلاء الجالسين امامي, ياسيدي الانسان كائن هش وتحولاتهُ ممكنة جدا ومتوقعة تحتاج

فقط الى دوافع حقيقية, بالتالي فالخطيئة في هذهِ الدوافع لا في الانسان نفسهُ
الرجل الطويل- لكن لهذه الدوافع مسببات فلكل شيء سبب ولا داعي هنا للمحاسبة او المحاكمة ما دامت هناك اسباب او دوافع ..هذا الذي تريد ان تقولهُ استاذ نوري
استاذ نوري- ليس بهذهِ الطريقة
الرجل الطويل- بأيّ طريقة اذاً, فحتى الذين قادوا ابنتك الآثمة هذهِ الى الخطيئة, هم ايضا لديهم دوافعهم واسبابهم, هل تعتقد انهُ لا يجوز هنا محاكمتهم او ادانتهم على الاقل بما فعلوهُ بأبنة استاذ الرياضيات التي تربت تربية صالحة وانجرفت مع اول سيل الى بحيرة الخطيئة, الا تعتقد ان هذه معادلة خاطئة
استاذ نوري- ولكن ياسيدي عندما تكون داخل مؤامرة محبوكة بطريقة جنونية ومخطط لها بذكاء كبير تفقد أيَّ فرصة للاختيار وهذا ما حصل مع ابنتي بالضبط, كل هؤلاء كانت لديهم مساحة للاختيار ولكن نوال لم تكن لتختار الا ما خطط لها مسبقاً,
القس- كيف
استاذ نوري- هل تعرف ايها القس ما هي نقطة ضعف أي امرأة
القس- للمرأة نقاط ضعف كثيرة
استاذ نوري- لكن نقطة ضعفها الاقوى هو الحب, نعم ياسيدي(يوجه كلامهُ للرجل الطويل), نعم ايها القاضي العادل(يوجهُ كلامهُ للشيخ), حبها لأحمد حسيبة هو الذي منعها من ان تختار الصحيح في سوريا, لقد قاومت جاسم عندما كان عليها ان تدافع عن شرفها وانسانيتها, تحملت الضرب والاهانات من اجل ان لا تبيعَ جسدها ولكن الحب جعلها تبيع روحها لأحمد حسيبة, تصوروا ايها العالم, الحب هو الذي حولّها الى هذا الكائن القاتل, كل خطيئتها انها احبت رجلاً ووثقت فيهِ, الحب هنا هو الخطيئة
القس- الحب لا يمكن ان يكونَ خطيئة

استاذ نوري- ولكن يمكن ان يقود المؤمنين بهِ اليها
الرجل الطويل- كان يمكن ان تقف عندما اكتشفت الخديعة,
استاذ نوري- كانت تحتاج الى هزة حقيقية لتوقفها وهذا القس الطيب كان تلك الهزة.
القس- لقد تأخرتْ كثيرا
استاذ نوري- كل ما في الامر انها كانت بلا خيارات, وفي الحقيقة انها لم تكن تعرف اين تضع اقدامها, عندما تختلُ الحياة بهذهِ الطريقة تختل معهُ كل انماط التفكير حتى نصل الى الحد الذي لا نستطيع معهُ فلسفة أي شيء, نقوم بخطيئتنا وكفى, انهُ اقوى انواع المخدرات, غياب هائل عن الوعي يحتاج الى صفعة قوية لانعرف متى تحدث.
القس- لكن ما ذنبنا نحنُ, انت تفكر بابنتكَ فقط, ونحن الذين فقدنا حياتنا من دونِ أيِّ سبب
استاذ نوري- من دون أي سبب. هل انت متأكد
القس- نعم. لم تكن تملك سبباً واحدا لقتلنا
استاذ نوري- هي لم تكن تملك سبباً ..نعم. ولكن المجتمع كان يملك اكثر من سبب, مثلا ابو ابراهيم كان ضابطا في جهاز مخابرات الديكتاتور, هل تعرف ماذا فعل هذا الجهاز بالناس, هل يمكن ان نعد خطياهم, اسأل الجدران وستخبرك بكم المآسي هناك, كلكم كنتم تستحقون القتل, ومعكم معتز واحمد حسيبة والجميع, انتم السبب الحقيقي للخراب, الديكتاتور وكل هذه الكائنات المختلة التي اعتلت كرسي السلطة بعد 2003 لم يكونوا ليصنعوا كل هذا الخراب لولاكم, لولا مصالحكم الضيقة واندفاعكم خلفها مثل المهووسين, لقد صفقتم للقائد الضرورة وصفقتم للعمامة الفاسدة وصفقتم للشيطان, والعدالة هي من حولت نوال الى شيطان آخر لتحاسبكم حتى من دون ان تفهم
القس- وانا, انا لم اصفق لأحد...بالعكس...قتلوني لأنني رفضتُ كل الذي ذكرتهُ, رفضتُ كل احزابهم وميليشياتهم و ان يتحولَ الدين الى

بندقية, رفضتُ ان اكون جزء من خرابهم, كل خطيئتي انني كنتُ افضح نواياهم, انني كنتُ اقول ما يجب ان يُقال
استاذ نوري- العدالة تحتاج الى مسيح يُصلب وحسين يُذبح لتجعل الاخرين يرون بشكل حقيقي طريق الحقيقة, وأنتَ كنت هذا المسيح, ولكنكَ لستَ نبيا وما زال لا يمكنك تلمس طريق المغفرة, ارجوك...اغفر لها, لا يهمني كل هؤلاء, انتَ وحدكَ تهمني ان تغفر لها, فانت الوحيد الذي جعلتها تعرف جيدا ما هي فيهِ من خطيئة, ارجوك ايها القس, بل اتوسلُ اليك, اغفر لها وكن مسيحاً حقيقيا.
القس- (يصمت, يذهب ويجلس وبهدوء يقول)..صعب. صعب جدا. لم اكن اتصور ان تكون المغفرة بهذه الصعوبة
الرجل الطويل – (موجها كلامه الى القس)..هل تحتاج الى وقت للراحة والتفكير
القس- نعم ياسيدي
يلتفتُ الرجل الطويل الى الشيخ فيومأ الشيخ برأسهِ بعدها يلتفت للجميع
الرجل الطويل- استراحة نصف ساعة ونعاود المحاكمة
يختفي الشيخ والرجل القصير والطويل والشابان بينما يبقى الاخرون جالسون في اماكنهم.
فجأةً يلتفت الجميع الي, يقتربون مني الواحدة تلو الاخر, تحاول ايديهم الوصول الى عُنقي فابتعد عنهم, تتحول وجوههم فجأة الى وجوه ذئاب تحاول ان تنفلت من بين القضبان الحديدية وتصل الي, يتعالى الصراخ وتتكاثر الأيادي وتحاول الاسنان المدببة الوصول اليَّ بكل قوة قبل ان يدفعهم القس فيبتعدون ويذهبوا للجلوس في كراسيهم كل واحد في مكانهِ السابق, ينظر اليّ القس, يتأملني بهدوء فاجثو على ركبتي وابكي, اضع رأسي بين يديَّ قبل ان ارفعهُ واجد القس ما زال يتأملني بصمت.
رغم اننا كنا قريبين جدا لكننا في عالمين مختلفين, هذا الشعور لم يكن يفارقني طوال الجلسة, الامر اشبهُ بمراقبة هذه المحكمة من خلال

جهاز تلفاز, صورتي ايضا تظهر عندهم ربما من خلال جهاز اخر, لكن ابي بدى حقيقياً وقريباً بطريقة كسرتْ هذه العوالم وجعلتني اقتربُ منهُ واشم عطرهُ من دون ان اجرؤ على لمسهِ, سألني بهدوء

- كيف اصبحتِ الان
- لا اعرف يا أبي. لماذا لم تنتظرني فقط
- كانت فكرة ان اراكِ مرة اخرى هي الجحيم بعينهِ
- لو انني فقط وجدتك عندما عدتُ لتغيرَ كل شيء
- مُقدرٌ لها ان تجري الامور هكذا يا ابنتي
- صحيح. لماذا نحن امام بوابة الجنة, كنتُ اتصور ان تكون محاكمتي امام الجحيم
- ليس هناك جحيم...عدم دخول الجنة هو الجحيم فقط
- كيف
- الجنة ليست الاشجار ولا الطيور وانما هي احساسنا بالأمل
- الامل بأيّ شيء
- برؤيتهِ يا ابنتي
- الجحيم فقط هو عدم امكانية ذلك
- الرؤية
- نعم. الرؤية هي الجنة وعدمها هو الجحيم
- وهذه البوابة والاشجار والطيور
- مجرد طريق اليهِ, هو هناك خلفها ينتظر ان نغفر لبعضنا فقط
- وهل سأنال انا هذه المغفرة, هل هذا ممكن
- أظنُ ذلك...فهذا القس مسيح حقيقي وسيغفر بالنهاية
- وكيف أراه بعد كل ما فعلت
- سيكون كل شيء على ما يرام عندما نكون امامهُ
- ابي...ماذا سأقول لهُ
- لاشئ...روحكِ هي من ستخبرهُ بكل شيء, ستنام بين يديهِ كعصفور متعب, وتذوب فيه بعد ان تتخلص من كل دنيويتها,

كل آثامها وغربتها, كل حيرتها وقلقها, ستمتلك المعرفة الكاملة وسترى الحقيقة بشكل الكامل, هي اللحظة الاهم, لحظة العودة الى حضن الحقيقة, لحظة الصدق والمعرفة الكاملة.

- واذا لم يغفروا لي
- ابنتي ..كل المسألة تتعلق بالمحبة, عندما نعرف محبتهُ لنا سيتحول شغفنا برؤيتهِ الى جحيم حقيقي, سيكون الضياع والانتظار والرجاء بهِ, ولا اعتقد انه يخيّب الرجاء وربما بعد زمن, المسألة تتعلق بالإنسان هنا, في الحياة سنرتكب الخطايا, سنقتل بعضنا, سنكرهُ بعضنا ونعذب بعضنا البعض الامتحان هنا قدرتنا على المغفرة, مغفرة الاخر الذي كان سبباً بعذاباتنا, الكثيرون لا يستحقون هذه المغفرة لكنكِ تستحقينها ولهذا ادافع عنكِ, ليس لأنك ابنتي وانما لأنك تستحقين المغفرة
- هل حقا استحقها يا ابي
- هذا القس سيكون هو المقياس فهو سيمنحكِ ما تستحقين بالنهاية

فجأة ظهر الشيخ والرجلان القصير والطويل وهم يجلسون في اماكنهم خلف المكتب الخشبي وكذلك الشابان بأجنحتهما الناصعة البياض والتي تظهر من خلف ظهورهم, وقف الرجل القصير وصرخ بصوت عالي

- محكمة

وقف الرجل الطويل وتكلم بصوت واثق وبنبرة حادة

الرجل الطويل- الان وبعد ان انتهينا من المجادلة والحوار على القس ان يتخذ قرارهُ ولكن قبل ذلك دعونا نستمع لمداخلة اخيرة للأستاذ نوري وبعدها سنسمع قرار القس..

الاستاذ نوري- ايها القاضي العادل. أيها القس الطيب

في البداية كنتُ افكرُ فقط في انقاذ ابنتي لأنني اعتقد انني انا من ورطّها بكل هذه الجرائم وكنتُ سببا اساسيا في دفعها الى هذا العالم

المختل, لكن الان انا اريد الحقيقة, لا اقول العدالة فهي صعب تحققها او ربما صعب علينا ان نفهم الطريقة التي يمكن ان تتحقق فيها ولكن الفكرة, فكرة المغفرة لبعضنا, المغفرة التي يجب ان تكون طريقنا اليهِ ولذلك وقبل ان اطلب من القس ان يغفر لأبنتي نوال اطلب من نوال هذه المرة ان تغفر للجميع, ان تغفر لي اولا ولأمها ثانيا وكذلك لعصام واحمد حسيبة والجميع, وبعدها فللقس ان يقول كلمتهُ الاخيرة
فجأة اتحول الى هواء داكن يخترق عوالم غريبة, شعور بالانفلات ينتابني بقوة, يجعلني اترك نفسي واتحول الى كائن هلامي يندلق في الكون ويتسلل من بين المجرات حتى يصل الى مكان المحاكمة, رأيتُ الشيخ, كانت عيناه تنظران اليَّ بشكل مباشر, هذه النظرة منحتني شعوراً بالارتياح رغم انني ما زلتُ اعيش نشوة الانفلات تلك, نظرت الى القس فابتسم ابتسامة خفيفة وهزَ رأسهُ قبل ان يمسك ابي يدي ويقودني بمواجهة الشيخ ويقول لي بشكل جدي وكأنهُ ما زال في الصف يطلب من احد تلاميذهِ حل مسألة رياضية صعبة.
استاذ نوري- نوال ..اسمعيني جيدا, الخِيار لكِ الان, قبل ان اطلبَ من القس ان يمنحكِ المغفرة اطلبُ منكِ ان تمنحيها للجميع
نوال- للجميع يا ابي
استاذ نوري- للجميع. وانا اولهم
نوال- ابي رغم انني لا اعتقد انكَ فعلت ما يستحق المغفرة ولكن امنحك اياها, ولأمي وربما لأستاذ منذر لأنهُ كان صادقاً معي, لكن الاخرين ...
فجأة هجمت الصور على مخيلتي, عصام وهو يغلق باب الشقة ويذهب, جاسم وهو يضربني بقوة, احمد حسيبة وهو يطلّقني من دون أيّ مشاعر وبعد ان حولّني الى هذا الجحيم, سهيلة وهي تلعب دور العاهرة وتجرني للعبتها القذرة, معتز وهو يطلب مني اغتيال القس, احسستُ بقهر حقيقي, قهر تشظى داخلي الى براكين ثائرة جعلتني اقفز امام الشيخ وانا اصرخ

نوال- لن اغفر لهم...عذبوني...ارموني في الجحيم لكنني لن اغفر لهم, لن اغفر لهم...لا استطيع يا أبي...
فتحتُ عيني, كان الصباح قد نهضَ من نومهِ قبل ساعات لكن السجن ما زالَ هادئا بينما سميرة تجلسُ على سريري تتأملني, وقفتُ واقتربتُ منها وقلت لها بقوة
نوال- لن اغفر لهم, لا استطيع
ابتسمت سميرة وهي تقول لي
سميرة- لابأس, تحتاجين فقط الى وقت للتفكير والتأمل فالجرح ما زال ينزف وانتِ لم تخرجي من الجحيم بعد
نوال- ارجوكِ, خلصيني ..لم اعد قادرة على الاحتمال
سميرة- اطمئني, سينتهي كل هذا قريبا جدا

البدايات

- سلام, ارجوك, دعْ غيركَ يفعلُها
- ما الفرق
- لا أُريدكَ ان تكون هابيل اخر
- هابيل...لكن اباك عبد الفتاح لم يكنْ نبيا
- امكَ هي النبي هذه المرة

عطية كان يعرف ان اخاهُ سلام سيضغط على الزناد في النهاية هذه المعرفة قديمة جدا منذ ان ادركَ ان لامجال للنفاذ لقلب سلام وان الشيطان الراقد داخل روحهِ توغل بشكل يصعب استلابهُ, اما سلام فكان يعتقد ان عطية سلب منهُ اكثر الاشياء اهمية بل اكثر ما يطلبهُ طفلٌ بدأ للتوّ بالنظر الى العالم ويرى ان حضن امهِ هو وطنهُ الوحيد, هو مملكتهُ الممكنة الذي لا يستطيع مغادرتها ولا يسمح لشخص اخر بالدخول اليها, لكن عطية كان يسيطر تماما على هذه المملكة, ويدي سلام الضعيفتين لا يمكنهما ان تدفعَ عطية بعيدا, هذه العلاقة الغريبة بين الام وابنها عطية والتي احستْ بها القابلة في لحظة الولادة وهي ترى هذا الطفل الذي سقطَ الى هذا العالم يحاولُ ان يرفعَ رأسهُ ويرى وجهَ امهُ للمرة الاولى, الجميع شعر بهذهِ الخصوصية, اما سلام فكان شعورهُ يكبر معهُ, يتنامى يوما بعد اخر, الام حاولت ان تدفع هذا الشعور بعيدا, سلام ايضا اجبرها على ذلك فبمجرد ان تضعَ عطية بحضنها كان يبكي بشدة ولايكف عن البكاء إلا بعد ان تسلمهُ ليدي خديجة, عندها يتناول ثديها ويبدأ يمتص الحليب بقوة حتى اذا كان احساس الشبع قد ملأ

رأسهُ, عطية ابتعدَ لوحدهِ عن صدر امهِ منذ ان عبرَ سنتهُ الاولى بأيام اما سلام فاحتاجت الام ثلاث سنوات لتجبرهُ على ترك صدرها, خلال هذه السنوات استعملت الكثير من الاساليب اهمها استخدامها نبات الصبار, مسحتْ حلمة نهدها بهِ كلما طلب سلام الرضاعة على امل ان يكون طعمهُ المر ورائحتهُ الكريهة كفيلان بإبعادهِ عن صدرها لكن سلام تناول الحليب المخلوط بمرارة الصبار بطيب خاطر.

في المدرسة كانت عصابة سلام عبد الفتاح هي الأقوى وكانت غالبا ما تقوم بغزوات لعصابات الصفوف الاخرى اما عطية فكان هو مع ثلاثة طلاب اخرين ينفردون وهم يقلبون كتبهم المدرسية ورغم ان الطلاب كانوا يستهزؤون بهم إلا انهم يحترمونهم من جانب الاخر, يعتقدون انهم جبناء لانهم لا يتعاركون ولا يشتركون بأيِّ عصابة لذلك كانوا يتركونهم, لكن هذه الصفة كانت عامل توازن كبير داخل سلام الذي اقتنعَ تماما ان عطية جبان ويخاف من المواجهة حتى وانهُ لم يرهُ في يوم ما يتعارك مع احد, هذه المِيزة جعلت من سلام يحاول ان يبرز قوتهُ امام عطية بمناسبة او من غير مناسبة وكان عطية لا يهتم كثيرا, رسبَ سلام في الصف الثالث الابتدائي بسبب مشاكلهُ, حيث قرر المعلمون معاقبتهُ بهذهِ الطريقة بعد ان ملوا من معاقبتهِ بالعصا او المسطرة وهي تتهاوى على يدية الباردتين من وضع عمودي ليسحبها بقوة ويضعها بين فخذية ويفركها محاولاً دفع هذا الالم بعيدا, في احدى المرات كان الاستاذ قد بالغ في ضربهِ ففرت دمعة من عينيهِ وفجأة رأى عطية يقف امام باب الصف الدراسي وهو يبكي قبل ان يلتفت ويذهب, لم يفهم سلام تصرف عطية هذا فهو يعتقد ان عطية يشمتُ بهِ كلما ضربهُ المعلمون او رسب في امتحان ما, وبدل ان يجعل هذا الضرب سلام يبتعد عن المشاكل كان يزداد شراسة حتى يبدو مؤذياً بشكل حقيقي يتجاوز عمرهُ بكثير, سلام وعطية كانا نادرا

ما يتكلمان سوية ورغم ان سلام كان يرى الكثير من السلبيات في عطية لكنهُ لم يكن ليخبرَ احداً بهذهِ السلبيات لان الاخرين سيحتقرونهُ لأنه يتكلم بسوء عن اخيهِ لكنهم كانوا يظنون ان عطية مع الطلاب الشطار الاخرين جبناء, رغم ذاك فلم يكن ما يدعو للتحرش بهم, ما داموا بعيدين عن كل هذه الصراعات لكن حدثا حصل جعل سلام وكل الطلاب الاخرين يغيرون رأيهم بعطية.
في ذلك اليوم كان بعض الطلاب من العصابات التي كانت تتقاتل مع عصابة سلام قد قرروا ان ينتظروه وهو في طريقهِ الى البيت عائدا من المدرسة والانفراد بهِ وكسر عينهِ حتى لا يجرؤ على مقاتلتهم مرة اخرى, بالفعل تتبعوا سلام حتى اذا بقى لوحدهِ هجموا علية وسحبوا حقيبتهُ فتناثرت كتبهُ على الارض, حاول مواجهتهم لكن الكثرة غلبت الشجاعة, كانوا خمسة وهو لوحدهِ فسقطَ على الارض وتجمعوا عليهِ ركلاً ورفساً وضرباً بالأيدي والارجل, في تلك اللحظة وصل عطية ورأي الوضع السيء لسلام فخلع حقيبتهُ ورماها على الارض وهجم عليهم, تناول الأول فسحبهُ من ياقة قميصهِ ولكمهُ على وجهه لكمة جعلتهُ يسقط على الارض قبل ان يركل الاخر على بطنهِ فابتعد قبل ان يسقط, حاول الثلاثة الاخرون الهجوم على عطية فتناولهم ركلاً ورفساً حتى تأكدوا ان هزيمتهم قادمة لامحالة فهربوا, ذهب عطية وجمع الكتب ودسها في الحقيبة ومدَ يدهُ لسلام الذي كان مندهشا وهو يرى عطية يتحول الى بطل حقيقي من النوع الذي غالبا ما يراه في الافلام.
ها هو سلام يفقد ميزتهُ الوحيدة الذي كان يعتقد بها ويتباهى بها امام عطية, ها هو يرى شجاعة عطية وقدرتهُ الجسدية التي تتجاوزهُ بكثير لكنهُ لم يكن يفهم عدم استخدام عطية لهذهِ القوة وتجنبهُ العراك مع الطلاب الاخرين وانزواءهُ برفقة التلاميذ الشطار في الصف بعيدا عن الاخرين, كان سلام يعتقد قبل هذه الحادثة انه لابد ان تأتي الساعة التي يتعارك فيها مع عطية ويلقنهُ

درس لن ينساه وكان يتحين الفرص لحصول مثل هذا الشجار لكن اسلوب عطية وقدرتهُ العالية على احتواء الاخرين تجعل سلام يعود خائباً بعد كل محاولة اما الان فالوضع مختلف تماما فعطية قادر وببساطة ان يمسح بهِ الارض, في اليوم الثاني كان الطلاب كلهم يتكلمون على شجاعة عطية وما فعلهُ بالطلاب الذين حاولوا ضرب سلام, سلام بقى ساكتا واحيانا يهزُ برأسهِ موافقا الاخرين فقط, قبل ان يبدأ يتغيب عن المدرسة وتتحول عصبيتهُ وشراستهُ هذه المرة تجاه امهِ وحتى ابيه وهذا جعل عطية يطلب من امهِ ان ينتقل الى مدرسة اخرى وهو يرى ان سلام في حالة متأزمة على الدوام وبالفعل ذهبت ام عطية ونقلتهُ الى مدرسة اخرى, كان عطية يحتاج ان يمشي حوالي الربع ساعة قبل الوصول اليها ولكنها كانت فرصة جيدة للتفكير والتأمل واطلاق الخيال الى الدرجة التي لم يشعر معها بالطريق من البيت الى المدرسة وبالعكس, عندها فقط بدأ سلام يعود الى المدرسة وهدأت الامور داخلهُ, وبدأ يحاول ان يتناسى أيَّ وجود لعطية الذي كان يقضي معظم وقتهِ فوق سطح البيت او يذهب لمتنزه المنطقة ودائما برفقة كتاب, لكن مشاكل سلام مع اولاد الجيران كانت لا تنتهي ورغم ان الجيران كانوا يتجنبون أيَّ خلاف خوفا من مكانة عبد الفتاح الحزبية لكن تصرفات سلام كانت تدفعهم لشكايتهِ للأم وكانت تضربه احيانا حتى اذا سمع عبد الفتاح انها ضربت سلام تثور ثائرته ويبدأ بالصراخ وهو يُذكرها بما اخبرها سابقا انه ممنوع ان تضرب سلام مهما كانت الاسباب, كانت تصمت احيانا واحيانا تقول له بعصبية ان سلام يسبب الاذى لأولاد الجيران فكان يصرخ بوجهها

- انعل ابو الجيران

كانوا يكرهون عبد الفتاح ويتجنبون أيَّ زيارة او لقاء معهُ بل حتى مع ام عطية وهذه العزلة كانت تزعجها كثيرا لكنها لم تعد

تسيطر على عبد الفتاح, هذا لا يعني انها لا تحاول معهُ, وبالفعل طلبت من خديجة ان تغسل سطح البيت وتفرش الفراش لها ولعبد الفتاح بعد ان حضرت رقيّة حمراء كبيرة وضعتها لساعات داخل الثلاجة

بمجرد ان بدأت الشمس تميل للغروب صعدتْ خديجة للسطح وغسلت ارضيتهُ وغطت السرير بغطاء شفاف يسمونهُ (الكِله) يمنع البعوض والذباب من الوصول الى النائمين داخل السرير وفرشت قرب السرير بساطين بشكل زاوية قائمة لذلك عندما خرجَ عبد الفتاح من الحمام بعد ان عاد من الحزب وسألتهُ الام ان كان يطلب طعام العشاء أجابها بانهُ اكل شيئا ما في العمل طلبت منهُ ان يصعد معها الى السطح, سألها عن السبب باستغراب فأجابتهُ دعنا نتكلم قليلا, في حدود الساعة التاسعة مساءً صعدوا الى السطح برفقة الرقيّة التي قطعتها الام قطع مثلثة صغيرة وقدمتها لعبد الفتاح مع الخبز الحار, عبد الفتاح بقى صامتا فهو يعرف بان شيئا ما وراء كل هذا لكنهُ لا يعرف ما هو ولايُريد ايضا ان يسألها مادام هذا الهدوء وطعم الرقي البارد والحلو ونسمات الهواء الصيفية تولد شعورا بالراحة يمنعهم من الكلام, ارتمى على السرير فنامت بقربهِ وبدأت تتأمل النجوم قبل ان تلتفت اليهِ وتسألهُ

- عبد الفتاح ..من طعنك بالسكين في ظهرك
- لا اعرف
- عبد الفتاح
- لا اعرف
- لكنني اعرف انك تعرف
- وماذا تريدين منهُ
- قل لي اولا
- تحسين

- ابن الشيوعي
- نعم

ارادت ان تسألهُ (لماذا) لكنها تذكرت ان عبد الفتاح كان سبباً في غياب ابوه في سجون الدولة ولحد الان لا يعرفون مصيرهُ لذلك جلست قبالتهُ ووضعت عيناها في عينيهِ وقالت لهُ

- ماذا لو كان هناك اكثر من تحسين هذا
- انعل والديهم
- لماذا لم تخبر الشرطة
- لا اعرف
- لا حبيبي عبد الفتاح, آنت تعرف جيدا, تعرف ان تقاريركَ كانت السبب في رمي الكثيرين في التهلُكة
- هؤلاء اعداء الثورة والحزب
- طريق الظلم هو الذي يخلق الاعداء, الامر الاخر ما شأنكَ انت وكل هذا, عشت كرجلٍ بسيط, ابقَ هكذا فقط, عيوني عبد الفتاح اترك العمل في الحزب ..ارجوك
- وماذا اعمل
- نعود الى بسيطتنا في السوق
- هذا حزب ..افهمي...الخروج منهُ خيانة
- اطلب ذلك من عزيز وهو يحل الامر
- عزيز...اول من سيعتبرني خائن هو عزيز
- اطلب منهُ ذلك فقط, وهو سيحل الموضوع, واذا رأيت ان ردة فعلهِ قوية او اعتبر طلبك خيانة, قل له انها مجرد فكرة سخيفة ولن اطلب منك بعد ذلك ان تترك الحزب
- حسنا. سأرى

مرَ اسبوع ولم يجرؤ عبد الفتاح ان يطلب من عزيز ان يساعدهُ على ترك الحزب وكلما كانت تسألهُ الام يجيبها انه سيسألهُ عندما

يجد الفرصة المواتية لهذا قالت له دعْ امينة تسألهُ, صمت قليلا ثم قال لها دعيها تقوم بذلك
بعد يومين فوجأ عبد الفتاح بكتاب يعيدهُ للعمل في الفرقة الحزبية القريبة من البيت, عزيز كان ينتظر هذا الطلب وكان يعتبر عبد الفتاح نقطة ضعفهِ منذ اليوم الذي نشر امامهُ حمزة صوره وهو يمارس اللواط لذلك عندما اخبرتهُ امينة برغبة ابيها بمغادرة الحزب وجدها فرصة للتخلص من هذا الهم الذي طالما سبب له الكثير من المشاكل حتى من دون ان يعلم بذلك, عزيز اخبر عبد الفتاح انه سيباشر في الفرقة الحزبية ولكنهُ لن يعمل هناك وهو من سيرتب له الامور, شكرهُ عبد الفتاح وجمع اغراضهُ وخرج من مقر الحزب لكنهُ لم يذهب للفرقة الحزبية وانما عاد الى البيت واخبر الام بذلك فانشرح وجهها وشعرت ان ايام المحنة قد انتهت, بعد اسبوع كان عبد الفتاح يضع حزاماً عريضاً على بطنهِ يشد بها دشداشتهُ البنية اللون والملطخة بالوان الفواكة والخضر, كانت ام عطية تذهب لمساعدتهِ لكن عطية وسلام طلبوا من امهم ان تبقى في البيت وهم من سيساعدونهُ ولان سلام كان لا يستيقظ الا في وقت متأخر لذلك ترك مهمة الذهاب الى علوة الخضار على عطية بينما هو كان يجلس في البسطية بعد ان يعود الاب يحمل معهُ صناديق لمختلف الخضار والفواكة.
في تلك الفترة اعلن الاب القائد تنحيتهُ عن السلطة واستلمها السيد النائب الذي كان هو من يدير الدولة بشكل فعلي وكانت كل اجهزة ومؤسسات الدولة تابعة بشكل او بأخر لسلطتهِ فضلا عن مقرات ومكاتب الحزب, كان ذلك اليوم هو يوم الحظ بالنسبة لعزيز الذي تأكد اخيراً ان كل احلامهِ ستتحقق خاصة بعد ان بدأت علاقتهُ تتوطد ليس مع حمزة فقط بل مع اشخاص اخرين كانوا يمتون بصلة قرابة مع السيد النائب او السيد الرئيس, عزيز كان يعتقد ان هناك تحولات كبرى ستحصل في هذا البلد من ناحية الاعمار

والبناء واننا خلال فترة قصيرة سنتحول الى احدى الدول العظمى لكن سرعان ما دخلت الحرب وجعلت عزيز يتحدث هذه المرة عن المؤامرات على الحزب والثورة والتي يقودها هذا المخبول المعمم من طهران

لم يشعر عبد الفتاح بقوة الحرب وقدرتها الهائلة على سحق الجميع إلا عندما حملوا تابوت حامد جلوب ملفوفاً بالعلم العراقي, كانت دائرة الامن قد قامت بحملة اعتقلت خلالها كل الشقاوات في كل مناطق بغداد وخيرتهم بين الموت والجبهة فاختاروا الجبهة قبل ان يزجوا بهم بعمليات مستحيلة في عمق العدو, طبعا هذا بعد سلسلة من المحاضرات حولتهم الى ابطال سينما من النوع الذي لا يموت بغض النظر عن ما يصيب اجسادهم من رصاص او شظايا, الكثيرون من هؤلاء الشقاوات تم أسرهم والبعض فقدوا في الارض الحرام لكن حامد جلوب كان محظوظاً عندما وجدوا الجنود العراقيين جثتهُ بعد ثلاثة ايام من مقتلهِ وتعرفوا عليه من خلال الرقم المكتوب على لوحة حديدية صغيرة تُربط بخيط يعلق في رقبتهِ, في ذلك اليوم شعر عبد الفتاح ان الحرب ستأكل الجميع وان السيد النائب الذي يعشقهُ عزيز قد ادخل الناس في نفق الموت الذي لن يستطيعوا الخروج منه إلا الى المقبرة, بعد ايام من انتهاء عزاء حامد جلوب جاء خبر موت اخر لكن هذه المرة من بساتين الحلة حيث يعيش هناك اخوة ام عطية, كان ابن اخيها هو الذي جيء به ملفوفاً بالعلم العراقي وهذا جعل عبد الفتاح يتركُ بسطيتهُ ويذهب برفقة العائلة الى هناك, رغم الموت والصراخ واللطم لكن عطية وجد عالما هائلاً وهدوءً لا يقطعهُ الا صوت الطبيعة, بدأ يشعر بكل شيء, كل شيء يتكلم, الاشجار والسواقي والطيور بل حتى الخراف والماعز والجاموس, كلهم يعيشون بتلقائية غريبة وتجانس هائل, الناس وحدهم مشغولون بالموت اما هذه البساتين فاهتمامها ينصب على الحياة وحدها, كان يبقى لساعات طويلة قبل

ان يعود الى سرادق العزاء, ولأن النهر يمر بكل قوتهِ بجانب هذه القرية فلم يجرؤ عطية على السباحة فيه رغم رغبته الهائجة لكنه كان يشعر بتدفق الحياة داخل هذا النهر, حتى الناس كانوا يبدون بسطاء بشكل يحوّل الحياة الى قيمة سهلة لا تحتاج الا مداعبتها بأدوات الزراعة لتنمو وتكبر, العلاقات هنا تبدو تلقائية فالنوايا صالحة على الدوام وخروج النساء للعمل امر طبيعي والحوارات بين النساء والرجال يفتقد أيَّ حساسية, فمن يعشق امرأة هنا يصرخ بأعلى صوتهِ انهُ عاشق بل يغمر عشيقتهُ بالقصائد والدارميات وامام الجميع وسوى حالات نادرة تحدث نتيجة صراعات ساذجة ولأسباب مختلفة لم يعكر صفو الحياة او الحب في هذه القرية سوى الموت الذي لا يعرفونهُ إلا بعد ان يتجاوزوا الناس السبعين من العمر فمن يموت في الخمسين من العمر هنا يموت صبياً لم يرَ من الحياة شيئا بعد, لكن الحرب بدأت تسلب ارواح من هم في العشرين من العمر وهذه كانت فجيعة حقيقية للجميع, رغم ذلك فللحب حكايات لا تنتهي والحكاية هذه المرة جاءت مع خديجة الذي قابلت حسين لأول مرة وهو يحاول ان ينقل بعض القدور من داخل البيت الى العزاء في الخارج, بقى صامتا امامها قبل ان يبتسم ويقول لها

- مرحبا

احست خديجة بخجل كبير لكن عينيه العسليتين توغلا الى داخل قلبها رغم انها التفتت وهربت منهُ, حسين هذا هو ابن لأصغر اخوال خديجة الذي كان يعمل كمعلم في المدرسة الابتدائية القريبة من القرية, شاب اسمر متوسط الطول ذو وجه مبتسم وهادئ جعل خديجة تحاول ان تستغل أي فرصة لتراه مرة اخرى اما هو فكان لا يفوت أيَّ فرصة للدخول الى البيت على امل رؤيتها وبالفعل قرب باب البيت رآها, ابتسم ولكي لا يمنحها فرصة للهروب قال لها

- اني حسين ..ابن خالك جواد
- اني خديجة
- اعرف
- من اين تعرف
- سألت والذي يسأل يعرف
- سألت عني؟
- نعم
- لماذا

ابتسم بوجهها وقال لها

- اريد ازوركم اني واهلي قريبا ببغداد

ابتسمت قبل ان تلتفت وتهرب مرة اخرى

بعد ثلاثة اشهر كان حسين واهلهُ في بيت عبد الفتاح يطلبون يد خديجة لابنهم حسين, في البداية تردد عبد الفتاح لكن الام اقنعتهُ عندما اخبرتهُ ان البنت بدأت تكبر والموت بدأ يأخذ الشباب ويجب ان لانقف بوجه قسمتها, وافق عبد الفتاح لكن زواج خديجة لم يحصل الا بعد ستة اشهر مداراة لمشاعر خالها الذي فقد ابنه قبل اشهر..

زواج خديجة جعل عطية يعاود زيارة هذه القرية اكثر من مرة ودائما برفقة امهِ التي كانت تشتاق لخديجة, خاصة عندما تتأخر في زيارتهم نتيجة لانشغالها, خديجة كانت تبدو سعيدة وحسين كان رجلاً حقيقياً حريص دائما على زوجتهِ وعائلتهِ اما عطية فكانت الساعات التي يقضيها هائما بين الزرع والاشجار والطيور هي من اسعد الساعات في حياتهِ, الساعات التي بدأت تتسارع, تسحق معها الكثير من الشباب وتتكاثر معها السرادق واللطم والنواح والقبور ويتحول لون المدينة الى اللون الخاكي الذي كان لا يخلعهُ عزيز الا في ساعات النوم, عزيز بدأ يحقق احلامهُ عندما تحول للعمل في دائرة

المخابرات قبل ان يصبح عضو قيادة قطرية في الحزب ويتحول الى بيت فخم في منطقة المنصور جعل طباع امينة تتحول ايضا وهي تلبس انواع من الثياب الخليجية المزخرفة بالوان واشكال عديدة, انتهت الحرب لكن سرعان ما بدأت حرب اخرى بعد احتلال الكويت وبدأ بعدها حصار اقتصادي جعل عطية يتمتع بجرأة كبيرة وهو يتكلم عن الحزب وعن القائد الذي كان يدعوه بالطاغية وهو سبب كل خراب البلد حتى امام عزيز, وهذا يجعل عزيز يكره عطية دائما لأن عطية كان ينظر اليهِ بنظرة احتقار كبيرة, نظرة احتقار لهُ ولحزبهِ ولقائدهِ الذي يتفانى في الدفاع عنهُ, كانت قدرة عطية على المحاورة والجدال تحرج عزيز ولم يكن يُسكت عطية سوى امهُ التي كانت تنزعج عندما يتكلم عطية في السياسة رغم انهُ اخبرها انه لا يحب السياسة لكن الساكت عن الظلم شيطان اخرس وهذا ظلم يا أمي, علاقة عزيز مع سلام بدأت تأخذ اشكال غريبة خاصة وطلبات عزيز كان ينفذها سلام بحرص شديد وكان يزورهم بشكل شبه يومي, ويصدق كل ما يقولهُ عزيز عن المؤامرة الصهيونية على الحزب والقائد ورغم ان سلام لم يكن يحب القائد لكنهُ وجد في عزيز منفذاً جيد للوصول الى المال والسلطة بدل الجلوس في بسطية الخضار التي تحولت الى بسطية لبيع الاجهزة الكهربائية المستعملة بعد دخول الحصار الاقتصادي على البلد قبل ان تقوم ام عطية الى تركها والعودة الى بسطية الخضار مرة اخرى, لم يستطع سلام اكمال دراستهِ المتوسطة بينما استمر عطية بالدراسة بنجاح حتى وصل الى الصف السادس العلمي وتخرج منه بمعدل 95 بالمئة حينها كان سلام قد بدأ العمل في احدى مكاتب الحزب التي يديرها عزيز بشكل مباشر .

نهايات مؤجلة

لعنة الحصار الاقتصادي كانت اعظم من لعنة الحرب فهو يحوّل الناس الى موتى يمشون في الشوارع, يتصارعون ويتحولون الى مصاصي دماء, فالكل يغرز انيابهُ في لحم الكل وعمليات النصب والسرقة عمليات دائرية دائما, يدك دائما في جيب اخر وجيبكَ على الدوام لا يخلو من ايادي الاخرين والنتيجة هو هذا الركض المهووس من اجل لقمة العيش بعد ان تخلوا الناس عن كل ملذاتهم واصبح همهم الوحيد هو كيف يحشون بطونهم وربما كيف يجدون ما يغطون به أجسادهم المختلة بالوجع وسوء التغذية, رغم ان هذا لا يشمل الجميع خاصة الذين يعملون في المفاصل القريبة من الديكتاتور وابنائهِ مثل عزيز ومعه سلام اللذان تحولا للعمل مع ابن الديكتاتور الاكبر وبوساطة من حمزة الذي اصبح الكلب الوفي الذي لا يفارقهُ, ما بين الشورجة وسوق العملة وبيوت العاهرات والليالي الحمراء واكياس الرز المملوء بآلاف الدنانير او القيام بصفقات تجارية تعود اموالها لصالح ابن الطاغية, كان حمزة يرسل عزيز دائما لبيوت العاهرات والتكفل بكل مستلزمات الحفلات الماجنة التي كان يحضرها ابن الطاغية, ويحضرها معه كبار المطربين, في هذه الحفلات كل شيء متوقع فاذا ثملَ ابن الطاغية يصبح كل شيء متوقعاً, يمكن ان يقتل ايَّ واحد من الموجودين وربما يطلب منهم طلبات غريبة مثل القيام بحركات معينة او إداء اغاني مضحكة وكل هذا بغرض إذلالهم واثارة الضحك عليهم من قبل الحاضرين ومنها يرضي غرورهُ ونرجسيتهُ التي تضخمت الى حدود قياسية, رفض طلباتهِ هنا يعني الموت المؤكد, عزيز تحوّل الى قواد

حقيقي اما سلام فكان يذهب مع عزيز الى بيوت العاهرات كلما وجد فرصة لذلك, ولكي يتخلص عزيز من هذا البحث المخزي عن العاهرات اللواتي يصلحنَ لمثل هذه الليالي طلب من احدى القوادات المشهورات في بغداد ان تتكفل هي بالبحث وتحضير البنات اللواتي يصلحنَ لمثل هذهِ الحفلات, آجر لها بيتا كبيرا في احدى مناطق بغداد ومنحها الحماية الكافية لكي تقوم بعملها بالشكل المطلوب وكل ما عليهِ هو ان يتصل بها كلما طلب منه حمزة ترتيب حفلة ما, هذه القوادة التي يسمونها حسيبة كانت لها قدرة كبيرة على استقطاب البنات, كان الحصار الاقتصادي يعمل دائما على نخر العلاقات الاجتماعية وتضخم المشاكل العائلية والتي تخلف الكثير من التائهات او الهاربات من اهلهن وربما حتى اللواتي يعملن في التسول او في اعمال صعبة في الاسواق والشوارع, حسيبة كانت لها مجسات قادرة على اصطيادهن واقناعهن للعمل في الدعارة وكانت تعزل الجميلات منهن بعد ان تعطيهن دروس مركزّة في كيفية ارضاء الرجال جنسيا قبل ان تسلمهن لعزيز وصاحبة الحظ هي من يختارها ابن الطاغية ويغرقها بالمال بعد ان يتلاعب بها بطريقة لا يعرفها الشيطان نفسهُ, سلام كان يتمنى لو يحضر هذه الحفلات رغم خوفهِ من الاقتراب من هذا الكائن المرعب لكل من يقف بقربهُ وبعد إلحاح كبير استطاع اقناع عزيز بمرافقتهِ الى بيت حسيبة القوادة, خلال فترة قصيرة استطاع سلام التقرب من ابنها احمد والذي كان يدعو سلام للمشاركة بالحفلات التي كانت تقيمها حسيبة داخل بيتها ومن دون معرفة عزيز وهذا جعلهُ يعيش ليالي لا تنسى لكن احمد حسيبة طلب منهُ ان يساعدهُ في ايجاد عمل لهُ في الاردن قال له لا يمكنني ان اعيش كل عمري داخل هذه الزريبة, وبالفعل ارسلهُ سلام للعمل في احدى معامل الحلويات التابعة لشخص يعمل كوكيل للمخابرات العراقية هناك, لكن العلاقات بين ابناء الطاغية لم تكن على ما يرام وكانت تصرفات الابن الاكبر ونزقهُ وحفلاتهُ الماجنة وجرائمهُ واعتداءاتهُ على الاخرين تصل اولا بأول

الى مسامع ابيه بواسطة الابن الاصغر الذي كان اكثر هدوءً واتزاناً وهو من اقترحَ على ابيه تكوين تشكيل أمني جديد تحت مسمى (فدائيو صدام) يكون الابن الاكبر هو المسؤول عنهُ, هذا التشكيل يستخدم اطفالاً بأعمار صغيرة يقوم بتدريبهم وغسل ادمغتهم بشكل يجعلهم يعبدون الطاغية ويدافعون عنه حتى الموت, عزيز طلب من حمزة اكثر من مرة ان يخلصهُ من العمل مع القوادات والعاهرات لكن حمزة كان يرفض والحقيقة ان هناك دافعاً خفياً كان يجعل حمزة يحاول إذلال عزيز على الدوام, حتى ما قام به سابقاً عندما صور عبد الفتاح وهو يمارس اللواط في تلك الشقة كانت بدافع إذلال عزيز وليس مثلما اخبرهُ انهُ يحميه من نفسهِ لكنهُ في كل مرة ينتبهُ إلا انهُ ليس ثمة سبب يجعلهُ يستمر في هذا الإذلال فيحاول ان يعوضهُ بعد ذلك وهذا ما حصل لأنهُ بعد فترة لم يجد حمزة حاجة داخلية ملحة الى اذلال عزيز ورغم انه يحاول ان يتصيد الاخطاء لهُ لكن عزيز كان حذرا جدا ويعمل بطريقة محترفة تجعل حمزة يتراجع بالنهاية, ولهذا نقلهُ للعمل في دائرة المخابرات ومساعدته في الاشراف على فدائيي الطاغية واعادتهُ للتواجد في القيادة القطرية للحزب بينما سلام كان يسافر كثيرا لعقد صفقات تجارية غالبا ما تنزل بضائعها الى الشورجة وتعود وارداتها الى ابن الطاغية الاكبر الذي سيطر تماما على السوق وبدأ يتلاعب بهِ كيفما يشاء وهذا جعل الوضع الاقتصادي للبلد يضطرب بشكل غير مسبوق واصبحت قيمة الدولار مقابل الدينار العراقي تتأرجح يوميا, تصعد وتنزل من دون أيِّ حاكم اقتصادي وخارج أيِّ منظومة معرفية اقتصادية.

عطية انهى سنتهُ الاولى في كلية الصيدلة جامعة بابل, كان يريد ان يهرب من كل شيء, من سلام ومن ابيهِ عبد الفتاح ومن بغداد التي تحولت الى ساحة للصراعات لذلك كانت خياراتهُ الاولى في استمارة القبول المركزي تذهب الى جامعة بابل ورغم انهُ سكن في ايام دراسته الاولى في الاقسام الداخلية الملحقة بالجامعة لكن حسين زوج

اختهُ خديجة ذهب اليهِ بعد ان سمع واصرَ على ان يعيش معهم, عطية رفض وطلب من حسين ان يجدَ لهُ بيتا صغير للإيجار لكن خالهُ الاكبر منحهُ مشتمل صغير قرب النهر كان يسكن فيه ابنهُ الذي انتقل للعمل في بغداد هو وعائلتهُ ومنذ ذلك الوقت بقى البيت فارغاً, أخوالهُ تكفلوا بتأثيث بسيط للبيت وهذا جعل عطية يعيش ايام هادئة, تكفلت اختهُ خديجة بمأكلهِ وكل احتياجاتهِ الاخرى, بينما كانت امهُ تزورهُ بشكل شهري, عطية داخل الكلية كان شخصاً اخرا, كان جريئا وهو يتكلم عن ظلم الطاغية وابنائهِ ورغم ان الكثير من اصدقائهِ هناك نصحوه بان يكف عن التكلم بسوء على الحكومة امام الاخرين لكنهُ كان يقول لهم, نسكت الى متى واذا سكتنا ما الذي يحصل سوى المزيد من الظلم والجور, كان الحزبيين المنتشرين في الكلية كتبوا الكثير من التقارير تدين عطية لكن مكانة اخواله العشائرية وعدم انتماء عطية لأيِّ جهة معادية للحكومة يجعل هذه التقارير تبقى في بابل ولا تتحول الى بغداد لكن ما حصل بعد ذلك جعل اسم عطية يتوسط مجموعة من الاسماء المتهمة باغتيال عدد من اعضاء الفرق الحزبية في بابل, لم يعرف احد هذه الجهة التي بدأت باستهداف الحزبيين في عدد من محافظات الجنوب لذلك كانت التقارير التي تتحول الى بغداد تكتظ بأسماء بعيدة تماما عن هذه الجهات, عطية كان من ضمن هذه الاسماء التي يتم اصطيادهم من قبل المخابرات او تصفيتهم بشكل مباشر, ضابط المخابرات الذي كان يتلقى التقارير من مكاتب المخابرات في المحافظات انتبهَ الى اسم عطية عبد الفتاح, كان يعرف سلام اخوه ويعرف علاقتهُ مع حمزة لذلك اخذ التقرير ووضعهُ بين يدي حمزة, ابتسم حمزة الذي وجد اخيراً الفرصة الحقيقية لإذلال سلام اضافة الى عزيز, رغم خطورة التقرير لكن حمزة كان يرغب بإحراج عزيز وليس نسفهُ فهو يجدهُ ضروريا دائما ويقدم عملا مهما في كل مكان يعمل فيهِ وهذا جعلهُ يطبّقُ الورقة ويضعها في جيبهِ ويقول للضابط انه هو من سيتولى الموضوع بعد ان يطلب منهُ عدم ذكر ذلك لأيِّ

شخص, قال له انس الموضوع وبالفعل ترك الضابط الموضوع رغم انهُ لم ينسهِ وبقى يترقب ماذا سيفعل حمزة.
حمزة اتصل بعزيز وطلب منه ان يحضر هو وسلام غدا صباحا, في اليوم التالي كان عزيز وسلام يجلسون في مكتب حمزة عندما اخرج التقرير من جيبهِ ووضعهُ امام عزيز التي بدأت ملامحهُ تتغير ويصرخ

- لا يمكن. غير معقول. عطية لسانهُ طويل صحيح لكنهُ لا يمكن ان يقتل احدا

سلام جر التقرير من يد عزيز وبدأت الصدمة واضحة على ملامحهِ لكنهُ لم يقل شيئا, وقف حمزة واقترب من عزيز, وقال لهُ

- ما تعرفهُ عن عطية ليس مهماً, كل الاسماء في هذا التقرير يجب ان يموت اصحابها لكن عطية لن يموت وحدهُ سيموت معه سلام وفي احسن الاحوال سيتم فصلك عن أيِّ عمل داخل الدولة, اذا تم التساهل معكَ, انت تعرف لامجال للمجاملات هنا
- وماذا نعمل, انت تعرف اننا مخلصون للحزب والقائد, انت تعرف ذلك, تعرف انه لا ذنب لنا بما فعلهُ عطية, أجابه عزيز
- بصراحة ..الامور صعبة, آنا اعرف ولكنهم لا يعرفون, كما انكم لا تقبلون ان اعرّضَ نفسي للخطر فيما لو حاولت اخفاء التقرير إلا اذا
- اذا ماذا, صرخ سلام, أرجوك اخبرنا
- اذا اعتبرنا عطية عار على بيت عبد الفتاح
- هو عار ...عار كبير. صرخ سلام
- اذا عليك ان تغسلَ عاركَ بيدكَ سلام. قال له حمزة
- ماذا, كيف, سألهُ سلام

- ستذهب مع عزيز الى بساتين الحلة وهناك تقتل عطية بيدكَ ويتم تصوير العملية بعدها سأذهب الى مكتب المخابرات في بابل ونرفع اسم عطية من هناك..
- اذا كنا نستطيع ان نرفع اسمهُ, لماذا نقتلهُ إذا... سأل سلام
- لأنهُ لو اكتشف الامر ستكون هذه الصور هي حجتي, وحجتكم ايضا, لقد تخلصتم من عاركم وهذا ينقذكم ويعيد الامور الى نصابها الاول..
- لا حل غير هذا. قال عزيز
- ولكن. لماذا انا ..دعوا غيري يفعلها فقط. قال سلام
- انت من تغسل عاركَ بيدكَ, لا حل غير هذا

رجع سلام للبيت والحيرة اخذت منهُ كل مأخذ, صحيح انه عاش حياته كلها وهو منزعج من اخيهِ لكن ان يقتلهُ فهذا شيء اخر, ماذا يمكن ان يقول لأمهِ, كيف يفسر لها ذلك, لكن ماذا لو لم يفعل ذلك بالتأكيد سيرمون بهِ في غرف التعذيب التي يعرفها جيدا ويعرف تماما انه سيتمنى الموت دون ذلك, اقنع نفسهُ ان عطية عليه ان يدفع الثمن وما داموا سيقتلونهُ بالنهاية فلا اهمية لليد التي ستطلق الرصاصة, في اليوم التالي ذهب الى بيت عزيز وقرروا الترتيب للعملية, طلب عزيز من حمزة ان يرافقهم مصور يصور كل شيء قبل ان يصعد الثلاثة في سيارة عزيز وينطلقوا باتجاه محافظة بابل.

عندما وصلوا الى البساتين وقف عزيز والمصور في مكان داخل البساتين بينما ذهبَ سلام الى بيت عطية, قبل ان يصل سلام الى بيت عطية صادف حسين الذي دعاه لرؤية اختهِ خديجة فقال لهُ انه سيمر عليهم بعد ان يرى اخوه, وطلب منهُ ان يدلهُ على بيت عطيه فأشار له حسين الى بيت صغير بالقرب من النهر.

مفاجأة عطية كانت كبيرة وشعر بان شيئا غير طبيعي يحصل فلم يكن يتصور ان يزورهُ سلام هنا, دخل سلام فسألهُ عطية

- خير سلام

- جئت لرؤيتك
- لرؤيتي
- نعم. بصراحة احببتُ ان اغير جو واتخلص من ضغط بغداد
- اهلا فيك سلام

ذهب عطية وصنع الشاي وقدمه مع (خبز العروك) التي كانت تصنعها خديجة

- هذا خبز خديجة. قال لهُ عطية
- ساراها بعد ان تريني هذه البساتين

شرب سلام الشاي وخرج برفقة عطية للتمشي داخل البساتين, سلام قادهُ الى المكان الذي ترك فيهِ عزيز والمصور بالقرب من شجرة كالبتوس كبيرة عندها اخرج سلام مسدسهُ وصوبهُ تجاه عطية, صمتَ عطية قبل ان يسألهُ

- ما الذي حصل...سأله عطية
- لا تعرف
- نعم ..لا اعرف
- تنضم الى جهات مُعادية للحزب وتقتل الحزبيين وتقول لي لا اعرف
- سلام ..انت تعرف جيدا انني لم اقتل احداً
- عطية ..اسمك الان مع الخونة في دائرة المخابرات. آنت ورطتنا كلنا. هل تعرف ماذا سيفعلون بنا
- لكنني لم افعل شيئا
- وهل عليّ ان اصدقكَ
- حسنا سلام ...دع غيرك يفعلها
- ما الفرق
- لا اريدك ان تكون هابيل اخر
- هابيل...لكن اباكَ عبد الفتاح لم يكن نبيا
- امك هي النبي هذه المرة

- ايها المغفل ..لقد دمرت طفولتي والان تُريدُ ان تدمر حياتي كلها, من قال لك انني كنت بحاجة الى نبي, كنت بحاجة الى ام فقط, ام مثل باقي الامهات تعرف كيف توزع حنانها على ابنائها بالتساوي, الان تريدني ان اتحمل نزق نبوتك هذه, تريد ان تكون نبي, كنْ ما تريد ولكن لا تعبث بحياتي, لقد تحملتكَ وانا طفل ولن استطيعَ ان اتحملكَ بعد الان, مُت فقط. مت وخلصني

اطلق سلام رصاصتهُ باتجاه قلب عطية فسقط على الارض بعد ان فرت دمعة من عينية لتسقط قربهُ, عندها تقدم عزيز مع المصور الذي كان يصور كل شيء, اخرج عزيز مسدسهُ واراد ان يكمل على عطية برصاصة في الرأس لكن سلام مسك يدهُ وقال لهُ انهُ اصابهُ بقلبه بشكل مباشر, كما ان منظر الدم الذي بدأ يتخطى اوراق الاشجار جعل عزيز يعيد مسدسهُ قبل ان يصعدوا ثلاثتهم في السيارة ويعودوا الى بغداد

في تلك اللحظة فزت الام رغم انها لم تكن نائمة ولكن شعوراً مفاجئاً ووجعاً رهيباً اصابها فجأةً جعلها تهرع كالمجنونة وترتدي ثوبها الاسود وشيلتها الداكنة السواد وتذهب الى السوق لتخبرَ عبد الفتاح انها ستذهب لرؤية عطية, رفض عبد الفتاح لكنها اصرت وقالت له (قلبي اكلني عليه), بعد ساعتين وصلت الى بيت عطية, طرقت الباب لكنهُ لم يفتح لها احد وهنا ذهبت الى بيت خديجة وعندما سألتهم عن عطية قال لها حسين ان سلام قد زارهُ قبل ساعات وذهبوا ليتمشوا في البساتين فطلبت منه ان يذهب معها بحثاً عنهم, قبل ان يصلوا الى الشارع العام صادفت الام اخوها الاكبر سنا فطلبت منه ان يرافقهم قبل ان تلمح شجرة الكالبتوس الكبيرة وتطلب من حسين ان يأخذهم اليها, كانت تعرف ان عطية او شيء منهُ موجود تحت هذه الشجرة لذلك عندما وصلوا الى هناك لم

يجدوا سوى خيط من الدم الذي تجاوز وريقات الاشجار وصبغ جزء منها باللون الاحمر, تلمست الام الدم قبل ان تقربهُ الى انفها وتأخذ نفسا عميقا وتصرخ بأعلى صوتها

- يمه عطية...

اخوها الاكبر رفعها وسألها ما الذي حصل

- ارادوا قتلهُ
- واين هو الان..سألها
- لا اعرف لكنني اعرف انهُ لن يعود

حسين التفت اليها وقال لها

- سلام. فعل ذلك
- نعم. أجابتهُ الام قبل ان تلتفت لأخيها الاكبر وتقول له بجدية
- ادفنوه
- ندفن من
- ادفنوا عطية ...

كانت تعرف ان سلام سيقتلهُ مرة اخرى لذلك طلبت من اخوتها ان يدفنوهُ امام الناس وحتى قبل ان يخبروا عبد الفتاح بذلك وبالفعل رتب اخوتها ذلك حيث وضعوا كمية من الاحجار في التابوت بعد ان لفوها بقماش ابيض وبعد ان اضطربت القرية كلها لبكاء النساء وصراخ الرجال وضعوا التابوت على سيارة التاكسي التي يقودها حسين وانطلقوا للمقبرة, في المقبرة اخرجوا الاحجار ورموا القماش الابيض وعادوا لتفاجئوا بعبد الفتاح يقف امام البيت بعد ان اتصلت بهِ خديجة واخبرتهُ بمقتل عطية, عبد الفتاح بدى عصبياً وهو يسألهم لماذا لم ينتظروا وصولهُ فاخبروه ان امهُ هي من طلبت ذلك, التفت اليها ولطمها بقوة على وجهها لأنه شعر بإهانة فعلية قبل ان يمسكوه اخوتها ويدفعوه بعيدا عنها لكنها دفعتهم

وادخلتهُ الى بيت خديجة وطلبت من الاخرين ان يبقوا وحدهم عندها اقتربت منهُ وصرخت بوجههِ

- تعرف مَن قتل عطية
- مَن
- ابنك سلام ..سلام قتل اخوه ..ماذا تفعل الان...قل لي ...
- كيف عرفتِ انه سلام ..

خرجت الام وصاحت حسين وطلبت منهُ ان يخبر عبد الفتاح بما رآه فاخبره حسين ان سلام هو من جاء لزيارة عطية قبل ان يأخذهُ الى داخل البساتين ويقتلهُ هناك, عندها التفتت الام الى عبدالفتاح وقالت له

- اسمع ..عزيز والحزب لابد ان يكونوا وراء ذلك لذلك طلبت من اخوالهِ ان يدفنوه بسرعة, دعنا نعود الى بغداد نُقيم عزاءه ونفهم من سلام ما الذي حدث

خلال ساعات كان الجميع في بيت عبد الفتاح عندها اشتغل العويل والصراخ ونُصبت سرادق العزاء لكن سلام وعزيز لم يحضروا الا في اليوم الثاني للعزاء عندها جرَ عبد الفتاح سلام ودفعهُ الى احدى الغرف واغلق الباب وراءهُ ولطمهُ على وجههِ وصرخ بهِ

- لماذا...لماذا قتلت اخوك...

كان سلام يعرف ان حسين سيخبرهم وان انكارهُ لا ينفع لذلك ذهب قبل ان يعود برفقة عزيز ويطلب منهُ ان يسلم اباه الورقة, اخرج عزيز الورقة وسلمها الى عبد الفتاح الذي قرأها وصرخ

- مستحيل. عطية لا يمكن ان يفعل ذلك
- فعلها يا أبي وورطنا كلنا. هل تعرف ماذا كانوا سيفعلون, سيعدمون عطية ومعهُ انا وانت وربما يرمون عزيز في السجن, امي واخواتي سيتشردون في الشوارع وتكون

المصيبة اكبر بكثير, لكن منصب عزيز وثقتهم به هو من جعلهم يعتبرونها قضية عار وليست خيانة وطلبوا مني ان اغسل عاري بيدي, افهمني يا ابي ..لم يكن لدي خيار اخر, عطية ورطَ روحهُ وورطنا معهُ والحكومة لا تلعب ولاتعرف الرحمة وانت اكثر واحد يعرف ذلك عندها دخلت الام, نظرت الى سلام فاقترب منها وحاول ان يقول لها شيئا ولكنها وضعت يدها على فمهِ ومنعتهُ من الكلام وقالت له بجدية كبيرة

- اذهب فقط...لا اريد ان اراكَ مرة اخرى..

لكن عبد الفتاح وقف امامها وقال لها

- لن يذهب الى أيّ مكان ..البيت بيتهُ
- اذا انا سأذهب...لقد تعبت من العيش في بيت الشيطان هذا, اسمعوني جيدا...لا اريد ان يزورني أيَّ واحدٍ منكم, اتركوني فقط ..لا اريد ان اراكم بعد الان

في اليوم التالي وبعد ان رفعوا سرادق العزاء كانت الأم تتوسط اخويها وبنتها خديجة قبل ان يعودوا الى القرية.

بعد شهرين في بيت معزول داخل بساتين النخيل في الجانب الاخر من النهر في مكان نادرا ما يصل لهُ انسان كانت الام تضع عطية على حجرها وتغني له بصوت هادئ

(دللول يا الولد يمه دللول
عدوك عليل وساكن الجول)

تجليات سميرة

(1)

قضية ان يكونَ شريط حياتكَ يشابهُ او ربما يتطابق مع شريط حياة انسان اخر ربما يكون هو الاقربُ اليكَ او ربما يكون هو انت وكل الذي يحصل هو اعادة انتاج للقصة بمؤثرات وطريقة اخراج وربما بشخصيات جديدة, لا اعرف ان كان هذا واقعاً ام مجرد حاجة تنتجها رغبة مدفونة بالمحبة لهؤلاء الاشخاص نحاول ان نكون هم فقط او نتمنى حياتهم وطريقة وجودهم مع ان البعض يعتقد ان طرق الحياة مثل بصمات الاصابع لا يمكن ان تتشابهُ او تتكرر ربما تتقارب بشكل ما ولكن لا يمكن ان تكون هي على كل حال, هذهِ انا سميرة ابراهيم عبد النبي ابنة الداعية المعروف والمشهور بلقب ابراهيم النقي, هذا اللقب اطلقهُ عليه واحد من كبار مشايخ الازهر عندما كان يدرس هناك والحقيقة ان ابي لم يكنْ نقيا فقط وانما كان حقيقيا الى درجة كبيرة وبحثهُ عن حقيقة الدين الذي أكل عمرهُ بالكامل جعل لهُ اكثر من لباس ولكن كلها لرجلٍ واحد, رجل مُحب للإنسان وللربِّ بشكل واضح, فبالرغم من انهُ كان ابن واحد من كبار الاقطاعيين في العراق لكنهُ اعتبر تأميم الزعيم للأراضي الزراعية وتسليمها للفلاحين اعظم منجزاتهِ التي لا يمكن ان ينساها الزمن بالرغم انه كان يكرهُ علاقتهُ مع الشيوعيين ويعتقد دائما ان اصحاب التيارات

المادية من شيوعية ورأسمالية تحوّل الانسان الى كائن منحط لا همَ له سوى جيبهِ وسيفقد تدريجيا أيَّ قيمة روحية سواء دينية وحتى دنيوية, ولأنهُ الولد الوحيد مع جوقة بنات فقد اختار لهُ ابوه ارقى المدارس قبل ان يبعثهُ الى باريس لدراسة الطب لكنهُ ترك دراسة الطب منذ الشهر الاول وتحوّل الى دراسة الفلسفة قبل ان ينضم لجبهة الوجوديين التي كانت منتشرة في عاصمة النور حينذاك, كان يعبد افكار الوجوديين المؤمنين امثال جبريل مارسيل وكارل سبيرز والحقيقة ان ابي كان يمتهن فن عبادة الافكار بشكل نادرا ما تجدهُ عند انسان اخر فهو يتعلق بها بطريقة تجعل فهمهُ لمثل هذه الافكار مثار دهشة الاخرين اذا ما صادف وبدأ يتكلم فيها امامهم لذلك كان يدافع بكل شراسة امام الوجوديين الملحدين الذين يتغنون بفكر سارتر وكامو ويبدو منزعجاً جدا اذا ما رددَ احدهم امامه مقولة سارتر (ان الله مجرد خرافة ضارة), كان مؤمنا بطريقة فطرية وربما بطريقة صوفية وكان يبحث على الدوام عن فِكر يمكن ان ينتشر داخل المجتمع الاسلامي يقوض او يقوّم كل الاشكاليات التي بدأت تأخذُ مسارات مضرة بالدين والمجتمع, والحقيقة ان التصاقهُ بالوجودية لم يكن بدوافع فلسفية او محاولة لاكتشاف الحقيقة فقط وانما كمحاولة لإيجاد بديل عن الشيوعية التي بدأت تغزو الشعوب العربية خاصة الشعب العراقي والتي حولت مدينة قبلية ذات طابع ريفي مثل الناصرية الى مركز لبث الفكر الشيوعي لأنهُ كان يعتقد ان رجوع الانسان الى الدين مسألة قدرية وكل التأثيرات الفكرية ستنتهي عندما يشعر الانسان بقرب أجلهِ فالموت اكبر داعية ديني عرفتهُ البشرية والخوف من المجهول الذي يقع خلف هذا الموت سيجعل الانسان يصرخ بأعلى صوتهِ (يا الله) بالتالي فالتفكير في ايجاد بدائل للدين داخل

المجتمعات العربية سيؤدي الى خلل ربما يعود بعدهُ المجتمع الى رفع النسخة الاكثر بشاعة لهذا الدين, بينما التحرك داخل المنظومة الدينية نفسها ومحاولة ايجاد محركات ودوافع جديدة هي من سيجعل الانسان يتصالح مع نفسهِ ومع الاخرين وسيخلّف مجتمعا متجانسا روحيا, فكرة الانكفاء على الذات واعتبار التجربة الشخصية هي المعيار الاساسي لوجود الاشخاص وهنا اراد ان يقول ان التجربة الشخصية مع الله هي المعيار لنظرة الانسان للدين وايجاد محددات للتفاعل مع هذا الدين من دون فرضها كمسلّمات من الخارج وهنا يمكن ان نصل الى مفهوم جديد للحرية قائم على التجربة الشخصية, المسلّم الوحيد هو وجود الله وهو من يحرك الوجود الكلي وما الانسان الا نقطة من هذا الوجود عليهِ هو ان يكتشفَ مكانهُ ضمن هذا الوجود الكلي, هذه الجدلية كانت تتحول وربما تجد لها مرتكزات اخرى كلما اشتد الجدل مع اصحاب الوجودية الملحدة والتي كانت اكثر انتشاراً وتفاعلاً في أوربا كلها وحتى في العالم العربي, كان يرى ان تصدير الوجودية الملحدة الى العالم العربي مؤامرة الهدف منها تقويض الاسلام نفسهُ ضمن صراع الوجود بين الديانات السماوية الثلاث, هذا الرأي كان غالبا ما يرددهُ امام الطلاب العرب والمسلمين لكن البعض لا يتفق معهُ ويذهب اخرون على ان الفلسفة الوجودية وصلت الى العرب عن طريق المنتوج الادبي وكان هذا المنتج عند الوجوديين الملاحدة هو الاكثر قيمة وتميز

في تلك الفترة التقى بالشيخ منير الذِكر وهو واحد من علماء الدين اللبنانيين المهمين رغم صغر سنهِ فهو لم يصل بعد الى عمر الاربعين ولكن ذكائهُ الشديد ومحبتهُ للمعرفة جعلت منهُ يبرز ليس داخل لبنان وانما حتى في العالم العربي وكان يحضر الكثير من الاجتماعات في مصر وبلدان عربية اخرى,

انبهرَ الشيخ الذكر بهذا الشاب المتحمس والذكي وهذا جعلهُ يدخل معهُ في لقاءات جدلية في شقة الشيخ الذكر في احدى نواحي باريس, بصراحة رغم ان الشيخ لم يفكر مسبقاً بتحريك الماء الراكد داخل المنظومة الدينية ولكنهُ وجد نفسهُ يذهب مع فكرة هذا الشاب العراقي بضرورة ايجاد منظومة فكرية جديدة داخل المنظومة الدينية الاسلامية تقف بوجهِ المد الشيوعي من جهة ومن جهة اخرى تخلص الدين من الافكار المتطرفة من اخوانية او سلفية او الافكار الاسطورية وعبادة الاشخاص وانتظار إمام اخر الزمان والقبول بالظلم لحين ظهور الإمام, فكرة تحول الدين الى تجربة شخصية تمنح للإنسان مساحة واسعة لعلاقتهِ مع الله وبهذا يمتلك حريتهُ كاملة من جهة ومن جهة اخرى يعيش بتناغم مع ذاتهِ ومع الاخرين ويتخلى عن أيّ تجمعات مذهبية او طائفية التي ستكون هي العامل الاهم في نخر هذا الدين, وبنفس الوقت التخلص من لعنة الفكر الشيوعي الذي لن يستمر داخل المجتمع العربي ولكنهُ سيؤدي الى تكوين مصدات متطرفة كنوع من جلد الذات فالشيوعي الذي يعود الى الاسلام سيعود اسلامياً متطرفاً وسيكون حينها اشد خطراً على الدين مما لو بقى شيوعيا فقط, الشيخ منير الذكر كان قد وصل في فكرهِ الى ضرورة ايجاد منظومة دينية جديدة واعتقد ان اعادة احياء الفكر الصوفي سيكون كفيلاً بتخلص المجتمعات الاسلامية من حدود التدين الضيق لكن ابي اجابهُ عندما طرح الشيخ الذكر فكرتهُ تلك ان تحولات الفكر الصوفي جعلتهُ يصبح جزء من منظومة الاسلام السني بالنسبة للمذاهب الاخرى سيجدون في هذه الدعوة تحولا في من مذهبهم الى المذهب السني فقط كما ان الكثير من التِرهات والسحر حولت مفهوم التصوف الى دروشه وهذه الدروشه ستزيد من تخلف المجتمعات الاسلامية وستحولها الى

مجتمعات اتكالية فقط وسيدخل هذه المجتمعات الى دوامة من السلوكيات التي تعتمد على الخرافة والعلاقات المختلة مع الله, اما تبني فكرة خارجية مثل الوجودية فسيمنح الانسان نوع من التفكير الذاتي اضافة الى ان المجتمع سيتأثر بالتطور العلمي والتكنلوجي ويحاول ان يصل الى مركز الفكرة ولا بأس بنبوات جديدة لعدد من يعيشون فوق ارض الله هذهِ, ابي تمكن تماما من الشيخ الذكر وهذا جعل الشيخ يدعوهُ الى مرافقتهِ الى لبنان فالفكرة يجب ان تنمو في بيئتها الحقيقية, وبالفعل بعد ايام سافر ابي مع الشيخ الى بيروت وهناك التقى بالسيدة فاطمة اخت الشيخ الذكر, فاطمة فتاة لم تصل الى سن الثلاثين بعد, امرأة محجبة جميلة لها عينان واسعتان وفم صغير وسحنة ملائكية تجعل الانسان يقف مشدوداً الى هذا الوجه حتى اذا كان اخوها هو من يقف بقربهِ, لم يبق ابي طويلا في بيت الشيخ الذكر لان خبراً وصلهُ من بغداد عن سوء صحة جدي عبد النبي الذي توفى قبل ان يصل ابي الى بغداد ولكن ابي استطاع حضور العزاء واستقبال المعزين قبل ان يلتقي باسماعيل حمادي الذي كان قد سمع بهِ عند زيارتهِ الى باريس من قبل بعض الطلاب العراقيين هناك, اسماعيل عرّف ابي على مجموعة من الشباب الذين كانوا ينوون انشاء تجمع فلسفي تحت مسمى (اتحاد الوجوديين العراقيين), اغلب هؤلاء كانوا متأثرين بالوجودية السارترية الملحدة وهذا جعل ابي يدخل في موجة من الجدال مع هؤلاء الطلبة يوضحُ فيها فكرتهُ, بصراحة كانت جدالات شرسة فهؤلاء الطلبة كانوا يبدون نوع من الشراسة حتى مع قلة معرفتهم بأفكار سارتر, لكنهم بالنهاية اعلنوا هزيمتهم قبل ان يطلب اسماعيل من ابي تشكيل حزب يدعو الى الفكر الوجودي المؤمن وابي هو من سيكون الاب الروحي لهذا الحزب والمرشد الاعلى لهُ, وافق

ابي وبعد مناقشات واسعة استقروا على تسمية هذه الحركة ب (الحركة الوجودية العربية) وهي حركة سرية بدأت ببث افكارها بين طلاب الجامعات والمدارس وكذلك في المقاهي, شارك ابي في عدة اجتماعات لهذه الحركة واطمئن على وجودها, قبل ان يعود الى بيروت ويخبر الشيخ الذكر بما فعلهُ في بغداد, الحقيقة ان فاطمة هي التي جعلت ابي يترك كل شيء ويذهب الى بيروت قبل ان يطلب يدها من أخيها الشيخ الذكر, فاطمة كانت قد درست العلوم الاسلامية في مصر وكانت قد زارت الازهر الشريف وتلقت بعض دروس الدين هناك ولأن ابي كان مشغولاً طوال حياتهِ بالفلسفة اكتشف ان هناك نقص كبير في معلوماته الدينية والتاريخية ولأول مرة يبدو انه عاجز عن المواجهة امام ما تعرفهُ فاطمة التي تزوجها قبل ان يقررَ السفر برفقتها الى مصر للدراسة في الازهر, وبالفعل سافروا الى مصر وانضوى للدراسة في الازهر وخلال فترة قصيرة اصبح الطالب المفضل للكثير من الشيوخ هناك, كان متعاوناً وهادئاً وايجابياً وهذا جعل احد المشايخ الذي كان يدرسهُ هناك يطلق عليه لقب النقي وكان لا يدعوهُ إلا بهذا اللقب ولهذا اشتهرَ بهِ بين طلاب الازهر, في السنة الثانية بدأ ينشر مقالاتهُ في الصحف والمجلات المصرية وتحت اسم ابراهيم النقي وبدأت مقالاتهُ الفلسفية المرتبطة برؤية للدين والوجود والله تجد مقبولية كبيرة عند القراء لكنها شكلت قلقا شديدا عند مشايخ الازهر ففصلوهُ وطلبوا منه المغادرة وبالفعل عاد بعد سنتين الى بيروت بعد ان درس الفكر الاسلامي السني بشكل يجعلهُ يتأكد من مصداقية ما ذهب اليه مسبقاً لكن الشيخ الذكر اخبرهُ انهُ لن يستطيع ان يقول انهُ مُلم بالفكر الديني الاسلامي دون ان يدرس الفكر الشيعي وعليهِ حينئذ ان يختار بين النجف او قم, فهناك فقط يمكنهُ

التأكد من اخذ العلوم من اساتذتها الحقيقيين, لم يُفضل النجف لأسباب نفسية تعود الى معرفة الناس انه ابن ذلك الاقطاعي الذي يستغل الفلاحين وربما لابتعادهِ هو عن هذه الذاكرة التي كانت تشكل له هاجساً مزعجاً على الدوام فاخذ فاطمة وسافر الى قُم.

بالرغم من الهدوء الذي يسود الاجواء في مدينة قم لكن رأس ابي كان يكتظ بالكثير من المشاكل بعد ان اكتشف ان الانسان المسلم يقع تحت سلطتين مختلتين وهما كتب الحديث وكتب التاريخ, اشكاليات كتب الحديث استطاع ان يبحثها وحاول الوصول الى رؤية مفادها انه لا يمكن بأيِّ حال من الاحوال الثقة بما وصل الينا من حديث إلا بعد ان نعرضهُ على العقل, العقل وحدهُ هنا قادر على ايجاد الاحاديث الصحيحة التي تنسجم مع كتاب الله اولا ومع الرؤية الاسلامية التي صدرّها الينا النبي محمد لكن في قُم ظهرت اشكالية اكبر وهي اشكالية الموقف من التاريخ الذي نبني على اساسهِ الموقف الفقهي بل مجمل موقفنا من الدين وحتى من الله, وهنا ظهرت ما تسمى بالشخصية المقدسة, كانت اشكاليات القدسية في مصر تكمن بتحويل بعض كتاب الحديث الى شخصيات اسطورية لا يمكن ان تخطأ في المنهج العلمي اما في قُم فالتقديس هنا يتجاوز الخطأ والصح او ما يسمى بالعصمة الى تحويل هذه الشخصيات الى شخصيات اسطورية متفردة تمتلك قدرات معرفية وحتى جسدية اعلى من قدرات الانسان العادي, وهنا ربما يكونوا قد توصلوا الى الانسان السوبرمان قبل نيتشه بألاف السنين, المشكلة ان التجربة الذاتية او ما يسمونها بالعرفانية عند هؤلاء الاشخاص هي التي يجب استنساخها على الدوام وتسليطها حتى ولو بالإكراهِ على الانسان من دون ان يعلموا ان مثل هذه التجارب لا يمكن استنساخها وستجد

متغيراتها التي ستشوهُ التجربة الاصل وكمحاولة للتعديل يتم اضافة الكثير من المواصفات والقدرات الغريبة للشخصية صاحبة التجربة الاولى, القضية تشبهُ كثيرا تجسيد دور مسرحي وليست قراءة لفكرة ما واتباعها مع الحفاظ على الشخصية الاعتبارية للمتبع او المتأثر بالفكرة, وهذا يناقض تماما ما ذهب اليهِ ابي من ان التجربة الذاتية المحضة مع الله هي التي ستحدد لاحقا شكل ونوع العبادات وحتى المعاملات, فالبعض يرى ان قمة الاحسان ان يقوم بتوزيع الطعام على بيوت الفقراء ليلاً ومن دون ان يعرف بهِ احد مع ان اخر يرى ان قمة البّر هو ان يفتح مصنعاً يجذب هؤلاء الفقراء للعمل فيهِ وصرف لهم اجور معاشية ملائمة مع ضمان صحي وتقاعدي, هذا الاختلاف في رؤية الخير يقابلهُ ايضا اختلاف في التصدي الى الشر وبالتالي سيكون لكل انسان دينهُ الذي هو صنعهُ بنفسهِ مع وجود ثابت واحد فقط هو الله, لكن أولاً كيف نجعل الانسان يثقُ بنفسهِ وبقدرتهِ على خلق الرؤية اللازمة وهو تابع فقط, تجرهُ الافكار المتلاطمة والمتضخمة والتي حولت الكائنات التاريخية الى كائنات مُطلقة لا يمكن تجاوزها او التفكير بمنأى عنها.

وجودهُ في قُم منحهُ الهدوء اللازم للتفكير وفي نفس الوقت منحتهُ فاطمة الاهتمام اللازم, فاطمة هذا الكائن الشفاف والحقيقي والقادر على تفريغ كل هموم ابي الفكرية وهي تتناولهُ بالقبل في الليل, بعد شهرين فقط من وصولهم الى قم حملت امي فاطمة وقبل ان ينهي سنتهُ الاولى بأيام كان اخي معتز قد رأى النور للمرة الاولى, الايرانيون ناس اجتماعيون وزوجات زملاء ابي في الحوزة تكفلوا برعاية امي حتى قامت بالسلامة هي والطفل الذي بدى بصحة ممتازة, جعل ابي يعيش ايام في غاية السعادة نسى فيها الفلسفة واشكاليات الدين

وتفرغ للنظر الى هذا الكائن الصغير الذي احتل البيت وتمكن من قلوب الجميع
في السنة الثانية من الدراسة بدأ ابي يعاود نشر مقالاتهُ في عدد من الصحف العربية من دون ان ينتبهَ اليه الشيوخ الذين يعملون في حوزة قم لأنه كان ينشر مقالاتهُ تحت اسم ابراهيم النقي وعرفوهُ هنا في الحوزة بمسمى ابراهيم عبد النبي, مقالاتهُ هذه المرة كانت اكثر جرأة وبدأ يتجاوز الكثير من الخطوط الحمراء في معتقدات المذاهب الاسلامية وهذا جعل شيوخ الازهر يشنون عليه حملة اتهموه من خلالها بالزندقة والظلال, لكن زيارة غير متوقعة من اسماعيل حمادي جعلتهُ في غاية الفرح حيث ابلغهُ ان اتباعهُ في العراق ومن كل المحافظات قد صاروا بالمئات وان الاجتماعات والحوارات مستمرة وحان الوقت للتحول من العمل السري الى العمل العلني, اخبرهُ اسماعيل انهم وعن طريق علاقتهم بأحد الوزراء طلبوا من الزعيم تشكيل الحزب وهو لم يعترض عندما طرحوا عليه الفكرة بل على العكس بدى مرحبا, كل ما ينقصنا وجودكَ بيننا فقط, اخبر ابي اسماعيل ان سيلحق بهِ خلال ايام فقال لهُ انهُ سينتظرهُ وبالفعل خلال ايام رتبَ ابي كل امورهُ وعاد برفقة اسماعيل وامي واخي معتز الى العراق.
بعد ايام كان ابي يقف امام الزعيم ويطلبُ منهُ تشكيل الحركة الوجودية العربية, هزَ الزعيم رأسهُ موافقا وقال لهُ بالتوفيق, بعد اسبوع كان حفل التأسيس في احدى قاعات بغداد الكبرى قد ضجَ بطلبة الكليات وكان عدد الحاضرين في الخارج اكثر منهُ في الداخل وهذا جعل ابي يطلب منهم تحويل المنبر الى خارج القاعة ليتمكن من ايصال صوتهُ للجميع, كان يتصور ان الحياة قد فتحت ذراعيها لهُ لكن الامور بدأت تصبح اخطر مما تصور او خططَ لها, ثلاث جهات شنت حرب سرية عليه

وعلى الحركة اول هذه الحركات هم الشيوعيون الذين وجدوا في هذه الحركة منافس شرس سيكون له تأثير مباشر على الكوادر السفلى والتي سيجتذبها العامل الروحي الذي بدأ يؤطر بهِ ابي الحركة في نفس الوقت فالحركة بعيدة عن كل التيارات الدينية القديمة وعنصر الحداثة متوفر فيها بشكل جلي, ولهذا بدأوا يشنون حملة دعائية ضد الحركة تحولت في السنوات القادمة الى مضايقات ومصادمات بين انصار الحزب الشيوعي والحركة الوجودية, الجهة الثانية هم الاحزاب السلامية الذين وجدوا ان مرتكزات هذا الفكر تنسف الرؤية الدينية التي تتبناها هذهِ الاحزاب والتي تعتمد بالأساس على التبعية لشخصيات تاريخية التي عاشت في العصور الاسلامية الاولى, اتهموا ابي بالزندقة والالحاد ووصفوه بكلب سارتر حتى لا تكاد خطبة لشيخ جامع تابع لهذه الاحزاب تخلو من السب والقذف الموجه الى ابي, الجهة الثالثة هم القوميون الذين كانوا يعتبرون مثل هذه الافكار افكار مستوردة وغير صالحة للاستخدام العربي ولايمكنها ان تعيش في بلد عربي مثل العراق, الصراع مع هذه الجهات الثلاثة كان يأخذ اشكالاً كثيرة منها فكري ومنها ما يستخدم الايادي والأرجل بل حتى السكاكين ومايسميهُ العراقيون ب(التواثي), لكن اغتيال الزعيم حول الصراع الى شكل اخر, جهات مجهولة بدأت تستهدف القيادات الثانوية في الحركة وهذا جعل المقربين من ابي ينصحونهُ بالسفر الى خارج العراق لكن ابي بقى مصرا على ان يبقى موجوداً وفاعلاً ومتحركاً في المجتمع العراقي وحينها طبعَ كتابهُ الاول (الله في الفكر الوجودي) شرح فيها المتبنيات الرئيسية لفكرتهِ, بعد ايام من نزول كتابهِ الى السوق نزلت انا الى الدنيا وكانت فرحة ابي بهذا الوجود الجديد تضاهي فرحتهُ وهو يرى كتابه يتوسط الكتب الاخرى في المعارض الرئيسية

لمكتبات بغداد, اثار كتابهُ الكثير من اللغط لكن كتابهُ الثاني الذي اكمل طباعته بعد اقل من سنة والذي تجاوز فيه الكثير من الخطوط الحمراء وفند فيهِ كل الافكار الاخرى من مادية ودينية جعلت الحرب تصل الى ذروتها عندما استطاعوا استهداف اسماعيل الحمادي واصابتهُ بعدة اطلاقات جعلتهُ مقعداً على كرسي لا يستطيع الكلام ولا الحركة, في ذلك الوقت وعد ابي اسماعيل انهُ لن يضعف او يتراجع بل على العكس سيزداد اصراراً حتى اذا ادى الامر الى مقتلهِ هذه المرة, القوميون الذين استطاعوا الوصول الى كرسي السلطة كانوا يعتقدون ان مقتل ابي سيثير عليهم غضب الشارع وستتضح نواياهم الديكتاتورية والسلطوية وهم لم يتمكنوا بعد من السيطرة على كل منافذ المجتمع خاصة مع وجود الشيوعيين لكن في نفس الوقت فأنهم لن يسمحوا لابي ان يتمادى كثيرا ولا لحركتهِ ان تعبر حدود المقبولية, لكن ابي كان يتمادى بالفعل وخطبهُ ومحاضراتهُ بدأت تنتشر في المجتمع العراقي كالنار في الهشيم وبدأت افكارهُ تجد لها صدى في سوريا ولبنان بل وحتى في مصر, انتبهَ الاعداء الثلاثة للحركة من قوميين وشيوعيين واسلاميين لهذا التطور الكبير في الحركة الوجودية العربية وانتبهوا ايضا الى شخصية ابي التي بدأ يتحول الى زعيم ديني فكري سياسي ويلقى مقبولية واسعة بين الطلبة والمثقفين.

في تلك الفترة كان اخي معتز قد تجاوز الصف الاول الابتدائي بنجاح وكانت امي قد اعتادت على انتظارهِ في حدود الساعة الواحدة قبل ان توصلهُ السيارة التي تقلهُ من البيت الى المدرسة وبالعكس, لكن باب البيت في ذلك اليوم كان فارغاً ومفتوحاً على مصراعيه لذلك ركض اخي معتز الى المطبخ كان يتصور انه سيجد امي هناك فهو لا يفوّت احتضانها

وتقبيلها لهُ قبل ان تسألهُ عما فعل في المدرسة وفي كل مرة يخبرها بأدق التفاصيل, امي فاطمة كانت لها قدرة كبيرة على منح الحنان لأطفالها وبشكل يحولنا الى كائنات ملتصقة بشدة بها لكن معتز كان اشد التصاقاً وكانت امي ملجأهُ الوحيد في هذا العالم لذلك انزعج كثيرا عندما لم تنتظرهُ في باب البيت مثلما تفعل يوميا, لم يجدها في المطبخ لذلك ركض الى الصالة الرئيسية وهناك تيبس وهو يرى امهُ عارية تماما وممددة على الارض وخيوط من دم رسمت ممرات حمراء على جسدها الناصع البياض كانت ممددة بشكل جانبي افواه جروحها ما زالت مفتوحة للهواء, معتز لم يفهم المشهد ولم يتخيل للحظة ان امهُ قد تحولت الى جثة هامدة ومنتهكة بعد ان تعاقب على جسدها عدد غير معلوم من القتلة قبل ان يوغلوا سكاكينهم في كل مكان من جسدها, كما انهُ لا يعرف ماذا يجب ان يفعل, عقلهُ الصغير لم يستوعب هذه الكارثة لكنهُ كان يعرف شيئا واحدا فقط هو انهُ سيذهب الى أيِّ مكان تذهب اليه امهُ, لا يهم ان يكون في الارض او في السماء, داخل الحياة او داخل الموت وهذا جعلهُ يخلع حقيبتهُ المدرسية ويتوسد يدها اليمنى الممدودة على الارض ويغفو, كان شيئا قهريا قد اجبرهُ على النوم وكان متأكداً ان كل شيء سيكون على ما يرام عندما يصحو, سيجد امهُ تحضر طعام الفطور في المطبخ قبل ان تدس سندويش كبير داخل حقيبتهِ وتلبسهُ جواربهُ وحذائهُ قبل ان تسلمهُ لباص المدرسة, هناك خلل ما, في الحياة, مشهد زائد وغير ممكن على المخرج ان يحذفهُ لتستمر الحياة بشكلها الاعتيادي, ام يونس صديقة امي وجارتنا في البيت المقابل انتبهت الى الباب المفتوح فدخلت وهي تصرخ , ام معتز. آم معتز قبل ان يشلها المشهد وهي ترى الام وابنها ممدان في الارض تغطيهما الدماء من كل جانب, خرجت وهي تصرخ

فتجمع الجيران وفي تلك اللحظة وصل ابي الذي اثارهُ تجمع الجيران امام باب البيت قبل ان يركض ويرى الصورة التي لم تغادرهُ حتى الموت, ركض رفع معتز ففتح معتز عينيه ورأى وجهَ ابيهِ الذي بدى كبيرا وبشعاً وقريباً بشكل غريب قبل ان يلتفت ويرى امهُ وقد سبحت بدمها فادرك ان النوم لن يغير شيئا وان امهُ رحلت بدونهِ فدفع اباه وركض قبل ان يسقط ويفقد الوعي, ركض ابي وغطى امي بشرشف قبل ان يرفع معتز ويرش الماء على وجههِ حينها فتح معتز عينيه, بدى مختنقا, حاول البكاء لكنه لم يفعل دفع ابي وركض الى الخارج فأخذتهُ ام يونس الى بيتها واحتضنتهُ عندها فقط بكى وابكى كل الموجودين في بيت ام يونس, الشعور بالذنب كان قد جعل من ابي بهلوان حقيقي وهو يضرب على رأسهِ ويصرخ (انا السبب, آنا السبب) عندها ومن خلال شباك بيت ام يونس رأى معتز اباه وتأكد انهُ هو السبب, هو السبب الذي سيحول حياة معتز الى جحيم حقيقي بعد ذلك.

الحياة بعد موت امي تحولت الى جحيم حقيقي والحرب مع الاعداء الثلاثة قد مست العظم من دون ان تكون لأبي أيُّ قدرة على الرد او المواجهة فهو رفض ان تكون للحركة أيُّ ارتباط مع جهات مسلحة او خارجية واصر على استقلاليتها وكان يصرف معظم ما يدخلهُ من تركة ابيه الكبيرة على الحركة, بقى في البيت وحدهُ بينما تكفلت عمتي برعايتي ورعاية معتز الذي تحول الى طفل منزوي وصامت لكنهُ شرس اذا ما حاول شخص ما التحدث معهُ او مناغاتهُ, بعد شهر اغلقت قضية مقتل امي لعدم كفاية الأدلة وقُيدت ضد مجهول وبعد اصرار كبير من قبل كوادر الحركة على ضرورة خروج ابي من العراق, اقتنع اخيرا وقرر الرحيل الى سوريا لكن معتز رفض ان يذهب مع ابي فأقنعتهُ عمتي بترك معتز معها لعدة اشهر

اخرى, على الاقل لحين اكمال سنتهُ الدراسية فحملني بين يديهِ وتركنا العراق بالدموع التي لم يستطع ابي كتمانها قبل ان تنفلت وتنزل على خديهِ من دون حتى ان يحاول ان يمسحها, تركها تحرق خدهُ حتى تسقط على ارض هذه البلاد القاتلة.

(2)

لم يستطع ابي اقناع معتز بالعيش معنا في سوريا إلا بعد ان اكملَ دراستهُ المتوسطة وبعد ان تمكنَ حزب البعث من تسلم مقاليد السلطة وتصفية كل المناوئين الاخرين من شيوعيين واسلاميين, بينما التحق الكثير من اصحاب الحركة الوجودية بأبي في سوريا اما الذين بقوا في العراق فأما تمكنت السلطة من اعتقالهم او هم اعتزلوا أيَّ عمل سياسي او فكري واندمجوا داخل الحياة, البعض منهم قد التحق بحزب البعث والقليل منهم من استطاع ان يحتلَ مناصب ولو ثانوية في الدولة, اما انا فكان على ان العب دور البنت والذكرى في نفس الوقت, كنتُ نسخة اخرى من امي فاطمة وكان ابي طالما ما يقف امامي يتأملُ وجهي قبل ان تفلت دمعة من عينية, علاقتي مع ابي كانت مختلفة تماما, كان يحتاجني ليستمرَ في الحياة, يحتاج وجهي ليقتنعَ انهُ لم يفقد حبيبتهُ تماما ولهذا كان يلعب دور الاب والام ويغمرني بحنان كبير جدا بينما كنتُ احفظ كل شيء فيهِ, كيف يجلس, كيف يأكل, كيف يتذكر امي, حتى كيف يحلم بها, لم اشعر بفقدان الام التي لم ارها وكنتُ اكبر وانا اعرف عالما واحدا فقط هو ابي واخي وامي وحياتي كلها, لكن دخول معتز غيّر هذا العالم قليلا فمعتز الولد المشاكس الذي احسستُ بنوع من الغربة معهُ في الايام الاولى لتواجدهِ معنا في البيت لكنني احسستُ بهِ بعدها عندما فتحتُ عيني في احد الايام ووجدتهُ يقف فوقي يتأملني والدموع تنهمر من عينيه بشدة, بمجرد ان التفتُ اليهِ مسح

دموعه وهرب الى حديقة البيت وجلس هناك, فذهبتُ خلفهُ وجلستُ بقربهِ وسألتهُ

- ماذا رأيت فيّ
- انتِ تشبهينها بشكل كبير. أجابني
- هل تتذكرها...سألتهُ
- هي تعيش معي
- وابي...سألتهُ
- ما بهِ
- ماذا تشعر تجاههُ

ارتبك قليلا قبل ان يقف ويقول لي بصيغة جادة

- لا شيء

ذهب لكنهُ عاد اليَّ ومسك وجهي وقال لي

- اتمنى فقط ان يكونَ لا شيء

لم يكن معتز يكرهُ ابي لكنه كان يعتقد انه هو السبب الوحيد في مقتل امي, هو وحزبهُ تسببا بضياعهِ وحولا شخصيتهُ الى شخصية مشاكسة لذلك بقت علاقتهُ مع ابي فاترة بشكل كبير وكلما حاول ابي التقرب منهُ كان لا يجد الا الصدود رغم انه كان يتعامل مع ابي بالاحترام اللازم لكن من دون أيِّ مشاعر, اكمل معتز دراستهُ الاعدادية في سوريا وطلب من ابي ان يكمل دراستهُ الجامعية في اوربا فأرسلهُ الى باريس لأنها كانت المرة الوحيدة التي يطلب بها شيئا من ابي لكن حتى كلمة (شكرا) جاءت باردة ومن دون أيِّ معنى لكن علاقتي مع معتز في ذلك الوقت كانت علاقة اخوة حقيقية, كان احساس بالأمان قد احتلني وجعلني اكثر جرأة وانا اتجول برفقتهِ في شوارع دمشق او اتناول طعامي في مطاعمها, كان لا يفارقني, يأخذني معهُ الى أيِّ مكان يكون فيهِ وهذا جعل صداقتهُ محدودة لذلك عندما سافر احسستُ بفراغ كبير حتى ابي لم يستطع ان يسدهُ, ابي الذي بدأ عمله في الحركة يأخذ شكلا روتينيا

خاصة بعد ان تأكدَ انه لا امل لحركتهِ وافكارهِ في العراق, حتى كتبهُ التي تكاثرت ولقاءاتهُ الاذاعية والتلفازية الكثيرة والاشرطة التي تحوي خطبهُ ومحاضراتهُ تكاثرت وبدأ يتلقفها الشباب في معظم الدول العربية, لكن العراق بدأ بدوامة الحروب التي الغت التفكير عند الناس هناك وحولتهم الى كائنات مطَارَدة ومطارِدة, فالكل يركض وراء الكل والديكتاتور سلب حياة الناس الهادئة ليحول الشوارع الى سرادق للعزاء, ذهب اخي معتز وانتهت الحرب لتبدأ حرب اخرى بينما تحول الجانب الفكري عند ابي الى ملاحقة الاحداث ومناقشتها مع اتباعهِ فقط, لم يعد للوجودية مكان في رأس الشيخ ابراهيم لان الوجود الحقيقي لبلدهِ الذي احبهُ طوال حياتِه في تهديد بسبب غباء الديكتاتور وبسبب المؤامرات والحروب, الشيء الذي جعل الحركة الوجودية تستمر مع تأكل الجانب الفكري الذي هو الاساس لوجودها هو دعم الحكومة السورية التي كانت على خلاف دائم مع بغداد وكانت تستقطب كل من يعارض حكومتها بالرغم من احترامها لاختلاف الافكار والاسس التي تقوم عليها هذه المعارضة كما ان ابي استطاع ان يبيعَ معظم املاكهِ التي تركها له جدي ويستثمرها في سوريا وهذا جعل الحركة تستمر وتستقطب اعضاء اخرين معظمهم ممن يهربون من العراق ويضيعون في فنادق سوريا الفقيرة, اصبح ابي ملجأ للعراقيين هناك وكان يساعد الكثيرين مما جعلُه شخصية مقبولة حتى عند اعداءهِ من شيوعيين واسلاميين.

بعد سنوات اربع عاد معتز الى سوريا ولكن معتز اخر عاد الينا, معتز بلا عُقد, معتز نسى امي وبدأ يتقرب من ابي ويناقشهُ كثيرا في افكارهِ حتى ان ابي كان يتفاجأ في هذه المعرفة التي كان يمتلكها وعندما سألهُ ابي قال له انني درستُك هناك, كان عليّ ذلك وساعدني بعض ممن يعتبرون انفسهم تلاميذكَ حتى من دون ان يلتقوا بك في يوم ما, خلال فترة قصيرة انضم معتز الى الحركة,

كان يرافق ابي في كل مكان يذهب اليهِ وكان يقضي معظم وقتهِ في مقر الحركة واصبحت علاقتهُ بالجميع علاقة وثيقة قبل ان يبدأ يتسلل الى مراتب عليا في الحركة ومن دون معرفة ابي ويستقطب بعض اعضائها وكان يقدم الاموال للكثيرين حتى انه لم يكن يطلب المال من ابي وهذا شكل هاجس وتساؤل دائم عند ابي فمن اين يحصل على كل هذه الاموال لكنهُ لم يسألهُ لأنهُ لم يرد ان يفتح فجوة اخرى معهُ, حقيقة تصرف ابي كان غريبا فبالرغم من انهُ كان يشك بنوايا معتز وكان يضع اكثر علامة استفهام امام تصرفاتهِ لكنهُ تركهُ يفعل ما يشاء ربما كان نوعا من التعويض عن الذنب الذي كان يشعر به تجاههُ طوال حياتهِ وربما كان يريد ان يقتنع ان نظرة معتز في ذلك اليوم الذي رفعهُ وهو مغطى بدماء امهِ يمكن ان تنتهي الان ويعود معتز ينظر اليه كأب فقط, اب بلا آثام او دماء, والحقيقة ان احساس ابي بالذنب لمقتل امي لم يكن يفارقهُ وهو الذي جعلهُ يرى معتز يسيطر على كل مفاصل الحركة من دون ان يفعل شيئا رغم انهُ كان قادراً على اعادة الامور الى نصابها الصحيح في أيّ وقت وان مكانتهُ الاعتبارية في الحركة وتاريخهُ يجعلهُ يستطيع ابعاد معتز عنها في أيّ وقت, لكنهُ كان واهما فالجانب الفكري في الحركة كان قد انتهى وتحولت الحركة الى حزب معارضة للديكتاتور حتى قبل ان يصل معتز, معتز نمّى هذا الجانب داخلها وبدأ الهم الوحيد للحركة هي كيفية محاربة الديكتاتور واستقطاب عدد اكبر من المعارضين لهُ, خلال فترة قصيرة اصبح معتز الرجل الاول في الحركة وكان يسيطر على امورها المادية والتنظيمية وكانت مشكلتهُ الوحيدة هو وجود ابيهِ الذي كان يجعل معتز يفكر كثيرا قبل ان يقوم بأيّ فعل هناك خوفاً من ردة فعلهِ خاصة وهو يعرف ان لأبيهِ قيمة اعتبارية لا يمكن تجاوزها وهذا ما جعلهُ يتخذ قراراً غريباً وغير متوقع, ففي ذلك اليوم وجد ابي مجموعة من اتباع معتز يقفون عند البوابة

الرئيسية لمقر الحركة ومنعوه من الدخول وعندما سألهم قالوا لهُ انها اوامر الاستاذ معتز قبل ان يضعوه في السيارة ويعيدوه الى البيت ويمنعونهُ من الخروج, كانت صدمة ابي هائلة فهو لم يكن يعرف هذا الوحش الذي توغل داخل معتز ولم يكن يتصور ان يكون معتز بهذا السوء رغم ذلك فمعتز لحق بأبيهِ بعد ساعات وطلب منهُ الدخول الى غرفة المكتب قبل ان يسألهُ

- اسف ابي ..لكن جودكَ اصبح مُضراً وانت لا تدرك ذلك
- مضر لمن؟..سألهُ ابي
- لي ولكل احلامي
- احلامكَ بأيّ شيء. سألهُ
- بالسلطة. بكرسي العراق
- وكيف ستحصل عليه. سألهُ ابي
- هناك من سيساعدني...تعرف اكبر خطأ ارتكبتهُ في ادارتك للحركة يا ابي هو انك لم تربطها بأيّ اجندة خارجية, هناك مخططات يجب ان تكون ولكي تكون موجودا عليك ان تكون داخلها فقط
- تابع وخائن فقط. أليس كذلك. سألهُ ابي
- لا يهم المسميات المهم انني اعرف الان ان وقت الديكتاتور ينفذ وان كرسي السلطة هناك ينتظر البديل وانني يجب ان اصل اليهِ
- تصل للكرسي بعد ان تنسف كل تاريخ والدك الفكري والمعرفي وبعد ان تحوّل الحركة الى حزب لا يختلف كثيرا عن حزب الديكتاتور نفسهُ
- حسناً يا ابي...حركتك هذه هي من دمرت حياتي وجعلتني اخسر اعز الاشياء عندي. وعليها ان تعوضني الان, الامر الاخر فان هذه الافكار قد انتهت الان, الان هو صراع القوى فقط, لا وجودية ولا ماركسية ولا حتى اسلام سياسي, هناك

فقط السلطة ولاتهم ان تكون تحت أيٍّ من هذه المسميات, ابقى في البيت فقط ولا تخرب ما اقوم بهِ لأنني سأغضب حينها وانت لا تعرفني بعد عندما اغضب

سجن معتز ابي في البيت وهذا جعلني اذهب الى معتز واطلب منه ان يترك ابي بعد اخذتُ وعداً من ابي انهُ سيترك الحركة ولن يحاول الاقتراب من مقرها ابدا ويتفرغ للعمل الفكري فقط, وبالفعل غادر الشباب الذين كانوا يقفون عند باب البيت ويمنعون ابي من الخروج, عندها بدأ ابي يخرج طوال النهار, لا اعرف اين يذهب لكنهُ بعد ايام خرج ولم يعد, بحثنا عليه في كل مكان من دون جدوى, استخدم معتز كل علاقاتهِ بالشرطة والمخابرات السورية للعثورعلى ابي لكنهم لم يجدوه, بعد ايام اخبروه ان هناك معلومات تشير الى انهُ غادر سوريا متوجها الى العراق, كان معتز خائفا ان يبدأ ابي بمحاربتهِ وكشف كل ارتباطاتهِ المشبوهة لكن ابي لم يظهر, اختفى تماما وهذا جعل معتز يكف عن البحث عنهُ بعد ان كلف بعض اتباعهِ في بغداد للبحث هناك لكنهم لم يعثروا عليه, ضياع ابي جعلني اغضب كثيرا من معتز قلت لهُ ذات يوم, طوال حياتك كنت تتهمهُ بانهُ السبب في مقتل امي, انت الان السبب في ضياعهِ, هل تعرف انا الان انظر اليك بنفس النظرة التي كنت تنظرها اليهِ بعد ان وجدت جثة امي في الصالة, ادرك ذلك فقط, لكنهُ لم يجبني, خرج فقط وبعدها بدأتُ لا اكلمهُ, كان يحاول بين الحين والاخر التقرب مني لكنني كنت ابتعد, كان ابي كل شيء لي في هذه الحياة وهروبهُ جعلني اعيش في فراغ رهيب لم اكن اتوقعهُ او اشعر بوجودهِ قبل ذلك.

بعد سقوط الديكتاتور ودخول الامريكان الى بغداد عدنا لنسكن في احدى من القصور الكبيرة التي كان يملكها احد اقارب الديكتاتور حينها اكملتُ دراستي ودخلت الى جامعة بغداد في كلية العلوم, الحياة في بغداد كانت مرتبكة واصوات الرصاص يغطي الجو

والفوضى عارمة لكنني كنت اعيش على امل العثور على ابي فانا اعرف انهُ هنا ولابد ان يتصل بي بطريقة او بأخرى وانا كنت انتظر اتصالهُ هذا او حتى مقابلتهُ بالصدفة في شوارع بغداد, لكن السنة الدراسية الاولى تنتهي من دون ان اعثر عليه او على نفسي التي اخذها معهُ, في بداية السنة الدراسية الثالثة تقدم نحوي شاب في الثلاثينات من عمرهِ وسلم علي قبل ان يسألني

- سميرة ابراهيم
- نعم
- اني سعد مجيد
- اهلا
- اني واحد من تلاميذ شيخ ابراهيم النقي
- هل تعرفهُ؟
- كان يسكن عندي في البيت
- اين
- هنا .. في بغداد

جلسنا انا وسعد في نادي الكلية وبدأ يسرد لي ما جرى لأبي منذ اليوم الذي هرب فيه من البيت.

قال لي ان جماعة من المقربين من والدي والذين دفعهم معتز الى خارج الحركة قد شكلوا خلية لاستعادة الحركة من يد معتز قبل ان يتصلوا بأبي ويبلغوهُ عن نيتهم هذهِ وبمساعدة من ضباط مخابرات سوريين تمكنوا من رشوتهم وتجييرهم لجانبهم لكن ابي رفض بشدة, قالوا لهُ انهم لا يستطيعون ان يتجاوزوه لكنهم لن يسمحوا لمعتز ان يدمر كل ما بنوه وجاهدوا من اجلهِ طوال هذه السنوات فقال لهم دعوني اولا احاول معهُ وبعدها يصير خير, لكن أباك تفاجأ بتصرف معتز الذي منعهُ من دخول مقر الحركة واحتجزهُ داخل البيت عندها بدأت الجماعة تخطط لتحرير أبيكِ ثم التحرك ضد معتز لكن

اباك فاجأهم وهو يدخل عليهم بعد ان سمح لهُ معتز بمغادرة البيت, ابوك والجماعة كانوا يخططون لبث مجموعة من المحاضرات يفضحون فيها معتز لكن احد الضباط السوريين اخبرهم انه عليهم تهريب ابيك خارج سوريا لان هناك مؤامرة لقتلهِ تشترك فيها المخابرات السورية وبطلب من معتز, وبالفعل ساعدنا هذا الضابط بعد ان سلمناه مبلغا ضخما استطاع ان يرشى ضباط المعابر الحدودية بين سوريا والعراق ونجحوا من تهريبهِ الى داخل العراق, كان معتز يعرف ان اباك سيهرب وكان يريد ان يصطادهُ خارج البيت ومن دون ان تشير أي يدٍ نحوهُ, وهذا جعلنا نستعجل الى تهريبهِ الى داخل العراق, في تلك الفترة اتصلوا بي وطلبوا ان اجد مكان آمن ليعيش فيه شيخ ابراهيم فلم اجد سوى بيت لي كنت قد آجرتهُ لاحد اقاربي بمبلغ بسيط, طلبتُ منهم مغادرة البيت وبالفعل بعد ايام غادروا البيت بعد ان عوضتهم بمبلغ مالي جيد وبسرعة كبيرة اجريت اصلاحات ضرورية وأثثت البيت وبدأت انتظر قدوم شيخ ابراهيم, لم اكن اتصور في يوم ما انني سأقابلهُ فانا لم اغادر العراق وهو كان وجوده في العراق يشكل خطرا واضحا عليه, لكن الامور الان جيدة ومخابرات الديكتاتور منشغلة بالهجوم الامريكي الوشيك حتى ان الديكتاتور فتح سجونهُ واخرج كل المجرمين وهذا جعلنا نطمئن على وجدهِ هنا, بعد ايام وصل شيخ ابراهيم برفقة مجموعة من اعضاء الجماعة الذين تركونا بعد ان اطمئنوا على وجودهِ في هذا البيت, كان متعبا فنام بعد وجبة عشاء خفيفة ولم يكلمني حينها, لم يستيقظ الا في وقت متأخر في اليوم الثاني, عندما خرج انتبه الى مكتبتي الصغيرة فذهب وبدأ يقلب بالكتب, كانت كتبهُ تتصدر المكتبة مع بعض

الروايات وكتب التصوف والتاريخ بينما ذهبت انا واعددت طعام الغداء, اكل بهدوء شديد قبل ان يلتفت الي ويسألني

- انت طالب
- نعم ادرس علم النفس في كلية التربية
- جيد. وماذا تقرأ
- كل شيء..

بعد ان انتهى من الاكل وقدمت لهُ الشاي التفت الي وسألني

- ماذا تريد ان تسألني
- نعم
- اعرف ان رأسك يكتظ الان بالأسئلة
- هو سؤال واحد

ابتسم وهو يقول

- لقد خيبت ظني. ولكن لابأس ..هات سؤالك
- انا قرأت كل كتبك وباهتمام شديد وكلها تركز على ضرورة ان تكون لكل انسان تجربة ذاتيه مع الله, في الحقيقة كنتُ ابحث عن تجربة شيخ ابراهيم مع الله

ابتسم وقال لي

- ابني ..تجربتك هي المهمة لأنها بالنهاية هيَّ دينك اما تجارب الاخرين فهي لهم فقط
- لكن ..كيف اعرف انهُ الله, ربما اكون انا فقط
- ليس مهما ان تعرف, المهم ان تثق بنفسك, ثقْ بنفسك فقط
- هل تعني هنا انني يجب ان امتلك اليقين
- لا..اليقين يعني التوقف عن التفكير لكن ان تثق بنفسك انك تستطيع الوصول اليهِ
- احتاج الى علامات دالة لأتأكد فقط..
- حتى علاماتكَ انت من تصنعها

- هذا يعني ان كل شيء يكون فيّ فقط...انا اصنع الفكرة ..وربما اخلق الله الذي يخصني
- وهذا هو المطلوب, ان تصنع إلهك الذي يراقبك ويقودك الى النجاح
- والله
- ما بهِ..
- اين سيكون
- سيكون قربك ..ثق بذلك
- طيب ..ماذا احتاج منكم
- منا ؟؟
- نعم...انا انضم لحركة ذات ابعاد سياسية بالنهاية ومثلها مثل غيرها تريد الوصول الى كرسي السلطة
- لا, لم اتكلم في يوم ما على ان كرسي السلطة هدفنا
- ولكنك شكلت حركة كبيرة ولها كل المقومات السياسية لتخبرني بالأخير ان اثقَ بنفسي فقط
- كنت احاول ان اجعل الاخرين يثقون بأنفسهم فقط, لم نكن حزبا, كنا فكرة والانضمام هنا يعني الولاء للفكرة فقط
- سيدي. اعتذر منك, ولكن الشيء الذي يجب ان تعرفهُ, ان الاخرين لا يفهمون الامر بهذه الطريقة, انهم يحلمون في اليوم الذي تكون فيه رئيساً للجمهورية ويكونون هم اتباعك, ووزرائك والطبقة الاولى في المجتمع
- ربما انت فقط تفكر بهذه الطريقة
- انا فقط من استطاع ان يخبركَ بذلك سيدي

ندمتُ كثيرا على جرأتي هذهِ مع شيخ ابراهيم, لم اكن انوي ان اقول ما قلت لكنني كنت حريصاً عليه وبدى لي للحظة ان هناك بونا واسعا مما يفكر هو وما يفكر به اتباعهُ الذين شرحوا لنا افكاره, افهمونا اننا ننتمي الى حزب يمتلك رؤية

خاصة للدين وللسياسة ولكنهُ حزب بالنهاية ودخل في صراع فكري ودموي مع الاحزاب الاخرى ليس من اجل الفكرة وانما بالتأكيد من اجل كرسي السلطة, لكنني وجدتُ انه انتبه اليّ جيدا وبدأ يراقب كل المنضوين للحركة والذين كانوا يأتون لزيارتهِ بين اليوم والاخر, بعد حوالي اسبوع اقترب مني وهمس بأذني قائلا

- لقد كنت على حق

بعدها بدأ يرفض مقابلة الاخرين, انزوى في غرفتهِ قبل ان يبدأ يخرج من البيت النهار بطولهِ, لحيتهُ بدأت تطول وكان يبدو هائما على الدوام, بدأ يغيب لفترات طويلة وكنا نبحث عنه فنجدهُ نائما عند احد أضرحة احد الأولياء, لكنهُ لم يكن يستقر فخرج ولم يعد وبعد حوالي اسبوعين عثرنا عليه نائما في قبر الحلاج قرب مقبرة الشيخ معروف, في ذلك اليوم نقلناهُ الى البيت وقد بدى عليه الضعف والجوع لكن عقلهُ كان هائما في دنيا اخرى, بعد ايام من المداراة استطاع ان يستعيد عافيتهُ عندها طلب مني ان اجمع كل اعضاء الحركة الرئيسيين والذين كانوا يعرفون بوجودهِ هنا في بيتي.

بعد يومين دعوت الكل فحضروا كلهم قبل ان يتوسطهم ويبدأ بخطبتهِ الاخيرة.

قال انهُ اكتشف اخيرا انه كان مخطئا, بل كان ساذجا وكل ما فكر فيهِ قبل ذلك كان مجرد هلوسة فكرية فالوصول الى الله لا يمكن ان يكون فلسفيا, انهُ حسي فقط, هي تجربة لا يستطيع الجميع الحصول عليها, تحتاج الى مقدرة كبيرة على الصبر والتأمل, حتى اننا لا يمكن ان نشرحها للأخرين او نعلمهم اياها, هي نوع من التجلي الذي تسقط فيها الدنيا كلها ويتحول الوجود كلهُ بين يدي الانسان بالتالي فلا معنى لا للدين ولا للسياسة ولا للتاريخ ولا حتى للأخرين, كنت ساذجا عندما

تصورت ان تجربة مثل هذه ممكنة ويمكن ان تصنع مجتمعا متجانساً وناجحاً ومتطوراً, في الحقيقة كانت ستنتج مجتمعا لا يعرف ما يريد, مجتمعا ضائعاً وربما فوضويا, الحقيقة التي اعرفها الان ان من يريد ان يكون مُصلحاً او قائدا سياسيا فعليهِ ان يترك الله وراء ظهرهِ, الالهة لا تفهم في السياسة بل لا تريد حتى ان تعرفها, كنتُ غبياً كبيراً وانا اتصور ان الله يمكن ان يقودني الى خلاص اجتماعي وسياسي, الله لا يمكن ان يقودني الا اليَّ, الا الى فهم للذات الخائفة من الاخر ومن الله نفسهِ, هنا عليكم ان تختاروا, السياسة والبلد او الله, ومن يحلم بكرسي السلطة فعليهِ اولا ان يخرج الله من جبتهِ ويضعهُ بين يدي مَن يريدهُ خالصاً ومن دون أي دوافع او نوايا او خوف, الان انا قلت ما اعتقدهُ, لديّ وصية اخيرة كصديق, اذا مت فادفنوني في مقبرة الكرخ خلف قبر الحلاج, الان اخرجوا واتركوني لأنام, خرج الجميع وهو يضربون اخماس بأسداس, فهذا الطرح الجديد الذي يجمع بين العلمانية والصوفية حيّر الجميع لكن البعض صرخ ان شيخ ابراهيم فقدَ اتزانهُ, دعوه يرتاح اليوم وسنناقشهُ في الغد ونحن متأكدون ان كل ما قالهُ سيتغير, لكن لم يكن هناك غد بالنسبة للشيخ ابراهيم, ففي الصباح عندما حاولتُ ايقاظهُ لتناول الفطور كان جثة هامدة فقط, كانت عيناه مفتوحتان على وسعهما وكأنهُ مندهش من رؤية شيء ما في سقف الغرفة.

بسرية تامة حملناه ودفناه مثلما اوصى في مقبرة الكرخ خلف قبر الحلاج, لكنني عندما عدت الى البيت وحاولتُ تغيير الفراش من فوق السرير الذي سلم روحهُ عليهِ وجدتُ هذه الرسالة وهي معنونة (الى ابنتي سميرة), لم اعرف كيف اصل اليكِ, لكن احد الطلاب اخبرني عن وجودكِ في الكلية بعد ان

عرف انكِ اخت معتز, رجل السلطة الاول في الساحة السياسية العراقية الان.

(3)

اتصلتُ بمعتز فجاء صوتهُ مرتبكاً وخافتا

- اهلا سميرة...هل تحتاجين الى شيء
- انت من يحتاجني الان معتز
- ماذا احتاج
- ان تفهم, ان تعرفَ القصة بالكامل, لكن لابأس, تعال فقط وانا سأخبركَ بكل شيء
- لا اريد ان اعرف شيئاً
- معتز...انتهى اللعب وعندما يكسرُ حبل المشنقة رقبتي ستبقى هذه الاسئلة تدور في رأسكَ الى الابد
- حسنا. ماذا تريدين مقابل هذا
- ارسل نوال لأخيها في استراليا, دعها تتصل بي من هناك وبعدها سأخبركَ بكل شيء
- نوال. هذه الغبية
- معتز, آنت تعرف انها ليست غبية, هي فقط فقدت قدرتها على التلون
- حسنا سميرة..... اتفقنا

في اليوم التالي ودعتُ نوال, شكرتني كثيرا وقالت لي حتى اذا قتلني معتز فعلى الاقل اننا حاولنا, قلتُ لها لن يقتلكِ وسيفعل ما اريد, انتِ فقط حاولي ان تنسي كل ما جرى لكِ هنا عندما تصلين لأستراليا, نوال اغفري لنفسكِ اولا وستقودك المغفرة للسلام

بعد اسبوع اتصلتْ نوال واخبرتني انها وصلت لأخيها في استراليا, كنتُ قد اتفقتُ معها على ان تقول هذه الجملة (وصلتُ الى نهاية الجحيم) فيما لو وصلت الى اخيها هناك اما اذا حاول معتز اللعب معي واجبرها على الاتصال بي من بغداد فستقول لي هذه الجملة (وصلتُ ولكنني ما زلتُ في الجحيم).
نوال قالت لي الجملة الاولى فتأكدتُ من ان معتز ارسلها الى اخيها هناك عندها شعرتُ براحة غريبة وبدأتُ استعد للقاء الاخير مع معتز, في اليوم التالي وفي حدود الساعة الثانية عشر ليلا اخبرتني السجانة ان هناك من يُريد رؤيتي في هذا الوقت, ذهبتُ الى غرفة ضابط السجن وكان معتز يجلس وحدهُ هناك في مكان الضابط, ابتسمتُ بوجههِ وسألتهُ عن احوالهِ فهز رأسهُ لكنني كنت اريد ان ادخل في صلب الموضوع فقلتُ لهُ ربما نحتاج الى الشاي والقهوة فالقصة طويلة وربما نبقى حتى الصباح فأمرَ احد اتباعهِ الواقفين عند الباب على تحضير الشاي والقهوة عندها بدأتُ اخبر معتز بكل ما جرى
ربما عليّ ان ابدأ القصة من هنا, من ذلك اليوم الذي اخبرني فيه زوجي النائب سلام عبد الفتاح ان ارافقهُ الى تلك القرية التي تبرز من بين بساتين الحلة والتي تسكن بهدوء الى جانب نهر الفرات بينما تكتظُ الجهة المقابلة لها بأشجار النخيل وبشكل يغطي المشهد بالكامل, اطارات سيارات الدفع الرباعي كانت تأكل اسفلت الشارع قبل ان تدلف الى شارع صغير يشق هذه البساتين الى نصفين عندها تبدأ السيارات تخففُ من سرعتها بسبب المطبات والتخسفات التي تملأ الشارع, رائحة غريبة وهدوء رائع يملأُ المكان ويجعلهُ يكتظ بحياة اخرى, حياة صامتة وتسير بهدوء ولامبالاة, عندما وصلنا الى القرية

استقبلنا شيخ القرية وهو الخال الاكبر لسلام, كنتُ اعرف ان لهُ اخت اسمها خديجة تسكن هناك وهي متزوجة من احد ابناء اخوالها لذلك ذهبنا مباشرة الى بيتها, خديجة استقبلتني بحرارة كبيرة واستقبلت سلام بهدوء كبير حتى انها تجنبت ان تضع عينيها في عينيهِ اما زوجها حسين فبقى صامتا قبل ان يمدَ يدهُ ويسلم على سلام وينسحب, بقيتُ قرب خديجة التي سارعت الى احضار صينية كبيرة فيها الخبز الحار والقيمر مع المربى والشاي, كان طعم القيمر لذيذ جدا وكانت تبعد الاطفال الذين يمدون رؤوسهم بين الحين والاخر وينظرون اليَّ لكن واحدة من بنات خديجة بدت مختلفة وجميلة بشكل مُلفت للنظر لذلك اشرتُ لها بيدي فنظرت الطفلة الى امها التي حاولت ابعادها لكنني قلت لها ارجوكِ فقالت لها بصوت هادئ

- زهوره تعالي ...
- اسمها زهراء. سألتها
- نعم

عندها اقتربت وجلست بقربي فشعرتُ براحة كبيرة, كانت الطفلة هادئة وتمتلك شخصية واضحة رغم صغر سنها وجميلة بطريقة تلفت النظر بالفعل وهذا جعلني اسأل خديجة سؤال غريب

- هذه الطفلة لا تشبهكم
- نعم. هي تشبه خالها عطية (الله يرحمهُ)

كان سلام اخبرني ان له اخ قُتل في ظروف غامضة هنا في هذه البساتين ولكنني لم اكن اتصور ان يكون اخوه بهذا الجمال, لذلك قلتُ لخديجة بهدوء

- الله يرحمهُ

بعد الغداء الذي يتكون من سمك مشوي مع التمن الاحمر ومرقة الباميا المكتظة بقطع اللحم, صرخ الاطفال ان خالهم

سلام سيخطب بالناس, صعدنا انا وخديجة والاطفال الى سطح البيت الذي يطل على ساحة كبيرة لكرة القدم كانوا قد هيئوا فيها منصة امام مجموعة من الكراسي جلس عليها وجهاء القرية ومعظمهم من اخوال سلام بينما تجمهر الاخرون خلفهم, تكلم سلام حول المشاريع التي ينوي تنفيذها في هذه القرية من قبل الحزب كما تحدث عن المشاريع التي ينوي طرحها في مجلس النواب والتي تخص الفلاحين من توفير المكننة الزراعية حتى تبليط وتوسعة الشارع الرئيسي بين مدينة الحلة وهذه القرية اضافة الى توفير الاسمدة ومستلزمات الزراعة وبأسعار مدعومة من الدولة, لكنهُ صمت فجأةً وبدأ يرفعُ رأسهُ ليرى شيئا ما خلف تجمع الناس هذا, قطع خطبتهُ وشكر الجميع على حسن الضيافة قبل ان يعم التصفيق لكنهُ لم ينتظر, نزل سريعا من المنصة وسار بسرعة الى الجماهير المجتمعة خلف الجالسين على الكراسي من وجهاء القرية وبدأ يسأل الناس عن شيء ما وهذا اربك الجميع وجعل خالهُ الاكبر يقترب منه ويتكلم معهُ قبل ان يأخذهُ ويدخلون البيت وهو يحيي الاخرين, بعد حوالي الساعة جاء سلام وقال لي علينا الان ان نعود الى بغداد, سلمتُ على خديجة وشكرتها على حسن الضيافة ورفعتُ زهراء وقبلتها فابتسمت بوجهي ابتسامة لا يمكنني نسيانها ابدا وغادرنا القرية

كنا نسير بأربع سيارات دفع رباعي امامنا سيارتان وخلفنا سيارة, كنتُ متعبة لذلك اسندت رأسي على كتف سلام الذي بدأ يمسدُ شعري فشعرت بخدر لذيذ لكن السيارة التي تسير امامنا طارت بشكل مفاجئ والنيران تلتهمها من كل جانب قبل ان تسقط في وسط الشارع وتنقلب ويتشظى زجاجها على طول الطريق, عندها حاول سائق السيارة التي تقلنا تجنب الاصطدام بها فنزل الى الشارع الترابي لكنهُ فقد السيطرة

فاصطدمت بشجرة كبيرة جعلتنا نتقافز داخلها قبل ان يرتطم رأسي بشاشة العرض الصغيرة المثبتة على المقعد الذي بجانب السائق من الخلف وتتهشم مخلفة جروح صغيرة تغطي جبهتي, في هذا الوقت بدأ اطلاق نار كثيف تجاهنا, حاول جنود الحماية مواجهة مصدر اطلاق النيران لكنهم بدأوا يتساقطون الواحد تلو الاخر عندها وبصعوبة استطاع سلام ان يفتح الباب ونخرج قبل ان انتبه الى السائق الذي ارتطم وجههُ بزجاج السيارة الامامي ويتحول الى قطعة من دم, حاولنا ان نحتمي بالأشجار لكن اصواتهم بدأت تقترب مما جعل سلام يسحبني بقوة من يدي ونغوص داخل البساتين, كنا نركض من دون ان ننتبهَ الى المكان الذي نضع اقدامنا عليه بينما اغصان الاشجار ترتطم برؤوسنا وتغادرنا بقوة, كانت لحظة موت حقيقي, لحظة يختفي فيها التفكير وتصبح رغبة الهرب هي الرغبة الوحيدة الممكنة, كان ازيز الرصاص يحتوينا من كل جانب واصوات المهاجمين تقترب عندها سحبني سلام وسقط على الارض جعلني اسقط وراءه فانتبهت الى ان رصاصة اصابت فخذهُ الايمن, حاول ان يقف لكنهُ لم يستطع فصرخ بي, اهربي سميرة, حاولت ان اخبرهُ انني سابقي وسنموت سوية لكنهُ صرخ بكل قوتهِ ..سميرة اهربي, قلتُ لكِ اهربي عندها بدت اصوات المهاجمين اكثر قربا فسحبتُ يدي من تحت سلام وهربتُ, اغصان الاشجار تتحول الى خطوط وهمية تصطدم بي وتفلتني مخلفة الكثير من الندوب التي لم اكن انتبه اليها, كانت هناك رغبة جامحة بالعودة الى زوجي سلام تجعلني التفت الى الخلف لكنها رغبة مختلطة بالخوف والحيرة وهذا جعل رأسي يرتطم بجذع شجرة كبيرة من دون ان انتبه لوجودهِ امامي رغم كبر حجمهِ, عندها سقطتُ فتلاقفتني اوراق الاشجار وشعرت برطوبة خفيفة تتسلل الى

جسدي بينما كان الوجع في رأسي يتحول الى نبضات متحركة ومتوالية, رؤيتي بدت ضبابية وغير واضحة لكنني استطعت تمييز اصوات المهاجمين الذين بدوا انهم اقرب الي من أيِّ وقت اخر عندها احسستُ بيدين تسحبني من كتفي من الخلف, حاولت ان اعرف من يسحبني لكن رأسي لم يطعني لأرفعهُ وارى ذلك, حاولتُ بكل قوة لكنني لم أر سوى البياض, كان هناك بياض غريب يسقط على وجهي وينفلت قبل ان يحوّلني الى نقطة سوداء صغيرة تسبح داخل بياض هائل.

عندما فتحتُ عيني, الاشياء ما زالت ضبابية قبل ان تبدأ تتضح شيئاً فشيئا, انتبهت الى سقف الغرفة الذي يتكون من اعمدة خشبية مصفوفة بطريقة جميلة تسندها جدران طينية لها شبابيك صغيرة تطل الى الخارج, هناك الكثير من الكتب مع طباخ صغير في احدى اركان الغرفة و(حِب ماء) في الركن الاخر بينما فُرشت الغرفة بفرش كانت تبدو قديمة لكنها نظيفة, رغم ان كل شيء في هذه الغرفة كان بدائيا لكن كل شيء كان نظيفاً ومرتبا بشكل جيد, انتبهتُ الى شخص ما يقف في الخارج, حاولتُ ان اقف لكن الالم عاودني وهذه المرة من كل بقعة من ارجاء جسدي وهذا جعلني اصرخ

- مَن هناك؟.. أرجوكم ..ساعدوني...ساعدوني

عندها وقف عند الباب وقاطع خيوط الشمس الحريرية التي كانت تتسلل الى داخل الغرفة مولدة اشكال ضوئية على ارضيتها,
اقترب مني فتبينتُ ملامحهُ, كان شيخ ذو لحية بيضاء تم تسريحها بعناية كبيرة, وكأن ماكيير محترف هو الذي قام بتسريحها بهذا الشكل, هذا الشيخ كان ذو وجه دائري وعينان

بنيتان جميلتان بشكل مُلفت للنظر, كان جلدهُ يبدو شفافا حتى انك تستطيع ان ترى كل الشرايين والاوردة وهي تسير تحت طبقة الجلد الشفافة, راحة غريبة انتابتني وانا أتأمل سحنتهُ وابتسامتهُ التي غطت وجههُ, قال لي

- اخيراً أفقتِ ...لقد خفتُ عليكِ كثيرا
- منذ متى وانا فاقدة الوعي
- منذ البارحة

اقترب تحسسَ الجرح فشعرتُ بان الالم ينسحب الى جهة بعيدة بمجرد ان وضع يديهِ على رأسي قبل ان يلتفت ويقول لي

- يومان وستشفى كل هذه الجروح
- ولكن ..من انت؟
- انا الذي انقذكِ

عندها تذكرتُ سلام, لابد انهم قتلوه هناك فحاولت ان اقف لكنهُ وضع يديه على كتفي ومنعني من ذلك فصرختُ

- سلام. لابد انهم قتلوا زوجي
- لا تخافي...سلام بخير. وهو في البيت الان
- انت لا تكذب عليّ
- هل ابدو لكِ رجلا كاذباً
- لا. طبعا ..ولكن من اين تعرف سلام
- اعرفكِ سميرة واعرف سلام واعرف كل شيء
- كيف
- دعيني اعد طعام الفطور الان ..وبعدها نتحدث

اسند ظهري على وسادة اسندها على الحائط وبدأ يغمس الخبز بالقيمر ويضعها في فمي فأحاول ان امد يدي لكن الالم يعاودني فاستسلم وادعهُ يفعل ذلك قبل ان يصب الشاي ويقربه الى فمي فأرتشفهُ بهدوء وانا انظر اليه, رفعت رأسي فرأيت

كتاب (الله في الفكر الوجودي) الذي الفهُ ابي مصفوف بعناية في مكتبة صغيرة تستند على الحائط, عندها سألتهُ

- هل قرأت هذا الكتاب. وأشرت الى المكتبة
- أي كتاب
- الله في الفكر الوجودي
- كتاب ابيك شيخ ابراهيم النقي
- هل التقيتَ بهِ في يومٍ ما
- لا. ولكنني كنت اتمنى ان التقي به لأنصحهُ فقط...فقد كان صادقاً وحقيقياً ولكنهُ موهوم بشكل كبير
- تقصد افكارهُ حول الوجودية
- نعم...كان يتكلم كثيرا عن التجربة الشخصية مع الله لكنهُ لم يعرفها في يوم ما
- لا. عرفها قبل ان يموت
- لم اقرأ لهُ شيئا بهذا الصدد
- لم تمنحهُ الحياة الفرصة ..
- رحمهُ الله
- تسلم, لكن اخبرني الان من انت
- الان حان وقت الدواء سميرة..

كان يعرف طريقة زرق الابر وكان مسبقا قد وضع (كانونة) في يدي اليمنى لأنني كنت احتاج ثلاث ابر في اليوم مع حبوب مهدئة, بقى طوال النهار خارج الغرفة وهو يعد طعام الغداء, لم تكن عندي رغبة للأكل لكنهُ كان يعرف كيف يجعلني اتقبل الطعام برغبة واضحة, في الليل اعطاني حبة منومة بينما ذهب هو يقلّب في كتاب ما, الكوابيس لم تفارقني في تلك الليلة, كل الوجوه مرت علي لكن وجه زهراء بنت خديجة خرج من الحلم وتعلق بذاكرتي, كان قريبا وملامحها واضحة وجميلة لكن الشيء الذي جعلني ابقى مستيقظة طوال

الليل هو هذا الشبه الكبير بينها وبين هذا الشيخ, كان وجهها نفس وجهُ الشيخ ولكن بشكل اصغر, حتى يديها وحركاتها وهدوئها بل حتى الاحساس الذي شعرتُ بهِ عندما وضعتها في حضني هو نفسهُ, نهض الشيخ باكراً وخبزَ الخبز عندها احسستُ بنشاط وحيوية, غادرتني الاوجاع الا قليل منها يمكنني تحملهُ وهذا جعلني ادفع جسمي بعيدا عن السرير واخرج خارج الغرفة, وقفتُ أتأملهُ عندها التفت الي وقال لي

- صباح الخير سميرة. تبدو الامور جيدة اليوم
- نعم جيدة

عاود عملهُ في فتح العجين بشكل دائري وإلصاقهُ بجدران التنور من الداخل واخراج الخبز الناضج, اقتربتُ منهُ, سحبتُ قرص من الخبز, ثلمتهُ ووضعتُ لقمة في فمي قبل ان اسألهُ

- اذا انت عطية
- ماذا؟
- عطية اخو زوجي سلام

رمى العجين من يديهِ وبدأ يتأملني باستغراب شديد

- نعم...ولكن كيف عرفتِ
- هناك اخر دائما يشبهك في مكان يمكن ان يصادفهُ الاخرون وعندما تشتغل ذاكرتهم يعرفون
- اين...ومن ذلك الذي يشبهني
- البنت الصغرى لأختك خديجة, نسخة اخرى منك, قالت لي خديجة انها تشبه خالها الذي لا يشبهُ أيٌّ منا من اولاد عبد الفتاح
- انتِ ذكية
- انا ابنة الشيخ ابراهيم النقي, عليك ان تتذكر ذلك
- اكيد
- ولكن لماذا تعيش هنا, اعتقد ان من حقي ان اعرف

- طبعا...من حقكِ ذلك

ساعدتهُ في اعداد طعام الافطار عندها بدأ يسرد لي قصتهُ مع سلام, اخبرني بكل شيء حتى تلك اللحظة التي اطلق فيها سلام الرصاصة باتجاهِ قلبهِ, عندها توقف فطلبتُ منهُ ان يكمل لكنهُ قال ليس الان.

في المساء وبعد عشاء خفيف التفت اليّ وقال لي

- لم تصب رصاصة سلام قلبي فرفعتُ جسدي ودخلتُ الى داخل البساتين, كنتُ تائها فلا اريد ان اعود للقرية ولا اعرف الى اين اذهب لكن الالم تمكن مني بالنهاية وفقدتُ الوعي, بعد ساعات لا اعرف عددها فتحتُ عيني فكانت امي مع حسين زوج خديجة يقفون على رأسي, كانوا قد عثروا عليّ بينما ذهب خالي الاكبر لترتيب امور الجنازة ونقلوني الى هذا الكوخ الذي كان يختبأ به الجنود الذين يهربون من الجيش ايام الحرب مع ايران, انتهت الحرب وبقى الكوخ فارغا لايعرف مكانهُ إلا الجنود الذين اختبأوا فيه ايام الحرب, حسين كان واحد من هؤلاء الجنود وكان يعرف انهُ لا أحد يمكنه الاهتداء الى هذا الكوخ, ويعرف ايضا ان الحياة هنا تمنح نفسها لكل من يعيش فيها, رتبَ حسين الكوخ بشكل بسيط بعد ان نقل اليه بعض الفرش والاغطية قبل ان يخبرني بان عليهم المغادرة الان والذهاب الى بغداد لحضور مراسيم عزائي حتى لا يثير غيابهم الشكوك وعليّ ان اعتني بنفسي خلال الفترة القصيرة القادمة وتركوا لي بعض الادوية والمهدئات والطعام قبل ان يتركوني ويذهبوا, كانت ايام عصيبة بالفعل فالرصاصة مازالت تحفر لها مكانا في كتفي الايسر والالم كان لا يطاق وكنتُ اخاف حتى من الصراخ لكنني حاولت ان ابقى يقظا اطول فترة ممكنة قبل ان تتناولني الكوابيس فانهض لأجد الدنيا وقد تحولت الى خراب داخلي, بعد اربعة ايام من العذاب

والوجع والحيرة عادت امي وحسين وهذه المرة برفقة احد الاطباء الذي يعرفهم حسين والذي اجرى لي عملية داخل هذا الكوخ اخرج على إثرها الرصاصة بعد ان اعطاني مخدر جعلني اهلوسُ طوال اليوم, وجود امي بقربي جعل الامر يهون كثيرا عليّ وجعلني اتشافي بفترة قصيرة, كان حسين يأتي الى امي ليخبرها ان ابي عبد الفتاح موجود الان في بيت اخيها الاكبر يحاول ان يقنعهُ بعودتكِ, لكن امي طلبت منه الطلاق, لم يطلّقها وبعد عدة محاولات تركها تعيش هنا عندها اصبح هذا الكوخ البعيد عن العالم ملجأ الام وابنها الذين قرروا الخروج عن العالم ومصالحهِ السخيفة التي تجعل الاخ يقتل اخوه, عشنا سنوات جميلة, تعلمنا فيها زراعة بعض المحاصيل البسيطة واصطياد الاسماك وبدأت اطلب من حسين ان يكف عن جلب الطعام الينا بين اليوم والاخر, لكن القدر لا يُبقي على سعادة, فماتت امي فجأة ومن دون مقدمات, نامت في الليل واكتشفت انها غادرت الحياة بهدوء وحتى من دون ان توقظني من النوم وبنفس الطريقة التي دفنوني فيها دفنوا بعض الاحجار ووضعوا شاهدا لقبر لا يحوي على أي شيء, عبد الفتاح وسلام زاروا القبر وبكوا كثيرا بينما كانت امي هنا بنيتُ لها قبر بجانب النهر ودفنتها بيدي, فانا اعرف كيف اصل اليها حتى بعد ان ماتت, علاقتي بعدها مع الاشياء اخذت ابعاداً اكثر قربا, كنتُ اشعر بكل شيء, بأوراق الاشجار وبالطيور وبالنهر, كل شيء كان يتكلم معي مما حوّلني الى كائن هلامي يستطيع الغوص الى اعماق روحهِ ليجدهُ هناك ينتظر منذ عمر كامل, اول الطريق كان المغفرة, كان عليّ ان اغفر لهم كلهم, ابي وسلام وعزيز والعالم كلهُ الذي اجبرني على الابتعاد عنهُ, اكتشفتُ ذلك من نبات النعناع, كنت اسحقهُ بين يديّ يوميا فتخرج منهُ رائحة طيبة تملأ المكان بينما اقوم

انا بتدميرهِ بين يديّ, هذا النبات لا يكتفي بالمغفرة بل يمنح حياتهُ كلها, كل ما استطاع ان يختزنهُ طوال عمره لقاتلهِ, كنتُ ارمي ما تبقى منهُ في النهر واودعهُ واعود ليعم قلبي بمغفرة عظيمة تشمل الجميع, اكتشفتُ انني لم اكره سلام يوما فقط كنت منزعجاً لأنني لا اعرف كيف اجعلهُ ان يكون اخي فقط, اخ مثل باقي الناس, لكن سلام كان يعتقد انني سلبتهُ امهُ وربما يكون على حق في هذا لكنني لم اكن المسؤول عنهُ, من هنا بدأت تجربتي الشخصية مع الله التي كان يتكلم عنها ابيك طوال حياتهِ وهي تجربة فيها من العمق والمعرفة واكتشاف الذات والعالم الشيء الكثير لكنها تجربة هائلة تجعلك تتحد بالوجود وتصبح انت ووريقات الاشجار وهذا النهر شيء واحد, تشعر بهم كما يشعرون بك, تكتشفهم كما يكتشفونك, المشكلة الوحيدة انه ليس ثمة كلمات يمكن ان تشرح هذهِ التجربة, انهُ احساس هائل اعمق كثيرا من ان تصفهُ اللغة او يفهمهُ الاخر من دون ان يجربهُ ويشعر بهِ, احساس يلغي الوجود ويجعل هذه الدنيا بكل ملذاتها لا تساوي فلسا واحدا وهذا ما جعلني ابقى هنا فقط, حتى سمعت اطلاق النار واكتشفتُ انه عليّ ان اؤكد مغفرتي وانقذ سلام واحاول ان اوصل هذا الاحساس العميق بالأخوة عن طريقكِ انتِ سميرة, لكنني اكتشفت انني كنت مخطئ طوال هذه السنوات فالإحساس بالخير لا يعني احتجازهٌ لنفسكَ فقط, هو يريدنا ان نحوّل التجربة الى فعل حقيقي, فعل مجتمعي يمكن ان يضع الآثمون امام حقيقتهم, لكنني لم اعد استطع على فعل هذا, اصبحت مثل المسجون داخل هذا الكوخ الذي هو نفسي ذاتها, وعليكِ انتِ سميرة ابنة الداعية ابراهيم النقي ان تكملي ما تركهُ ابوكِ, ابوك اكتشف الحقيقة ولكن الموت لم يمنحهُ الفرصة ليموت من اجلها فقط, انتِ الان عليكِ ان تكوني

رسولنا انا وابيكِ الى العالم, انتِ من سيشرح قضيتنا ويحوّل الحقيقة الى فعل يمكن ان يراهُ الجميع, انتِ سميرة هو المختار الذي خبأك الزمن لتلعبي مثل هذا الدور, الدور الذي عجز الرجال عن الاقترابِ منهُ وكان علينا ان نعترف هذه المرة بنبوة النساء.

(4)

من اكثر الاشياء التي تحيرُّني في هذا العالم هو الوقت, كيف يستطيلُ احيانا حتى تتحول فيه الدقائق الى دهور ويتأكل احيانا اخرى حتى تبدو فيه الشهور الى لحظات او ربما لا شيء, نعم لا شيء, هكذا كان احساسي في الوقت في الشهور الثلاثة التي قضيتُها مع شيخ عطية في هذا الكوخ الذي يقع في نقطة ما خارج العالم, والتي تحولتُ فيها الى كائن شعوري خاص ومنفلت ويمكنهُ التنقل في عوالم عديدة خلال زمن ملغي اصلا, لكن المشكلة دائما تكمن في اللغة فالحقيقة ليستْ هناك لغة قادرة على شرح هذا التشكل الغريب والتيهان العظيم داخل الذات او العالم او الله, ربما لان أيَّ كلمة فيهِ تمتلك المعنى وفي نفس الوقت تمتلك ضد المعنى وربما تمتلك كل المعاني او تكون بلا معنى فلا اهمية للفهم هنا, الاحساس بالأشياء هو الذي ينمو ويتضخم ويتحول ويتقاطع بطرق لم تمر من قبل على كيان انسان ما, ربما كل الذي استطيع ان اقولهُ انها طريقة جديدة للشعور بالأشياء, طريقة تلغي كل الطرق المعروفة عند الناس فلا الفرح هو الفرح ولا الشوق هو الشوق نفسهُ ولا حتى الحزن هو ذات الحزن, هناك شيء اخر يجعل عينيَّ الانسان يبدوان غير مفهومتين ولا تنتميان لأيِّ شيء, قلت لشيخ عطية في الايام الاولى

- لقد تعبتُ ولم اجدهُ بعد
- قال لي. هل تعبتِ حقا
- قلت. لا اعرف هو شيء اشبهُ بالتعب ولكنهُ ليس هو
- اذا لقد وصلتِ
- لكنني لا اراهُ

- انتِ لا تريدين ذلك, تعتقدين انك غير مستعدة لهذا بعد
- اذا ساعدني, افتحْ عينيَّ بيديكَ ودعني ارى
- لا احد يستطيع مساعدتك سواكِ, ولا احد يعرف تجربتكِ غيرك
- ولو اشارة صغيرة
- حسنا. تعالي

اخذني الى النهر عندها رأيتُ انهُ قد حفر حفرة صغيرة على شكل نصف دائرة تبرز من جرف النهر, تخفُ فيها قوة جريان الماء واسند صخرة عند احد حوافها, كانت الزهور الصغيرة قد نبتت لتشكل نصف دائرة ملونة تبرز من جرف النهر كثدي امرأة لم يمسهُ رجل في يوم ما, طلب مني ان اتمدد داخل الماء واسند رأسي الى الصخرة بينما يضيع جسدي كلهُ داخل جسد الماء, قال لي انه شعور بالاحتواء قد يقودكِ الى شيء ما

بقيت طوال النهار داخل الماء, في البداية كانت موجات الماء التي تصطدم بجسدي وتدغدغني وتجعلني ابتسم بينما تلامس يدي الورود الصغير التي اخذت تحرك وريقاتها كلما اقتربت يدي منها لكن بعد ذلك توغل احساس الماء الى داخل كياني كلهُ, كيف يتحول الماء الى رجل حقيقي يستطيع اشعال رغبة تائهة في امرأة, الماء هنا تحول الى رجل ولكن الرغبة تختلف رغم انهُ يستطيع ملامسة كل عضو من اعضاء جسدي في نفس الوقت, يستطيع مداعبة حلمة نهدي وتحريك بظري في نفس اللحظة بينما يشعل جسدي كلهُ بالقبل, كان يحاول ان يصل الى شفتي فابعدهما خوفا من الاختناق ولكن هذا الملعون كان يعرف كيف يتلاعب بي, كيف يخبرني عن حبهِ ورغبتهِ بي ويلعب معي لعبة الرغبة التي حولتني الى كيان هائم في لذة غريبة, لكن هل كانت هي نفسها اللذة الجنسية التي اعرفها

مسبقا, لا هي لذة اخرى, لذة تجمع عدد كبير من اللذات تحتاج الى مرشحات ضوئية لتحليلها وتمييز اللذات الداخلة في تكوينها, لذة تحوّل كل خلية من خلايا الجسد الى كائن ذكي وحساس يفهم كل ما يجري ويشعر بكل التفاصيل من دون ان تكون له القدرة على اخراجها عن طريق اللغة, رأسي وحده كان خارج اللعبة وكيف لي ان اشرح شيئا ما من دون ان استخدم رأسي, لكن لماذا هذا الاصرار على تحويل هذا الاحساس الهائل الى لغة, لماذا لا اعيش اللحظة فقط ما دمتُ لا احتاج شيئا من العالم, هكذا كان يفكر عطية طوال الوقت لكنني ادرك الان ان التجربة هي دائما من اجل الاخر, الركون هنا الى الذاتية المحضة يفقد التجربة معناها ويجعل الموت يمحو ببساطة كل هذا الشعور الكبير بالحياة, عطية سمح للموت ان ينتصر عليهِ وكان كل همهُ ان يجعلني احارب هذا الموت واجد الطريقة التي اصدّرُ فيها هذا الشعور الهائل للأخرين, هي النبوة التي لا تحتاج الى معجزات ولا الى لغة, النبوة التي تحوّل الاخرين الى انبياء للنهر والاشجار والعصافير, ربما يبدو الامر مستحيلاً ولكن لا احد يريد ان يبدأ رغم ان محاولات كثيرة قد حصلت عبر التاريخ ولكن الاستمرار صعب وقاطعي الطريق الروحي كثيرون وقادرون على صلب الحقيقة واحراقها دائما.

بعد تجربة الماء هذه بدأت الاشياء تتحول داخلي والعلاقات تتكون والقصص تتكاثر فكل ورقة من وريقات الاشجار كانت تملك قصة وكل عصفور او بلبل كان يمكنهُ ان يحدثني عن تجربتهِ اما الماء فكان راوية محترف بالفعل لا يكتفي بسرد القصص بل يستطيع صياغتها بطريقة مدهشة تجعلني في غاية الترقب وانا بين يديهِ, ثلاثة شهور او لا شيء, كنت اتمنى ان لا ينبهني عطية ان لي دور يجب ان العبهُ هناك في

بغداد مع سلام النائب في البرلمان ومعتز الشخصية الابرز في سياسة الموت العراقية, لم اكن خائفة ولكن خساراتي كانت كبيرة, وصعوبة التفسير كانت متعبة وربما مملة لكنني لا يمكن ان اكررَ خطأ ابي او عطية, ابي الذي عاش طول حياته موهوم بالحقيقة وعندما اكتشفها قرر ان يموت وعطية التي تمكنت منهُ الرغبة هذه بطريقة جعلتهُ ينسى دورهُ الاهم في الحياة اما انا فكان علي ان اخرج فقط, اخرج للعالم واقول الحقيقة وعندها ربما يصلبني العالم ويحرقني ولكن ما قلتهُ سيبقى يدور في ذاكرة الزمن والى الابد.

قادني عطية من يدي ومشينا حوالي اكثر من ساعة داخل البساتين قبل ان نصل للقرية, قال لي اذهبي الى بيت خديجة وحسين سيقوم باللازم, وصلت الى بيت خديجة كان الباب مفتوحاً فدخلتُ, لم اجد حاجة لطرق الباب والانتظار, وجدت زهراء تقف امامي قبل ان تركض نحوي وتحتضنني بطريقة احسستُ معها بنشوة الماء واوراق الاشجار والعصافير معا, شممتُ عطرها, كانت رائحة عطية ما زالت تفوح من ثناياها عندها خرجت خديجة وصرخت

- سميرة

ركضت نحوي واحتضنتني وقادتني الى الداخل, بعد دقائق دخل حسين وسلم علي قبل ان يقول لي

- اين كنتِ سميرة, بحثنا عنكِ في كل مكان
- انت تعرف اين كنت حسين
- لا.....عندهُ(باستغراب)
- نعم
- ولكن ..لماذا
- الله ...حسين... الله يمنح من يشاء بغير حساب

- نعم, ونِعمَ بالله, والان, ماذا ستفعلين
- ارجع الى بغداد, اتصلْ فقط بسلام واخبرهُ بالعثور عليّ

بعد ثلاثة ساعات كانت سيارات الدفع الرباعي قد ملأت القرية, دخل سلام مثل المجنون واحتضنني وهو يسألني

- اين كنتِ سميرة
- لا اعرف سلام

كنتُ بلا ذاكرة ..والان فقط تذكرتكم, وأنت كيف اصبحت

- انا بخير الان ..وفقط الان, القلق والخوف عليكِ دمرني سميرة
- لابأس عليك, ها انا اعود, اتمنى فقط ان لا تندم على ذلك
- اندم. ماذا تقولين
- امزح معك فقط

صعدنا الى احدى السيارات وانطلقنا نحو بغداد, خروجي من بين هذه البساتين كان يشبهُ كثيرا خروج الروح من الجسد, فرغبة البقاء كانت جامحة خاصة وانا لا اعرف كيف يمكنني مجابهة هذا العالم المختل وماذا عليّ ان اعمل, لكن لابأس فانا اعرف ان الامور ستسير بشكل جيد, سيتحملونني بعض الوقت ثم يلقون بي الى داخل الموت, لكنني لن اكونَ صيداً سهلاً لهم وسأهجم هذا الخواء على رؤوسهم, معتز وسلام عليهم ان يستعدوا لهذا الجحيم الذي سيكتسحُ احلامهم وطموحاتهم التي بنوها على جماجم الاخرين وعلى دموع الاطفال وجوعهم وضياع الناس مقابل ان تمتلأ ارصدتهم بملايين الدولارات, عليهم فقط ان يفهموا ان الامر لا يستحق كل هذا الوجع وان ما يفعلونهُ بالأخرين لا يمكن تفسيرهُ ولا حتى غفرانهُ وكل ما عليهم ان يتركوا كل شيء اذا لم تكن لهم المقدرة على اصلاحهِ

بعد عودتي الى البيت بيومين اخرجتُ رسالة ابي التي قرأتها عشرات المرات قبل ذلك ولكنني هذه المرأة اقرأها بشكل مختلف, ابي في هذه

الرسالة يعتذر من العراقيين فكل الذي انتجهُ نضالهُ الطويل وبحثهُ عن الحقيقة كان هذا الشكل المشوه للسياسية واستخدام الدين من اجل مصالح شخصية وحزبية تعمل ليل نهار على نخر البلد وتهديم كل اسسهِ ومرتكزاتهِ الاخلاقية وتحول الدين الى سلاح نووي يستطيع ان يزيل الحياة خلال وقت قصير, فالدمار الفكري والاخلاقي الذي اصاب العراقيين والتي بدأت بذورهُ تتشكل وتنمو مع دخول الحصار الاقتصادي بداية التسعينات لتكملهُ امريكا بالاحتلال وتكون مخرجات مفكريه كارثة بشرية مثل معتز الذي استطاع بفضل ارتباطاتهِ الخارجية على فرض سيطرتهُ على جزء جيد من خارطة السياسة العراقية, واقول جزء لأنه يبدو من المستحيل ان يستطيع زعيم ما السيطرة على كل ارجاء الخريطة, حقيقة كان غياب معتز عن الساحة السياسية لن يؤدي بالضرورة الى تدميرها على أمل انتاج خارطة اكثر انسجاماً واقل جريمة لكنهُ سيشكل ضربة قوية لكل المتحاصصين وربما ستجعل العراقيين يكتشفون قدرتهم في ازالة كل هؤلاء الذين تسببوا بكل هذا الخراب, اقول ربما فانا لم افهم لحد الان كيف يفكر العراقيون وماذا يريدون والى اين يريدون ان يصلوا حتى انهم يستمرون في المسير الى الهاوية وهم يرون من هو امامهم يسقط فيها ليسقطَ التالي مع معرفتهِ مسبقا بان كل ما يفعلهُ هو الذهاب برجليهِ الى الهاوية, لكن ربما يحتاجون الى صوت ما يصرخ بهم وهذا ما طلبهُ ابي مني, اول مرة اقرأ الرسالة ابتسمت لأنني لم اكن اتصور ان ابي يثق بي حتى يرسلني لمهمة بهذا الحجم فمن اكون انا مقابل آلة الموت والدمار هذه, من اكون انا مقابل من يسيطر عليهم معتز ويقودهم من كيانات واشخاص واسلحة وعجلات, في الحقيقة هناك جيش تحت إمرة معتز يستطيع ان يهجم البلد اذا اراد ذلك اضافة الى اذرعهِ الامنية والمخابراتية والجواسيس الذين ينتشرون في كل مكان ورغم ذلك فأبي يعتقد انني استطيع تدمير كل ذلك, في حينها بدى لي الامر مضحكاً لكن اليوم اشعر بان كل ما يملكهُ معتز لا يسوي واحد بالمئة مما املكهُ

من ايمان وقدرة على التحدي والمواجهة, لا اعرف ان كان ابي اكتشف بطريقة ما انني استطيع الوصول الى هذه القوة لكنهُ يضع ثقتهُ بي ولن اخذلهُ بعد ان خذلهُ حتى عقلهُ طوال حياته
بعد ايام من التفكير وضعتُ خطة للتحرك والعمل وهذه الخطة تتكون من محورين رئيسيين, المحور الاول هو الحصول على اكبر عدد من الاموال التي تعود ملكيتها لمعتز وحتى سلام وتوزيعها على الفقراء اما المحور الثاني فهو اعادة ابي الشيخ ابراهيم النقي الى الحياة وجعلهُ يفضح معتز فهو الوحيد الذي سيسمعهُ الجميع وهو القادر على سلخ معتز من هيئة الرجل الصالح التي يحاول تصديرها دائما, المحور الاول كان اكثر يسرا والتحرك لبلوغهِ كان اكثر سهولة لان معتز ومنذ ان عاد الى العراق وبدأ عملية شفط الاموال كان يحوّل بعضها الى املاك ويسجلها بأسماء بعض الاقارب وانا حصلت على الحصة الاكبر فهو يعرف جيدا انني تحت يديهِ على الدوام واعتقد كانت هذهِ واحدة من الاسباب الذي جعلتهُ يرمي سلام عبد الفتاح في طريقي كي اعشقهُ قبل ان يتزوجني بعد ذلك, كان ذكيا فسلام عبد الفتاح بجسمهِ الرياضي وعضلاتهِ المنتفخة وصدرهِ البارز واسلوبهِ القريب من القلب وغيرتهِ التي ابداها في الايام الاولى التي تعرفتُ فيها عليه كانت كفيلة بان تُجبر أيَّ فتاة بهِ, وانا هنا لم اكن استثناءً, نعم فكرتُ بهِ بكل السوء الذي في العالم وكنت اتمناهُ بكل خلية من خلايا جسدي والشيء الجميل انه كان بالضبط كما تخيلت, منحني كل شيء وبصورة اكثر من رائعة وهذا جعلني اسير وراءهُ مثل الممسوسة التي لا تعي ما حولها, في هذه الفترة كان معتز يأتي بين فترة واخرى يحمل بعض الاوراق التي اوقع عليها, كنت اعرف انها اوراق لشراء بيوت وعمارات وفي اماكن مختلفة من بغداد والمحافظات, الان جاء اليوم الذي اعيد هذه الاموال لمستحقيها, كل ما علي الان البحث عن محامي يمكن الوثوق به يبيع كل هذه الاملاك ويحوّلها الى اموال, اما المحور الثاني فجعلني اتصل ب(سعد) هذا الشاب الذي شهد ايام ابي الاخيرة واطلب منه ان نلتقي,

هو اعطاني رقم موبايلهِ وفي حينها لم اجد ضرورة لذلك لكنني اخذت الرقم ووضعتهُ في محفظتي ونسيتُ ذلك لكن اليوم فقط فهمت ان العالم يرتب لي الامور ويسهل عليّ مهمتي وبشكل غريب.
التقيتُ بسعد بعد ايام وطلبت منه ان يجمع لي كل من مازال يثق بهِ من اتباع ابي في بيتهِ لان عندي ما سأخبرهم بهِ, قال لي ان البعض قد سافر والبعض الاخر يعيش ظروف مادية ومعيشية صعبة والبعض لم اعد اثق بهم, قلت له اتصل بكل من يعيش ظروف صعبة وكل من تثق بهِ فقط واخبرني, اعطيتهُ رقم تليفوني وذهب, بعد اسبوع اتصل بي واخبرني ان الاجتماع سيكون غدا صباحا وفي بيتي واعطاني عنوان البيت
وجدتُ عشرة من اتباع ابي يجلسون ويتناقشون بصوت عالي لكنهم صمتوا بمجرد ان دخلت, جلست على كرسي في مكان مميز وبدأت اشرح لهم فكرتي, في البداية صمتوا لكن احدهم كان اكثر جرأة وسألني بهدوء

- ست سميرة. آنت تريدين تعملين ضد مصالح اخيكَ, قولي لنا كيف يمكن ان نثق بكِ, انتِ تعرفين ان معتز سيدهسنا بقدميهِ مثل الحشرات لو عرف بذلك, وأنت تبقين اختهُ

اخرجت الرسالة وطلبت من سعد ان يخبرهم عنها ويقرأها لهم فاخبرهم سعد وكان بعضهم يعرف اصلاً بأمر هذه الرسالة ثم قرأها لهم بصوت عالي قبل ان يسلمها اليَّ مرة اخرى

- الان ربما افتهمتم..انها وصية ابي, واستاذكم الشيخ ابراهيم النقي والذي سنعمل على اعادتهِ الى الحياة مرة اخرى وهذه المرة من خارج العراق, قلتُ لهم ان ابي ترك مجموعة من المقالات التي لم ينشرها مسبقا سنرسل واحد منكم الى مصر ونبعث لهُ هذه الرسائل من هناك سيرسلها الى الصحف والمجلات العربية والعراقية, طبعا كل هذا لأننا نعرف ان معتز سيصل بسهولة الى باعث المقالات لو ارسلناها من

العراق اما من مصر فهذا شيء مستحيل, بل كان ممكن ان يصل للمرسل فيما لو ارسل هذه الرسائل من سوريا ولبنان او ايران فلديهِ مجساتهُ هناك ايضا, اما مصر فيضيع فيها العالم كلهُ, اخبرتهم بحاجتي الى محامي والحقيقة ان فكرة المال الذي سأوزعهُ على الفقراء قد حفز بعضهم ممن يركضون ليل نهار من اجل توفير لقمة العيش فقط, فاخبرني احدهم ان اخيه محامي وهو ايضا كان احد اتباع الشيخ ابراهيم وانهُ يمكن الوثوق بهِ, كنت اعرف ان المواجهة ستكون كبيرة عندما يعلم معتز بما فعلت لكنها الحرب الاخيرة ومعتز هنا لن يستطيع ان يطردني من مقر الحزب وانما عليهِ ان يطردني من الدنيا كلها, حقيقة لا اعرف ان كان سيفعل ذلك من اجل بضعة املاك لا تساوي شيئا مقارنةً بما يملك من ثروات اعتقد انه لا يعرف حتى هو حجمها الحقيقي.

في اليوم التالي قابلتُ المحامي وشرحتُ له كل شيء, طلب مني عقود الملكية فقلت لهُ انها كلها عند معتز فقال لي يمكن ان نستخرج غيرها, شعوران غريبان انتاباني تجاه هذا المحامي, شعور بالراحة كونهُ محامي جيد ويعرف ما يريد ويمكنهُ ان يقوم بالعمل على اكمل وجه وشعور بعدم الراحة كونه جدي وليبدو عليه انه من اتباع ابي الحقيقيين وهذا جعلني اسألهُ

- هل كنت من اتباع الحركة الوجودية

ابتسم وقال لي

- كانت نزوة شباب في رحلة البحث عن الذات فقط
- اذا انت الان لا تؤمن بها
- انا الان لا أؤمن بشيء, لا الوجودية ولا حتى بالدين كلهُ, وبصراحة اكثر فانا لا اؤمن بالرب, القضية تبدو لي سخيفة جدا ولكننا حولناها الى كارثة, ايماننا هو الذي يحوّل الاشياء

الى كارثة, وها هي وجودية ابيك تتحول الى وحش اسمهُ معتز يمتص دماء هذا البلد يوميا ويحوّلهُ الى مسخ حقيقي

- اذا لماذا ستقوم بمساعدتي
- لأمرين, الاول هو انني سأطلب اجور عالية مقابل خدمتي هذه والامر الثاني هو انني كانسان وطني انتمي لهذا البلد على المساهمة في تحطيم هذا الكائن السياسي القاتل الذي احتلنا بعد 2003
- اذا انت تؤمن بشيء ما
- اؤمن بالعراق فقط, ليس كمكان ولا كناس يجوبون شوارعهُ يوميا وانما كذاكرة وكفهم وكشيء اعرفهُ بشكل جيد, احفظهُ على ظهر قلب ولايمكنني العثور على بديل لهُ
- الان يمكنني الوثوق بك
- هل كنتِ لا تثقين بي قبل ذلك
- انت تعرف انها مغامرة كبيرة ونتائجها غير معروفة
- وانا احب المغامرات

بالفعل استطاع هذا المحامي في خلال ستة شهور ان يبيع كل الممتلكات التي سجلها معتز باسمي وهي ثلاثة عمارات وخمسة عشر بيتا تتوزع على مناطق مختلفة من العاصمة قبل ان يتحول الى المحافظات ويبدأ بالعمل هناك, كنتُ اعرف انه يقبض ملايين الدنانير في هذه العملية اضافة الى اجورهِ العالية ولكنه كان يقوم بعمل رائع وبسرية كبيرة جعلت معتز لم ينتبه الى ما افعله طوال هذه الفترة, لكن المقالات التي بدأت تنتشر في الصحف باسم ابراهيم النقي جعلت معتز يُجن, ظهور ابي على الساحة مرة اخرى كان مفاجئة كبيرة ليس لمعتز بل حتى لاتباعهِ الذين بدأوا يتصلون مع بعضهم ويسألون عن مكان الشيخ ابراهيم النقي, لم تتطرق المقالات الاولى الى معتز او الحركة وكانت تشرح ما توصل اليهِ الشيخ ابراهيم النقي التي

تحولت رؤيتهُ من الوجودية الى العلمانية فالخراب الحقيقي سيحصل عندما نحشر الدين في الدولة ونجعل من الساسة كيانات مقدسة, بصراحة لا اعرف من اين جاءتني هذه القدرة الكبيرة على الفهم بل وعلى امتلاك اسلوب ادبي يقترب كثيرا من اسلوب ابي وهذا جعل الجميع يصدق انها مقالات الشيخ النقي, بعد ذلك بدأتُ بعدة مقالات تهاجم معتز وهذا الكيان المسخ الذي يبني مجدهُ الشخصي على دماء وجماجم العراقيين وبدأت اشرح طبيعة الصراع الحزبي بين الكتل المتحاصصة والذي يكون الابرياء هم ضحايا هذا الصراع, عندها جن جنون معتز وسلام وبدأوا يطاردون كل اتباع ابي القدامى, كان معتز يمتلك كل الهيكلية التنظيمية للحركة وكل اتباع الحركة الذين في العراق او في سوريا وهذا جعلني اطلب منهم ان يغيّروا اماكن اقامتهم بعد ان دفعت لهم اموال تمكنهم من ذلك, الشيء اللطيف انه لم يتذكرني احدا لا سلام ولا معتز في كل هذه الضجة وكنت اتحرك براحة كبيرة وبحرية تامة, عندها بدأنا المرحلة الثانية وهي مرحلة التصريحات واللقاءات التلفزيونية والتي اشترك فيها مجموعة من اعضاء الحركة في خارج العراق بعد ان اتصلنا بهم, البعض وافقَ مباشرة والبعض وافق بعد ان عرضنا عليه مبلغ من المال, كانت هذه اللقاءات والتصريحات بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير لان القنوات العراقية والتي هي تابعة بمجملها الى احزاب بعضها مؤيدة ومتحالفة مع حزب معتز والبعض الاخر في حالة حرب مستمرة معهُ, هذه القنوات وجدت فرصتها في هذه اللقاءات واخذت تبثها وبشكل مكرر مع سيل من التحليلات السياسية التي جعلت معتز يفقد كل هيبتهِ ومكانتهِ وخلال فترة قصيرة, الكل كان يبحث عن الشيخ ابراهيم النقي, كل القنوات التلفازية بل حتى مخابرات الدول التي هي ضد التجربة

السياسية العراقية من الاصل والتي بدأت تشكل كيانات طائفية وتحول الصراع الى طائفي محض
الخلية التي كان يترأسها سعد والتي كانت تتحرك بأوامر مباشرة مني بدأت تشعر بأهمية ما انجزتهُ وفي نفس الوقت بالخطر فهي وصلت الى الحد الذي لا يمكنها التراجع وفي نفس الوقت الاستمرار قد يؤدي بها الى هلاك اكيد ولهذا بدأنا نضع الخطط لحماية انفسنا اولا قبل التحرك واستكمال ما بدأناهُ, طلب مني سعد ان نشتري بيت كبير في اطراف بغداد في منطقة معزولة بعيدا عن الانظار ومن هناك ندير كل شيء, فمعتز يمكن ان يصل الينا حتى مع تغيير اماكن اقامتنا, وبالفعل اشترينا هذا البيت وجهزناه بكل ما هو مطلوب وبدأنا العمل

(5)

موقف زوجي سلام مني كان غريباً, فهو لأول مرة لم يضع شكوكهُ بين يديّ معتز, سلام كان قد لاحظ خروجي وتحركاتي غير الطبيعية وانا اضطر للذهاب الى البيت الذي كان مقر للجماعة ومن هناك ترسل كل المقالات والصور والتقارير التي بدأنا نحصل عليها بطرق مختلفة قبل ان احولها الى مقالات ارسلها الى مصر ومن هناك ترسل الى صحف ومجالات عراقية وعربية موقعة باسم الشيخ ابراهيم النقي والتي تدين معتز وتفضحهُ بشكل مؤثر جعلهُ مثل المضروب على رأسهِ لا يعرف ما يفعل سوى استهداف اشخاص كانوا بعيدين جدا عنا, حظهم السيء هو الذي جعلهم يرتبطون بحركة الشيخ ابراهيم النقي في فترة ما من فترات حياتهم لتكون اسمائهم في قوائم الحركة التي كان يمتلكها معتز, لكنني لم اكن اتصور ان سلام سيبدأ يشك بي ويعتقد انني اخونهُ مع شخص ما, خاصة بعد اخبروهُ جماعته الذين كلفهم بمراقبتي انني اذهب الى بيت في اطراف بغداد, وهذا جعلهُ يقتحم علينا البيت مع جماعتهِ ليقف مذهولاً وهو يرى انني اخونهُ مع مجموعة كبيرة من الاشخاص ولكن ليست الخيانة التي اعتقدها, قلت له ارجوك سلام, دعنا نذهب للبيت وسأشرح لك كل شيء, لكن لا تؤذي احدا هنا, افهم اولا وبعد ذلك لك ان تقرر ما تشاء, لا اعرف لماذا سمع كلامي, كانت صدمتهُ بي كبيرة ولم اعرف كيف اشرح لهُ الامر بل كيف يمكنني ان اقنعهُ وهذا جعلني افكر بحل اخر, سلام يجب ان يخرج الان

من عالم الخطيئة وهذه فرصتي الوحيدة وعلي ان اجد طريقة ما لإخراجهِ من هذا العالم لذلك عندما رجعنا اخبرتهُ ان ابي الشيخ ابراهيم النقي هو من يدير هذه الجماعة وهو من يحارب معتز الان ويعمل على نسف إمبراطورتيهِ الشيطانية هذه وطلبت منه ان يقابل ابي ليفهم الفكرة كلها وما فعلهُ معتز به وبالعالم, كنت اعرف ان سلام سيجدها فرصة لكي يسلّم ابي الى معتز بعد ان عجز معتز على العثور عليه فسألني

- اعتقد ان اباك موجود في مصر الان
- لا سلام انهُ في العراق ..
- لكن كل ما يكتبهُ يأتي من مصر
- نعم هو يرسلها الى مصر ومن هناك يرسلونها الى الصحف, فعل ذلك لكي لا يعثر معتز عليه
- واين هو الان
- سنذهب اليه ولكن بشرطين, الاول ان لا تخبر معتز بشيء الان, قابلهُ اولا وبعد ذلك افعل ما شئت, والثاني هو اننا سنذهب غدا بمفردنا لمقابلتهِ
- لماذا تريدنني ان اقابلهُ
- الامر يتعلق بي سلام, اريدك ان تقتنع انني زوجتك الصالحة التي لم تخنكَ في يوم ما وان كل ما فعلتهُ كان من اجل ابي فقط, وافق سلام على شروطي لكنهُ وضع احد اتباعهُ على باب البيت كي يمنعني من الخروج في ذلك اليوم, في اليوم التالي كنت معهُ في السيارة, كان ينظر الي بشك وقلق غريب قبل ان يسألني
- الى اين سميرة
- الى الحلة. سلام
- اين..باستغراب

ابتسمتُ بوجههِ وقلتُ لهُ

- سلام. آنت تعرفني جيدا, لا تخف حبيبي
- ولكن ..ماذا يفعل ابوك هناك
- وهل هناك مكان آمن اكثر من هذه البساتين التي يضيع فيها العالم

بعدها لم نتكلم, لكن الحيرة والقلق بدى واضحين على ملامحه بالرغم من ان هناك رغبة خفية كانت تجعلهُ يتبعني بصمت, تركنا السيارة في مكان ما داخل البساتين وبدأنا نمشي, عندها سألني

- سميرة, هل فعلا سنجد اباك هنا
- لا تخف سلام...ستجد ما يرضيك

عندما وصلنا الى الكوخ كان عطية قد وضع قدر صغير على النار التي يحركها بغصن صغير قرب النهر, لم يرَّ سلام ابي من قبل لذلك لم يشك بشيء ونحن نقترب على عطية من خلفهِ لكنني صرخت بعطية

- مرحبا شيخي

التفت عطية قبل ان يقف ويقترب من سلام, عندها وقف سلام مشلولاً تماما, كان لا يفهم شيئا, كيف يمكن ان يكون عطية هو ابو سميرة, لكن عطية اخذ بيدهِ بهدوء وهو يقول لهُ

- اهلا سلام...اهلا اخي
- عطية
- نعم. عطية اخوك
- ولكن
- تعال فقط

لكن سلام وبحركة غريبة سحبني من يدي وقادني بسرعة نحو السيارة تاركاً عطية يراقبنا ونحن نختفي داخل البساتين, صعدنا السيارة ورجعنا الى البيت, عندها دفعني سلام وجلس قبالتي وقال لي بجدية كبيرة

- الان اخبريني بكل شيء. لا تتلاعبي بي..اخبريني الحقيقة فقط

اخبرتُ سلام بكل الذي حصل منذ الساعة التي انقذني فيها عطية في هذه البساتين حتى اللحظة التي يجلس فيها امامي الان وهو في غاية الاستغراب والحيرة.

سلام بدى مرتبكاً بشكل حقيقي فهو لا يستطيع تجاهل هذهِ المعرفة الجديدة بعد ان كان يشعر طوال عمرهِ بالذنب لأنهُ قتل اخوه, مرت ثلاثة ايام لم يكلمني فيها, كنتُ خائفة من ان يخبر معتز بكل شيء لذلك طلبت من الجماعة ان يتركوا البيت ويختفوا هذه الفترة ويبقى سعد وحدهُ على اتصال بي بين يوم واخر, لكن سلام لم يخبر معتز بشيء, كانت لديه رغبة بزيارة عطية مرة اخرى لكنهُ حاول تجاهلها وصدها قبل ان تتمكن منه ويقف امامي, يطلب مني ان نذهب لزيارة عطية مرة اخرى وبالفعل ذهبنا في اليوم التالي وعندما وصلنا طلبَ مني ان اتركهم لوحدهم هو وعطية داخل الكوخ فذهبتُ تمددتُ داخل الماء وغبتُ في عالم اخر...

لا اعرف كم من الوقت انقضى وانا داخل الماء قبل ان يقف سلام فوقي ويبتسم بوجهي ويسألني

- انه ماء ايضا مثل الذي موجود في حمام البيت
- انها الحياة سلام, الحياة التي تتدفق خارجنا وكل ما علينا فعلهُ ان نجعلها تتحول الى داخلنا وتحتلنا بالكامل عندها يصبح كل شيء بلا معنى, لا المال ولا السلطة ولا أي شيء اخر

خرجتُ من الماء وغيّرت ملابسي بملابس كنت قد تركتها في السيارة وسلمت على عطية وعدنا الى بغداد, في اليوم التالي اكتشفتُ سلام اخر, عطية كانت لديه القدرة على تحويل الشيطان الى ملاك وسلام كان شيطاناً لكن بذور الام الطيبة كانت مدفونة في مكان ما داخل روحهِ, لم يكن هابيل اخر لان قابيل نفسهُ اراد نهاية اخرى, نهاية اكثر جدوى واقل كارثية,

بعد ايام وضع سلام ملف كبير بين يدي, قال لي ستجدين كل ما يدين معتز في هذا الملف لكنني وبعد ان اطلعتُ على الملف بشكل دقيق وجدتُ ان ما يدين سلام في اوراقهِ اكثر مما يدين معتز فالذي يقتل بيديهِ هو المدان الاول اما من اعطى الاوامر خلف ابواب مغلقة فيمكنهُ التنصل وتكذيب ما ورد في صفحات هذا الملف, لكن ما اثارني حقا هو الجزء الثاني من هذا الملف والذي قطعهُ سلام بصفحة بيضاء ليعلن نهاية قصتهُ وبداية قصة احمد حسيبة, كان الجزء الثاني يخص احمد حسيبة المساعد الاول والمحرك الحقيقي لسلام بعد ان كلفهُ معتز بإدارة الحملة الانتخابية لسلام قبل صعودهِ الى البرلمان في الدورة الاولى, معتز ايضا كلف احمد حسيبة في التخطيط للحملة الانتخابية لسلام وضمان وصولهُ الى كرسي البرلمان في هذه الدورة ايضا لكن احمد حسيبة قام بمهمات غريبة اهمها تجنيد النساء ومن مناطق ودول مختلفة, هؤلاء النسوة لعبنْ دورا مميزا في الوصول الى كل الاهداف الذي كان لا يستطيع سلام الوصول اليها, وبطرق مختلفة, كانت هناك اكثر من مجموعة وكل مجموعة لا تعرف المجموعة الاخرى وكان يجري تدريبهن من قبل اساتذة من الطراز الاول, بعض هؤلاء الاساتذة كانوا قد عملوا في جهاز مخابرات الطاغية, كان احمد حسيبة يضطر للزواج من بعضهن قبل جر رجلهن الى المصيدة التي يصعب بعد ذلك الخروج منها

في تلك الفترة كان الصراع السياسي على اشدهِ والذي تحول الى الشكل الطائفي والحقيقة كان هذا الشكل هو الابشع للصراع لأنه يمنح القاتل مقبولية داخل نفسهِ اولا وداخل المحيط الاجتماعي الذي يحتويهِ وهذا يجعلهُ يستمر في اللعبة ويبالغ فيها بشكل لا يتوقعه انسان, ابشع تجليات هذا الصراع

هي السيارات المفخخة التي ملأت شوارع بغداد واخذت تحصد ارواح الجميع وبلا رحمة
اعدتُ الملف الى سلام وقلتُ لهُ انني اريد ايقاف معتز فقط وهذا الملف يدينكَ اكثر مما يدين معتز, قال لي اعرف ولا اعتبرهُ امرا مهما بل على العكس فانا استحق الإدانة, ربما حصلت على مغفرة اخي عطية لكن دماء الكثيرين في رقبتي ولا اعرف كيف علي ان احصل على مغفرتهم, قلت له انا ايضا لا اعرف لكنك تستطيع ان تؤجل التفكير في هذا الامر في الوقت الحالي فالشيء الاهم هو ان نغلق هذا الجرح المفتوح وربما بعدها يمكننا ان نبحث عن المغفرة, ربما اهم طريقة للحصول عليها هو ان نحاول ايقاف هذا الموت المجاني ومن الجانب الذي يهمنا ومعتز هو هذا الجانب الذي جرَ الجميع لساحة الموت وحول الفكر الانساني الذي كان يحاول تصديرهُ ابي الى مسدس واصبع يضغط على الزناد, سلام انا احتاجكَ الان, احتاجك ان تعيد لي ابي من معتز, اشعر بالعار منهُ وربما حتى ابي الان يشعر بالعار وعلينا اولا ان نأد عارنا هذا, ربما لا نستطيع ولكن المحاولة ستمنحنا شيء من الراحة وربما نحصل حينها على المغفرة
اوضاع البلد في تلك الفترة كانت في اسوأ حالاتها, غاب القانون نهائيا والامريكان بدأوا يحركون الموت في الشارع العراقي بطريقة غريبة, ربما الامور كانت تفلت منهم لكنهم كانوا دائما قادرين على اشعال الشارع حتى اذا كانت مسألة اطفاءهِ بعد ذلك اكثر عسرا وغير مسيطر عليها بشكل حقيقي, هذه الفوضى سمحت لنا بالتجمع مرة اخرى وهذه المرة معنا سلام وفي بيت اخر يملكهُ سلام في منطقة نائية وبعيدة عن العاصمة وعن البيت الذي كان مقرا لنا قبل ذلك, كنتُ اتوقع ان وجود سلام سيكون اضافة حقيقية لتحركات الجماعة لكنهُ

بدأ يتحرك بطريقة لا واعية اثارت انتباه احمد حسيبة الذي كان يرتب له امور الحملة الانتخابية وحوّل حينها بيت ابوه عبد الفتاح الى مقر حزبي يوزع اشياء كثيرة لأهل المنطقة من اجل انتخاب سلام الذين كانوا يعرفونهُ جيدا ويعرفون اباه عبد الفتاح وزوج اخته عزيز, هذا الحزبي الذي ظل يدافع عن الديكتاتور حتى النفس الاخير عندما تم قتلهُ من قبل الامريكان في مطار بغداد, حينها كان عزيز برفقة مجموعة من فدائيي صدام يقاتلون هناك ولم تستطع القوات الامريكية القضاء عليهم إلا بعد ان استخدمت اليورانيوم المنضب الذي كان يجعل الآلات والبشر يتحولون من كائنات صلبة الى كائنات سائلة وهذا اثار الرعب بين صفوف كل القوات التي كان تقاتل الامريكان حينذاك وسهلت عملية وصولهم الى بغداد بسرعة كبيرة قبل ان تقف الدبابة الامريكية على جسر الجمهورية بينما وزير الثقافة محمد سعيد الصحاف يعلن لوكالات الانباء ان القوات العراقية تقاتل الامريكان وتصدهم في الناصرية, لم يكن على أيِّ صحفي حينذاك الا ان ينظر من شباك فندق فلسطين مرديان ليجد ان الامر انتهى وان الامريكان الان في وسط بغداد

يتذكرون ايضا عبد الفتاح والد سلام الذي عمل في حزب البعث منتصف السبعينات لكنهُ ترك الحزب وعمل في السوق لفترة طويلة قبل ان يجعلهُ سلام يترك العمل بعد ان بدأ سلام نفسهُ يعمل مع عزيز في الحكومة, لكن ما حصل له بعد ذلك بعد ان هجرتهُ زوجتهُ ام عطية ومقتل ابنهِ عطية بظروف غامضة في بساتين الحلة جعلهُ ينزوي ويموت قبل دخول الامريكان الى بغداد بعدة سنوات, الناس هنا في هذا السوق الذي يشبهُ الاخطبوط والتي تمتد اذرعه في اتجاهات عدة كانت تعرف سلام جيدا, تعرف كل تاريخهِ وتاريخ ابوه لكن

كل ذلك تبخر عندما بدأ سلام وعن طريق احمد حسيبة باستقطاب بعض وجهاء المنطقة الى الحزب وبعد ان بدأ يوزع اشياء بسيطة للفقراء في هذه المنطقة, هذا جعل الجميع ينتخبهُ في المرة الاولى وسيعاودون انتخابهُ هذه المرة ايضا, لأنهُ بدأ يعطي اشياء اكثر اهمية منها مراوح سقفية ومكائن خياطة وبعض الاموال للمؤثرين في المنطقة, كل هذا يدار من بيت عبد الفتاح الذي تحوّل الى مقر حزبي يتوسط غابة من البسطيات التي كانت تحيطهُ من كل جانب

كانت خطة سلام تبدأ بعد ان يصل الى كرسي البرلمان للمرة الثانية عندها يستطيع التحرك واقامة تحالفات جديدة مع كيانات كانت دائما في صراع سياسي وعقائدي مع حزب معتز, عندها فقط سيكون مؤثرا بشكل حقيقي, سميرة لم توافق على فكرتهِ تلك وقالت له عليك ان تحارب الخطيئة اذا اردت ذلك من ارض طاهرة, ارض يمكنك معها تلمس الحقيقة في كل لحظة اما ان تحاربها من داخل بيت الخطيئة نفسهُ فهذا سيجعلك تتوغل داخلها فقط, لا اقول لك ان تترك معتز الان لان ذلك سيثير الشكوك لكن حاول فقط ان تُبقي روحكَ خارج اللعبة

لم يستطع سلام ان يُبقي روحهُ خارج اللعبة من دون ان يثير انتباه هذا الداهية احمد حسيبة الذي بدأ يلاحظ ان سلام تغير كثيرا حتى انهُ بدأ لا يشارك في جلسات السمر والنساء والشرب الذي كان يقيمها احمد حسيبة بين فترة واخرى ولهذا نقل شكوكهُ تلك الى معتز الذي كان يبحث عن خيط رفيع يقودهُ الى ابيهِ الذي بدأت مقالاتهُ وكلماتهُ تنتشر مرة اخرى وكلها ادانة واتهامات له ولحزبهِ الذي حول افكار الشيخ النقي الى سكاكين في صدور الاخرين ولهذا كلف احمد بمراقبة سلام وبطريقة تعدُ عليه انفاسهُ لكن احمد بدأ يتقرب من حماية

سلام واستطاع ان يغري احد هؤلاء بالمال لكي يخبرهُ عن قصة البيت الذي يقع في اطراف بغداد والذي وجد فيه سلام زوجتهُ سميرة برفقة عدد من الشباب هناك, ذهب احمد حسيبة الى البيت ولكن وجدهُ فارغاً الا من بعض الاثاث التي لا تشير الى شيء لكن رجل الحماية حلف لهُ يمين بان هذا البيت كان مقر أدير من خلاله شبكة من دون ان يعرف ماذا كانوا يفعلون, دهشة معتز بهذا الخبر كانت كبيرة ولهذا كلف احمد بالتقرب من سلام ومحاولة جرهُ لمعرفة الحقيقة مع مراقبتي ومراقبة سلام , احمد حسيبة بدأ يتكلم كثيرا عن معتز امام سلام, وما يملكهُ معتز من ثروة مقارنة بما يملكون هم مع انهم هم من يقوموا بكل العمل, بدى دائم الانزعاج منه حتى انه بدأ يشتمهُ امام سلام, لكن سلام لم يكن يثق كثيرا بأحمد حسيبة ليخبرهُ بالقصة ولهذا كان يبقى من دون ردة فعل وهذا كان يزيد من شكوك احمد حسيبة

سلام كان يعيش صراعا رهيبا فلم يكن من السهل عليهِ ان يتحوّل كل هذا التحول من دون معركة داخلية كانت تشتد داخل روحهِ فيرتمي بين احضان سميرة ويبكي بحرارة لكنهُ هذه المرة بدى متعباً بطريقة غريبة وهذا جعلهُ يركب السيارة ويتوجهُ لرؤية عطية, عطية الذي شعر معهُ براحة غريبة في ذلك اليوم, راحة لم يشعر بها من قبل حتى عندما كان مع عطية في بيت واحد لكن الان الامور تختلف وعطية يستطيع ان يسحب كل الالم والقلق والحيرة ومن دون ادنى كلام, سيارتان كانتا تطاردان سلام ومن دون ان ينتبه لهما ولكي يبقى سلام غير منتبه استلمتهُ سيارة اخرى من منطقة اللطيفية لتسلمهُ الى سيارة في منطقة المسيب, هذا كلهُ كان يدار من قبل احمد حسيبة الذي التحق بسلام بعد حوالي نصف ساعة من وصولهِ الى بيت عطية, بقى سلام داخل الكوخ حوالي

ساعة قبل ان يخرج برفقة عطية ويتوجهون بمحاذاة النهر ويقفون على قبر عندها بدأ سلام بالبكاء كالطفل, احمد حسيبة كان يراقب مذهولاً هذا الموقف قبل ان يُقبل سلام عطية من جبهتهِ ويعود الى سيارتهِ التي تركها بين الاشجار
بعد ان تأكد احمد حسيبة ان سلام غادر الحلة عائدا الى بغداد هجم مع جماعتهِ على الكوخ واقتادوا عطية الى مقر تابع للحزب في بغداد, بعد ساعة كان عطية مصلوباً على خشبة ويقف معتز امامهُ يتأملهُ بهدوء قبل ان يقترب منه ويقول لهُ

- اسمع ..انت رجل كبير وليست لنا نية ان نؤذيك لكن عندي ثلاثة اسئلة فقط, اجبنا عليها وسنعيدكَ بأيدينا الى بيتك
- ما هي الاسئلة..سأله عطية
- اولا من انت؟ والسؤال الثاني ماهي طبيعة علاقتكَ مع سلام اما السؤال الثالث فهو ماذا تعرف عن الشيخ ابراهيم النقي, لاحظ ..اسئلة سهلة
- نعم. وسأجيبكَ عليها

اما مَن انا فانا عبد من عباد الله, تركتُ لكم هذه الدنيا وانزويتُ حيث لا يراني ولا ارى احدا
اما بالنسبة بعلاقتي بسلام فسلام رجل ظلَ الطريق وجاء يطلب مني ان ادلهُ عليهِ
اما ماذا اعرف عن الشيخ النقي, فهذا الرجل لم ارهُ في حياتي لكنني قرأتُ كتبهُ, كان موهوما لكنهُ وجد ضالتهُ في ساعة الموت
تغيرت ملامح معتز وقبض على لحية عطية وقال لهُ

- اسمع ..لا وقت عندي لمثل هذه الألاعيب, تخبرني ما اريد معرفتهُ والا انت تعرف اننا نستطيع اجبارك على ذلك
- لا. لا يمكنكَ اجباري على شيء صدقني
- حسنا سنرى

اشارَ معتز لجماعتهِ ان يبدأوا بتعذيب عطية لكنهم قبل ان تصل اياديهم وسياطهم الى جسد عطية اكتشفوا انه مجرد جثة هامدة, كان رأسهُ قد سقط على كتفهِ فجأةً جعلهم واقفين لا يعرفون ما يفعلون.

(6)

موت عطية لم يكن امرأ عادياً داخل بساتين الحلة, عطية التي تعرفهُ اوراق الاشجار والطيور ولايمر يوم ما دون ان يجلس مع صديقهِ الاقرب النهر, النهر الذي كان يملك من الحكايات ما يجعل نهارات عطية تمر من دون ان يشعر بها, الكوخ بدى متعباً والنهر يذرف دموعهُ على الجرف وكأنهُ يعترض على الحكاية فهو يعرف انه لا يمكن لأحد اجبار عطية على الموت, هو فقط من يقرر ذلك وفي الوقت الذي يشاء, لكنهُ بالنهاية قرر ان يموت دون ان يسمحَ للأيادي النجسة ملامسة جسدهِ الطاهر, قرار عطية هذا جعل الاشجار تذرف اوراقها والنهر يحاول التخلي عن مائهِ فالحياة لا يمكنها ان تفهم خطأ بهذا الحجم, لا يمكنها ان ترى هذا السقوط الهائل من دون أيّ ردة فعل, انا ايضا كنت جزء من هذا الوجود وجسدي بدأ يهتز لوحدهِ بينما انقبضت روحي لأتحولَ الى كائن من بكاء, حاول سلام ان يفهم ما الذي جرى لي لكنني كنتُ في كون اخر فكل الاشجار اخبرتني بالكارثة اما الطيور فنقلت اليّ الخبر وبطريقة جعلتني افتح باب البيت واخرج للشارع وانا بملابس البيت ومن دون ان اضعَ ربطة على رأسي, وقفتُ في وسط الشارع فتجمعت العصافير فوقي على شكل دائرة كبيرة تلتفُ وتلتف لتسحبني داخلها واضيعُ نهائيا داخل هذا الوجود المرتبك والحزين, ركض سلام ورائي ورفعني بيديهِ واعادني الى البيت قبل ان يرشَ وجهي ببعض الماء فأفزُ كالمجنونة عندها صرخ سلام

- سميرة ..ما الذي حصل
- لقد قتلوا عطية
- ماذا
- لقد مات ..
- في الكوخ
- لا... هنا في بغداد

كانوا قد رموا جثتهُ في الشارع قبل ان تلتقطهُ سيارات الشرطة وتذهب بهِ الى الطب العدلي وكنت اعرف انه هناك جثة دافئة حتى وهو داخل مجمدات الطب العدلي التي تصل درجة حرارتها الى ما تحت الصفر, مبلغ بسيط كان كفيل بان يجعل الموظف المختص هناك يبحث بين الجثث ويسحب جثة عطية ويضعها على السدية قبل ان يرفع الغطاء ويسألنا

- هذا هو
- نعم

بالنسبة لي لم يكن عطية قد تغيرَ كثيرا, كان هو عطية نفسهُ وكنت استطيع التواصل معهُ بطريقة ما, ربما الذي اختلف اننا نتحدث الان بلغة لا يفهمها الاخرون ولايمكنهم رؤيتنا ونحن نتواصل بها مع بعضنا اما بالنسبة لسلام فكانت جثة عطية قد اشعلت داخلهُ كل محركات الالم وجعلتهُ يرتمي على الجثة وهو يصرخ

- خوية عطية ...قتلتكَ مرتين...انا السبب ..انا لعنة عبد الفتاح التي دفعها للدنيا, لقد ضيعتكَ عمراً كاملاً وعندما وجدتكَ مرة اخرى اتسبب بموتكَ, لا.. لن اطلب المغفرة فانا لا استحقها. لا استحقها

رفعتُ سلام وقلت لهُ

- سلام. آنت لم تقتلهُ... لا انت ولا غيرك يستطيعون قتل عطية, هو من يقرر فقط ذلك, فاطمئن وكف عن لوم روحكَ, فالمسألة اكبر منك بكثير
- سميرة .. البارحة ذهبتُ اليهِ ولابد انهم لاحقوني واستدلوا عليه
- حتى اذا كان هذا ما حصل ..فهم لم يستطيعوا قتلهُ ولا حتى لمسهُ, انظر الى جسدهِ, هل ترى اثار تعذيب, كيف قتلوهُ, لا رصاصة في جسدهِ ولا اثار للخنق على رقبتهِ ولا أي شيء اخر فكيف قتلوه...افهم ارجوك, عطية ذهب الى من يحب, هكذا ببساطة, لقد غفر لك حتى قبل ان تلتقي بهِ في ذلك الكوخ, وهو الان يدعو لك ايضا
- هل يفعل ذلك سميرة
- نعم..ثق بي
- ولكن ..ماذا نفعل الان
- ننفذُ ما يريد
- وماذا يريد
- يريد ان ندفنهُ قرب قبر امهُ هناك

طلب سلام من حمايتهِ ان يحضروا تابوتا وضعنا فيه جثة عطية ثم غسل جسدهُ وكفنه سلام بيديهِ وبمساعدة من احد القيمين في احدى الجوامع التي يقع بقربها مغتسل الموتى قبل ان ننطلق الى الحلة

كان قداساً رهيباً وقفت فيهِ الاشجار بهيبة كبيرة وحاول النهر الخروج من ضفتيهِ ليودع عطية بينما احنت الورود راسها احتراماً لشيخها الذي علمتهُ وتعلمت منهُ الكثير, كان شعورا بالهيبة والدهشة جعلتنا نغرق بصمت يصم مسامع الكون

في اليوم التالي كانت الصحف كلها تنقل واحدة من اقوى سرقات معتز والتي كانت بملايين الدولارات وهذه التقارير

جعلت حلفاؤهُ في الخارج يتصلون بهِ ويعاتبونهُ بقوة قبل ان يأمروه بإنهاء الامر, وهذا جعلهُ يتصل بأحمد حسيبة ويخبرهُ بقرارهِ بالتخلص مني ومن سلام , لم يكن التخلص من سلام بالأمر الهين, سلام النائب المعروف بالبرلمان اضافة الى ان علاقتهُ بمعتز معروفة للجميع وانهُ واحد من الأركان الرئيسية للحزب وكان القضاء عليهِ يشكل نقطة ضعف كبيرة قد تستغلها الاحزاب الاخرى لإثارة الكثير من التساؤلات خاصة بعد الفضائح التي بدأت تتكاثر بين طيات الصحف والمجلات وكلها تحمل توقيع الشيخ ابراهيم النقي, لكن سلام بدأ يخرب علاقات معتز مع حلفاؤه الذين سهلوا لهُ الوصول الى ما هو فيه الان ولهذا كان عليهِ ان يضع حدا للأمر, احمد حسيبة اقترح على معتز ان يتخلص مني ومن سلام بالسم, ونثير انهم ماتوا بتسمم غذائي من دون ان نتهم احداً او يتهمنا احد, اقتنع معتز بالفكرة واتصل بسلام وطلب منهُ الحضور الى مقر الحزب, سلام تأكدَ من مسدسهِ قبل ان يذهب لملاقاة معتز لكنني وضعت يدي على المسدس وقالت لهُ

- سلام. افهم ارجوك..قتل معتز لن يحل شيئا سوى انه يجعلنا نخوض بحرب اخرى, سيخرج الف معتز, وسيعمل على تدمير هذا البلد, افهم ارجوك معتز هنا ليس شخصا انهُ منظومة فساد كاملة ونحن نعمل على تفكيك هذه المنظومة, بعد ذلك لا يهم من يقتل معتز فانا متأكدة انهُ سيجد من يقتلهُ بالنهاية, عطية لا يريدك ان تقتلهُ سلام, ولو اراد لقتلهُ بيدهِ لكن هذا لم يكن حلا, الموت لا يمكن ان يكون هو الحل على الدوام, اذهب, قابلهُ بهدوء ومن دون مسدس, المهم ان تتركهُ بحيرتهِ التي هو فيها, كن ذكياً وتلاعب به قليلا ولا تخرج من مكتبهِ دون ان تضع في رأسهِ عشرات الاسئلة التي ستصيبهُ بالجنون, اومأ الي برأسه وخرج

في ذلك اللقاء اتهم معتز سلام بالخيانة, قال لهُ انك على اتصال بابي وترتيب التقارير من هنا قبل ارسالها لهُ الى مصر, لكن سلام اجابهُ ان اباك لا يحتاجني فهو يعرف من يكون معتز ويعرف كل صغيرة وكبيرة عن الحركة التي انشأها بيديهِ, لكن معتز لم يقتنع وبدأ يصرخ ويتهم سلام بالنذالة وانهُ هو من كونهُ بعد ان كان مطارداً من قبل مخابرات الديكتاتور في الاردن قال لهُ

- الان تبيعني بعد كل ما فعلتُ لك, لقد جعلتك عضو في البرلمان وزوجتك اختي, لماذا سلام, اخبرني فقط لماذا
- ربما عليك ان تسأل اختكَ ..

اجابهُ سلام بهدوء قبل ان يحاول ان يخرج لكن معتز صرخ وراءهُ

- سأسألها...اخبرها انني سأتناول الغداء معكم غدا, سنجلس ثلاثتنا ونحل الامر
- حسنا معتز..

هذا اللقاء الثلاثي شغل بالي كثيرا, ماذا يريد معتز مني الان وهو يعرف انهُ لن يحصل على شيء ليس في لقاء وانما حتى لو اضطر لتعذيبي فهو لن يعرف اين مكان ابوهُ الشيخ النقي بدى الامر مُحيرا لكنني قلت في نفسي وان غداً لناظرهِ قريب. جعلت الطباخين يهتمون كثيرا بصناعة مائدة فاخرة تليق بالسيد معتز, كنتُ احاول فقط ان تكون حواراتنا هادئة وان يخرج معتز مثلما دخل من دون ان يصل الى أيّ شيء او يتغير أي شيء, في الساعة الواحدة ظهرا كنا نجلس انا وسلام امام مائدة كبيرة فيها كل ما لذ وطاب لكن قطع الدولمة التي كان يحبها معتز ويعشقها سلام قد احتلت منتصف المائدة وبشكل مثير للشهية, في حدود الواحدة وعشر دقائق اتصل معتز واعتذر عن الحضور واخبرَ سلام انه سيحضر في

المساء, هذا جعل سلام يتناول صحن الدولمة بشهية كبيرة فهذا اللقاء كان يشكل هاجساً مزعجا لديهِ كما ان جلوسهُ الطويل امام مائدة الطعام جعلهُ يشعر بجوع حقيقي, لم اتناول شيئا سوى بعض السلطة فحركة معتز هذه جعلت رأسي يكتظ بالأفكار وجعلتني افهم انه كانت لديه غاية اخرى من هذا اللقاء وليس اللقاء بحد ذاتهِ, لكن بماذا يفكر هذه المرة وايّ لعنة قرر ان يطلقها, بعد الغداء خرج سلام لملاقاة اهل منطقته بعد الحملة الانتخابية التي قادها بيت عبد الفتاح ووزع خلالها مواد كثيرة ومبالغ مادية للناس هناك, كان افراد الحماية قد اعدوا له منبرا وكانت الناس بدأت بالتجمع لرؤية ابن منطقتهم البرلماني الذي يعرفونهُ ويعرفون تاريخهُ جيدا ولكن كل ذلك لم يعد مهما فربما سيوزع بعد هذا اللقاء اشياء اخرى او مبالغ مادية فالأصابع البنفسجية لابد ان يكون لها ثمن حتى اذا كان تافها من وجهة نظر سلام لكنهُ ذو قيمة جيدة من وجهة نظر هؤلاء الناس, حالما صعد سلام على المنصة بدأ السم الذي دسهُ الطباخون بين قطع الدولمة بالعمل وهذا جعل سلام ينفض ما في بطنهِ لكن السم استطاع حينها ان يصل الى جهازهِ العصبي ويشلهُ بالكامل, مات سلام في المشفى في اليوم التالي وتأكدتُ ان اخي معتز تحول الى شيطان حقيقي لا يمكن ايقافهُ الا بالموت, وهذا جعلني اتصل بسعد واحوّل باسمهِ كل ما املك من اموال قبل ان اطلب منهُ تكوين بؤرة حركة غايتها القضاء على معتز, بعدها حصلت على بعض الاموال التي تركها سلام في خزنة دلني عليها واعطاني مفتاحها تحسبا لأيّ حادث وحولتها الى سعد ايضا اما الاملاك فاستطاع معتز وضع يدهُ عليها وعندها اكتشف ان كل املاكهِ الذي وضعها باسمي قد بعتها وتصرفت بأموالها, رغم ذلك لم

يستطع ان يسألني لأنني في حينها كنتُ في السجن انتظر قرار الاعدام.
دفنتُ سلام على يسار قبر امهِ بينما كان قبر عطية على اليمين هناك في بساتين الحلة ثم وضعتُ الورد على قبرهِ وذهبتُ الى حفرة الماء نصف الدائرية والتي تبرز من جرف النهر كثدي فتاة في ريعان الشباب, رفعتُ بين كفي شيئا من الماء وقمتُ بإسقاطهِ على شكل قطرات على قبر سلام فانا اعرف انهُ ظمآن الان واعرف ايضا ان هذه القطرات ستجعل ظمأهُ يرحل الى الابد, بعدها اقتربت من قبر الام وهمست لها

- ها هم ابنائُك في حضنك مرة اخرى..وزعي حنانكِ عليهم بالتساوي هذه المرة فانهم يستحقون

عندما عدتُ للبيت كانت الشرطة بانتظاري بعد ان اتهمني كل الطباخون والعمال في البيت بانهم شاهدوني وانا ادسُ السم لسلام في حشو الدولمة, لم يكن التحقيق معي يأخذ وقتاً طويلا فكل شيء كان جاهزاً وكل التقارير كانت مُعدة مُسبقاً لأرسالها الى لقاضي, الان انا بانتظار حكم الاعدام فقط, بعد ان اكملتُ رسالتي واوصلتُ كل التقارير والاموال لسعد الذي بدأ بالفعل الاتصال بالجماعة وتشكيل حركة سرية هدفها الاول اعادة احياء افكار الشيخ النقي والقضاء على معتز الذي حوّل الحركة الى كيان شيطاني غريب.

(7)

صوتُ مؤذن الجامع القريب من السجن جاءَ متعبا ومتقطعا لكنهُ جعلنا ننتبه اننا في غرفة الضابط واننا نحتاج الى بعض القهوة لنحتفي بهذه القصة التي حيرت معتز وجعلتهُ يقطع الغرفة وهو يصرخ

- سميرة التي احبها والتي ارى فيها صورة امي هي من تخطط لتدميري ...يا ألهي ..لماذا ..ما الذي فعلتهُ لكِ سميرة
- انت معتز جعلتني اخسر اعز شيء في حياتي
- لكنني لم اكن انوي ان اؤذيه, كنتُ اريدهُ ان يبتعد فقط
- عن ماذا يبتعد, عن حلمهِ الذي صنعهُ بالتعب مع سيل من الخسارات ثم تأتي انت وتدمر كل شيء
- ماذا دمرت سميرة, وجودية الوالد العزيز التي لم يعد يؤمن بها احد, انا كنت في فرنسا ولم تعد الوجودية سوى ذاكرة ادبية وتاريخ فلسفي يدرّس في الجامعات, العالم تغير كثيرا سميرة وابي لا يريد ان يفهم
- نعم ..تغير كثيرا, تحولت الوجودية الى الطائفية, والايمان الى طريقة للقتل والتصوف الى قطع الرؤوس, انتم شوهتم الدنيا ولم تغيروها, مثلما قلت, لاتهم الافكار, المهم النتائج فقط, النتيجة الوحيدة التي اراها الان هي الخراب, الخراب وحدهُ هو منجزكم اخي, وكان عليك ان تفهم انني لن اقبل ان يتحول ما فعلهُ ابي وما آمن به الى وسيلة لدمار الفقراء فقط
- أي فقراء, نحن نعيش في غابة, وكل ما افعلهُ انني امنع الاخرين من التهامي

- لتلتهم الجميع, الان عليك ان تلتهمني ايضا, لكن لابأس معتز لدي فقط طلب اخير ..
هناك مكان مُحدد اريدكَ ان تدفنني فيهِ
- اين
- خلف مستشفى الكرامة بالقرب من قبر الحلاج, بين قبرين بارزين, هناك ستجد انهم تركوا مكان لقبر واحد بين هذين القبرين, ادفني هناك
- لمن هذين القبرين؟
- اولياء صالحين من اتباع الحلاج
على ورقة بيضاء رسمتُ خريطة بسيطة لأتأكد انهم سيدفنونني في المكان المطلوب واعطيتها لمعتز وقلت لهُ
- افعل ذلك معتز
- سأفعل
اقترب مني وقبلني من جبهتي قبل ان يرحل ويعيدونني بعدها الى السجن
في المرة الاخيرة التي زرتُ فيها هذين القبرين عرجتُ عند رجوعي على قبر الحلاج, كان سادن القبر شيخ اعمى قصير القامة ذو لحية بيضاء تنزلُ حتى صدرهِ كخيوط صوفية يتحول لونها في الجزء السفلي الى الاصفر الباهت.
عندما دخلتُ قال لي
- عن ماذا تبحثين
- لا ادري. ربما عن نفسي فقط
- ومن سيجدها لكِ...الاعمى او القبر
- الاعمى رؤية والقبر ذاكرة ووجود
- اذا تخلصي من عماكِ ولا تحوّلي جسدك الى قبر يمشي في الشارع مثل الاخرين
- ولهذا جئت الى هنا...

- هل تعرفين صاحب هذا القبر
- قرأتُ عنه فقط لكن ابي معهُ الان, اتخيل انهُ معهُ
- اذا انتِ تريدين اباك فقط
- هل يختلف الامر كثيرا
- نعم. أبوكِ تابع وانا اريدكِ في حضن الكوكب
- لكنني ما زلتُ ضائعة..
- وتبحثين عن دليل اعمى..
- ربما لأنه الوحيد الذي يرى الان
- انا اسكن بجواره فقط, لكنني لم أره ..لا يمكن ان اكون دليلكِ يا ابنتي...وانا نفسي ابحث عن دليل
- لكنك قريب, وانا بعيدة, انت تراهُ وتعرف ان يدكَ تصل وانا المحهُ مثل نجمة بعيدة في كون غريب ويدي قصيرة, ربما تحتاج الى دليل ولكن ليجعل يدكَ تمتد فقط اما انا فالمتاهات كثيرة والطرق متغيرة والدليل غائب
- ولكن من تكونين انتِ
- لا اعرف ..مجرد امرأة ارادت ان ترمي وردة على هذا الجسد المصلوب وخافت ان تؤذيه, امرأة ارادت ان تتأكد ان الله فقط هو الذي تحت جبتهِ, لكنها خافت من رؤيتهِ, امرأة تعرف النور واضطرت للدخول الى الظلمة, امرأة قررت الخروج الى الشارع كما فعل صاحب هذا القبر فوجدتهُ فماً كبيرا يلتهم المبصرين فقط
- وماذا تريدين من الشارع
- انا لا اريد شيئا ولكنني اراه مثل طفلٍ جائع وانا لا استطيع ان ارد الاطفال
- ستخسرين كثيرا
- وماذا خسر هو (اشرت الى القبر)
- لا شيء

- حسنا ..اذا دعني انتظر خشبة صليبي
اقترب مني الشيخ, مرر يديهِ على وجهي ثم مسح دمعة صغيرة فلتت من عيني وقال لي بهدوء
- الان فقط اعرف انها لن تتأخر كثيرا
وقفتُ وقبلتُ يدهُ ثم خرجتُ
وفعلا كما قال هذا الشيخ, لم تتأخر خشبة صليبي كثيرا فبعد يومين من لقائي مع معتز, عقدت المحكمة جلستها, ورغم عدم اهمية ما دار بين المدعي العام وبين المحامي الذي كلفهُ معتز بالدفاع عني والذي نصحني بالاعتراف بالجريمة كي يطلب من القاضي تخفيف الحكم لكنني رفضتُ ذلك, سألني القاضي ان كنتُ قتلتُ سلام بالسم, ابتسمتُ بوجههِ وقلتُ لهُ بهدوء
- المشكلة ايها القاضي هنا ليست بالمعرفة, فانت تعرف والمدعي العام يعرف لكن المسرحية يجب ان تكتمل وانا لا اريد ان اخرب العرض لكن دعوني خارجهُ فقط, حاول فقط ان لا تبالغ ياسيدي, المبالغة سيئة في التمثيل, ربما عليك فقط ان تأخذ دروس في التمثيل قبل ان تبدأ بعرض مثل هذا
المدعي العام صرخ من مكانهِ
- سيدي ربما تحاول ان تدعي الجنون
لكن المحامي اعترض على ذلك
- لا ..السيدة سميرة بكامل قواها العقلية وليس هناك ما يشير الى تعرضها للجنون
كنت اعرف ان مهمة المحامي ضمان حصولي على حكم مشدد لذلك وبسرعة كبيرة سد الثغرة التي حاول فتحها المدعي العام, المدعي العام ليس غبيا ولكنهُ تكهن انني سأدعي الجنون وتوقع ان يقوم المحامي بمثل هذه اللعبة لكنه تفاجأ بموقف المحامي وهذا جعلني اضحك بقوة قبل ان التفت للقاضي واقول لهُ

- لست مجنونة ..ارجوك الان اصدر حكمك ودعنا ننهي هذا العرض

القاضي سمع كلامي هذه المرة واصدر حكمهُ بالإعدام شنقا حتى الموت, قبل ان نخرج من المحكمة اقترب المحامي مني وقال لي

- تحبين نقدم استئناف
- لا. سلم لي على معتز وقل له لا داعي للاستئناف, أريد منهُ ان يسرع في انهاءِ هذه اللعبة فقط

لكن اللعبة لم تنتهي إلا بعد اربعين يوما من اصدار الحكم, على كل حال لم تكن فترة سيئة فسعد استطاع ان يرسل لي بعض الرسائل عن طريق واحدة من القائمات على السجن والتي تحضر لي الطعام احيانا, من تحت صحن الطعام اخرجتْ ورقة صغيرة وقالت لي هذه من سعد, شرح لي سعد في الرسالة كل ما قام فيه خلال هذه الفترة حيث اتصل بمجموعة اخرى وبدأ بتشكيل حركة هدفها فضح معتز من خلال مقالات قبل ان يبدأوا يتحركوا على القنوات التلفازية العراقية والعربية ويرسل لها مجموعة من الوثائق لمخالفات وسرقات وتلاعب بالقانون وخروقات قام بها معتز واتباعهُ وفي فترات مختلفة بعد 2003, طلب مني ان انصحهُ في مسألة الاتصال بأحزاب معارضة لحزب معتز وتوثيق العلاقة بها لكنني حذرتهُ من ذلك وقلت له ان اهم عامل يجب ان تكون محافظا عليهِ هو سرية الحركة, وضعتُ الرسالة في جيب السجانة قبل ان تلم الصحون الفارغة وتذهب, كنت اتصور ان هذه السجانة واحدة من اتباع ابي او لها علاقة قديمة مع الحركة لكنني عندما سألتها وجدت انها تفعل ذلك من اجل المال فقط وان سعد استطاع اغرائها بالمال لإيصال الرسائل منهُ واليهِ, قالت لي ان لديها ابنا اصيب في رأسهِ في

انفجار سيارة مفخخة وهو يحتاج الى عملية في الخارج عندها كتبتُ رسالة لسعد ان يساعدها في ارسال ابنها للخارج, سعد نفسهُ لم يكن يهتم بأمر هذهِ المرأة ولكنهُ عندما قرأ رسالتي ندم كثيرا لأنهُ كان يعتقد انها امرأة سهلة الشراء فقط, خلال هذه الفترة استطعت ان اطمئن على وضع الحركة وفاعليتها وارتباطها الحقيقي بفكر والدي الشيخ النقي الذي توصل الى مبدأ موجود ومعروف وبسيط تماما ولكنه هو الحل الوحيد وايُّ حل اخر سيقودنا الى خراب اخر, العلمانية التي تؤكد على فصل الدين عن الدولة هي المنفذ الوحيد للخروج من هذه المتاهة, اما بالنسبة للدين فهو مثلما كان يعتقد الشيخ النقي طوال عمرهِ, هو تجربة شخصية مع الله, لا يهم هنا شكل هذه التجربة او طرائق عباداتها ولكن المهم ان تكون حقيقية وصادقة وانسانية وهذا يجعل الاخر المختلف انتَ نفسك ربما في وقت اخر, فالتجربة متحولة ومتغيرة وتعتمد على الاكتشاف الحسي للإنسان ومدى تفاعلهِ الروحاني للوصول اليهِ, ليست التجربة الصوفية وحدها هي المطلوبة هنا بل أي تجربة انسانية اخرى تقود الى السلام الداخلي والخارجي, اما السياسة فهي عالم اخر, والذي يريد ان يدخل اليها يجب ان يخلع جلباب الله قبل ذلك, يمكنهُ ارتدائهُ فقط عندما يتحول الى معبود ويختلي مع نفسهِ ومع الله فقط, فالعلاقات الجمعية غير ممكنة هنا والله يريدك وحدكَ حتى اذا كنت تقف في وسط الملايين.

سعد كان يفهم ذلك جيدا وهو الذي رأى وشهد كل تحولات الشيخ النقي الاخيرة والذي تخلى فيها عن كل افكارهِ السابقة بأهمية ان تقود التجربة الذاتية مع الله الى رؤية سياسية واجتماعية معينة, فالحقيقة ان للسياسة ثوابت يجب ان يسير عليه الجميع, عندها فقط نضمن اننا سنتخلص من السياسيين

المغامرين الذين يقودون البلد الى الخراب مثل كل السياسيين الذين حكموا العراق في العصر الحديث, انهُ خروج على التاريخ ومحاولة تدمير أي بنى طائفية او سياسية استطاع هذا التاريخ زراعتها في جسد المجتمع وايجاد تكوين جديد خارج انماطهِ المتآكلة, لادين في السياسة ولا سياسة في الدين, هذا هو شعار الحركة الجديدة التي بدأنا نضعُ اسسها انا وسعد عن طريق الرسائل وهذا جعلني بالفعل اطمئن على انني استطعت ان اصححَ ولو بشكل بسيط كل الخراب الذي قام به معتز, انا متأكدة انني سأجدُ ابي مبتسماً وربما سيشكرني كثيرا لأنني لم اترك رسالتهُ ناقصة.

عندما ايقظتني السجانة في حدود الساعة السادسة صباحا, شعرتُ بسعادة غامرة وارتياح لا اعرف مصدرهُ لذلك التفتُ اليها وقلت لها بابتسامة

- صباح الخير
- خير
- نعم ..كيف هي اخبار ابنكِ
- اجروا له العملية وهو الان بصحة جيدة وسيعود بعد اسبوع
- اذا ...خير..صباح الخير
- لكن اليوم هو.....(ارتبكت ولم تكمل)
- نعم. هو يوم اعدامي ..في أيّ ساعة؟
- في السابعة
- جميل ..لدينا متسع من الوقت لنفطرَ سوية
- لكن من الافضل للمعدومين ان لايتناولوا شيئا
- لا تهتمي. آنا جائعة ..ولاتنسي الشاي

بعد دقائق كانت صحون من القشطة والمربى امامي, اكلت بلذة غريبة وهذا جعلها في حالة من الدهشة والاستغراب, كان

الحزن واضح على وجهها وهذا جعلني امد يدي نحوها واقول لها

- لا تهتمي...كُلي ..فانا لستُ مهتمة للأمر, صدقيني لن اخسر شيئا
- لكنك ستموتين
- نعم, ولكن ما الضير, فكلنا سنموت بالنهاية. لا تهتمي

في حدود الساعة السابعة ذهبت معها الى غرفة الاعدام, كان كل شيء معدا وبشكل جيد, وقفتُ امام الشيخ الذي لقنني الشهادة قبل ان يسألني الضابط ان كان لدي رغبة اخيرة, قلت لهُ, نعم هي رغبة واحدة فقط, لاتضعوا شيئا على وجهي ولا تقيدوا يدي, لم يوافق الضابط على عدم تقييد يدي لكنني نظرت الى الشيخ واحد الضباط الكبار, اعتقد ان معتز ارسلهُ ليتأكد ان كل شيء يسير على ما يرام, نظرتي هذه اجبرتهم على الموافقة, اخذوني ووضعوا الحبل على رقبتي عندها مددتُ يدي ليتحولا الى جناحين استطعتُ ان اسحب روحي بكل هدوء من جسدي لتخرجَ من عيني اليمنى عندها سقطت يداي ووقفتُ قرب الشيخ اراقب جسدي الذي استند على الحبل الممدود قبل ان يسقط وتنكسر رقبتي, كان جسداً جميلاً عشتُ بهِ حياة كاملة بكل تناقضاتها, الان عليّ ان اودعهُ فقط فلم يعد هو يحتاجني ولم اعد انا بحاجة اليهِ

معتز سلم الورقة التي رسمتُ بها المكان الذي يجب ان ادفنَ فيه الى احمد حسيبة وقال لهُ, تأكد انكم تدفنونها في المكان المطلوب, هذه وصيتها, بعد سؤال وبحث في مقبرة معروف الكرخي وبالقرب من قبر الحلاج استدلَ احمد وجماعتهُ على المكان لكن احمد لم ينزل من السيارة واكتفى بمراقبة عملية الدفن من داخل السيارة قبل ان يعيد الورقة الى معتز ويخبرهُ ان كل شيء سار على ما يرام.

حاول معتز رمي الورقة لكنهُ توقف فجأة قبل ان يفتحها وينظر اليها ويدسها في درج المكتب, خلال يومين شكلت هذه الورقة هاجساً عند معتز فهو لم يفهم من هم اصحاب هذين القبرين الذين طلبت سميرة ان تكون بينهما, رغم رغبتهِ بمعرفة من هم اصحاب هذين القبرين لكن صوتاً في داخله يصرخ به ان يترك الامر وينسى كل شيء لكن بعد يومين تغلبت رغبتهُ فخرج واستقل سيارتهُ وبعد ان سأل احدى مكاتب الدفن هناك قاده شاب الى المكان, وجد ثلاثة قبور, القبر الذي على اليمين كان مكتوب عليه (هنا ترقد السيدة فاطمة الذِكر), اما الذي على اليسار فكان مكتوب عليه(هنا يرقد الشيخ ابراهيم عبد النبي الملقب بابراهيم النقي) في وسط القبرين كان قبري يبدو مبتهجا, اقتربَ معتز من قبري وقال

- علي ان اعترفَ لكِ انكِ استطعتِ هزيمتي هذه المرة بعد ان تركَنا معتز مرَ من امام قبر الحلاج, كان الباب الحديدي مفتوح ومن خلالهِ يمكنك ان ترى شيخ كبير اعمى بلحية بيضاء يقف امام قفص داخلهُ بلبل جميل, هذا البلبل لم يتناول الماء والطعام منذ يومين, بالضبط منذ الساعة التي دفنوني فيها وهذا جعل سادن قبر الحلاج الاعمى يتلمس القفص قبل ان يفتحَ بابهُ الصغير ويسمح للبلبل بالخروج, حالما خرج البلبل ذهب الى قبر الحلاج وتمسح بهِ قبل ان يذهب الى جدول ماء صغير يغذي الحديقة الصغيرة للمرقد ويشرب حتى الشبع ويبدأ بالتقاط بعض الحبوب المنتشرة في الباحة الخارجية للمرقد ويطيرُ عاليا قبل ان ينزل على قبري عندها يبدأ بالتغريد, في البداية يغردُ بصوت واطئ ومنكسر لكن الصوت ما يلبث ان يعلو..ويعلو ليغطي المدينة كلها.

تمت

المؤلف

سعد عودة رسن
مواليد: 1967\10\11
التحصيل الدراسي: دبلوم الكترونيك
عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
عضو الملتقى الادبي للشباب (ملتقى صليخ الادبي) عام 1989
عضو مؤسس في جماعة حياة عام 2015
بدأ الكتابة والنشر منذ عام 1989 حيث نشر نصوصهُ في عدد من الصحف والدوريات العراقية والعربية
لديه ديوان مستنسخ عام (1994) بعنوان (قيء الملائكة)
طبع ديوان عن دار المتن في بغداد بعنوان (يبوووووو) عام 2016
طبع ديوان عن دار أدب فن في هولندا بعنوان (طاسين الشارع) عام 2017
فاز بالجائزة الثانية للقصة القصيرة جدا التي اقامها اتحاد ادباء النجف
القائمة الطويلة للقصة القصيرة التي اقامها اتحاد ادباء بغداد
القائمة القصيرة لمسابقة هيئة المسرح العربي 2017

ينشر نصوصه ومقالاته في عدد من الصحف العراقية منها الزمان والصباح والمستقبل العراقي والبينة الجديد
شارك في الكثير من المهرجانات والجلسات الادبية ضمن الملتقى الادبي للشباب (1989- 1995) او ضمن جماعة حياة 2015
لديه الان المخطوطات التالية في انتظار الطبع

1- لذة العدم: ديوان شعري يضم القصائد العمودية
2- قبر اخر ممتع : مجموعة قصصية
3- الشهر 13 : كتاب يضم ثلاث مسرحيات من ضمنها مسرحية شعرية, كما تم تجسيد مسرحية (جثة مولانا) من قبل فرقة ماداماس في الجزائر تحت عنوان (الشهر 13)
4- النوم مع سحلية ميتة : رواية

الأيميل الشخصي: saad.awda@gmail.com
تليفون: 07713868833

عرس سماوي

رواية

سعد عودة

ابي بدى حقيقيا وقريبا بطريقة كسرت هذه العوالم وجعلتني اقترب منه واشم عطره من دون ان اجرؤ على لمسه سألته بهدوء لماذا نحن امام بوابة الجنة كنت اتصور ان تكون محاكمتي امام الجحيم ليس هناك جحيم عدم دخول الجنة هو الجحيم فقط الجنة ليست الاشجار ولا الطيور وانما هي احساسنا بالأمل الامل بأي شيء برؤيته يا ابنتي الجحيم فقط هو عدم امكانية ذلك وهذه البوابة والاشجار والطيور مجرد طريق اليه, هو هناك خلفها ينتظر ان نغفر لبعضنا فقط وكيف أراه بعد كل ما فعلت سيكون كل شيء على ما يرام عندما نكون امامه ابي ماذا سأقول له لا شيء روحك هي من ستخبره بكل شيء ستنام بين يديه كعصفور متعب وتذوب فيه بعد ان تتخلص من كل دنيويتها كل آثامها وغربتها. كل حيرتها وقلقها, ستمتلك المعرفة الكاملة وسترى الحقيقة بشكل الكامل هي اللحظة الاهم, لحظة العودة الى حضن الحقيقة لحظة الصدق والمعرفة الكاملة.

دار أدب فن للثقافة والنشر 2019